مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم

العلامة الاستاد جعفر سبحانى

مع الوهابيين
في خططهم وعقائدهم



اسم الكتاب: مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم.

المؤلف: العلاّمة الاستاذ جعفر سبحاني

المترجم: ابراهيم اركوازي.

اصدار: مؤسسة الفكر الاسلامي.

الطبعة: الاولى. طهران ١٤٠٦ هجرية.

السعر: ٢٠٠ ريال

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع　　الصفحة

الموضوع الصفحة

* بسم الله الرحمن الرحيم *

تمهيد

مع الوهابيين في عقائدهم.

الحمدلله الاول فلا شيئ قبلـه، والآخر فلا شيئ بعده، والظاهـر فلا شيئ فوقه، والباطن فلا شيئ دونه.

والصلاة والسلام على نبـيه وخيـرة خلقه الـذي بعثـه والناس ضلال في حيرة، وخابطون في فـتنة، قد استهوتهـم الاهواء، واستزلتهم الـكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حـيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجـهل، فبالغ صلى الله عليه وآله في النصيـحة، ومضى على الطريقة، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة، بعثه سبـحانه لانجاز عـدتـه، وتمام نبـوتـه، مأخوذاً على النبـيين ميثاقه، مشـهورة سماته، كريمـاً ميلاده واهل الارض يومـئذ ملل متفرقة، واهواء منتشرة، وطوائف متشتتة، بين مشـبّه لله بخلقه او ملحد في اسمه، او مشير الى غيره، فهداهم به من الضلالة، وانقذ هم بمكانه من الجهالة.

والصلاة عليه وعلى آله الذين هم موضع سره، ولجوء أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم اقام انحناء ظهره، واذهب ارتعاد فـرائصه، الـذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وعلى اصـحابه الـذين قرأوا الـقـرآن فأحكموه وتـدبروا الغـرض فأقاموه، احيوا السنة، واماتوا الـبدعة، دعوا للجهـاد فأجابوا، ووثقوا بالـقائد فاتبعوه، لقوا

الله فوفاهم اجورهم، واحلّهم دار الأمن بعد خوفهم، ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، صلاة دائمة مادامت السماء ذات ابراج، والارض ذات فجاج.[1]

أما بعد، فان الامة الاسلامية عن بكرة ابيها اصفقت على التوحيد في مراحله المختلفة، فاتفقوا على توحيد ذاته، وانه واحد لا ندّله، وفارد لامثل له.

كما اتفقت على انه الخالق ولا خالق غيره، قال سبحانه «**هل من خالق غيرالله**» (فاطر/ ٣) وقال سبحانه: «**قل الله خالق كل شيء**» (الرعد/ ١٦).

كما اصفقت على توحيده في الربوبية، وانه لاربّ ولا مدبر سواه، قال سبحانه: «**يدبر الأمر مامن شفيع الاّ من بعد اذنه ذلك الله ربكم فاعبدوه افلا تذكّرون**» (يونس/ ٣)

كما اجمعت على توحيده في العبادة وانه الاله الذي يُعبد ولا يُعبد غيره، قال سبحانه: «**قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد الاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله**»
(آل عمران/ ٦٤)

بل هذه هي النقاط المشتركة بين الشرائع السماوية وما يرى من الشذوذ عن هذه الاصول لدى بعض اتباع الشرائع السابقة فانما هو من فعل الدسّ والتحريف من قبل الاحبار والرهبان والقسيسين.

* * *

الوهابية وموقفهم الحقيقي من قضايا التوحيد

والعجب ــ وما عشت اراك الدهر عجبا ــ أن الوهابية وليدة فكرة شيخ الضلالة ابن تيمية الذي عرّفنا التوحيد في كتابه بقوله انه سبحانه فوق سماواته على عرشه، عليٌّ على خلقه[2].

وعاد يقول: ينزل ربنا الى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فاستجيب له، من يسألني فاعطيه، من يستغفرني فاغفر له.[3]

١ــ الخطبة مقتبسة من كلمات الامام علي(ع) في مواضع مختلفة في نهج البلاغة.

٢ــ مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية. العقيدة الواسطية ص ٤٠١.

٣ــ نفس المصدر ص ٣٠٩.

هذه ثقافة الرجل، وتنزيهه لله سبحانه وهو صريح في القول بالتجسّم واثبات الجهة لله سبحانه، وقد تمسك في ذلك بظواهر الآيات والاحاديث النبوية من دون ان يتعمق في الآيات الواردة في ذلك الموضوع ومن دون أن يحقق في اسناد الاحاديث ومضامينها، فاذا كان هذا رأي الاستاذ، فكيف بمن يلحس قصاعه ويجلس على موائده امثال ابن القيّم ومحمدبن الوهاب وهؤلاء يريدون ان يكونوا اساتذة التوحيد و دعاته، ولله درّالقائل:

ومن عجب الدنيا حكيم مصفر وأَقش كحّال وأَعمى منجم
وقارؤنا تركي وهندي خطيبنا تعالوا على الاسلام نبكي ونلطم

هذه عقيدة القوم في الله سبحانه، فاذا اردنا تقييم هذه الافكار يجب علينا ان نقارن بينها وبين ماروي عن ائمة أهل البيت في ذلك الصدد، ثم نرى اي الفريقين أحق ان يتّبع.

أفهل من يصف الله سبحانه بالتجسم والجهة والنزول الى السماء الدنيا ام من يصفه بقوله: الحمد لله الذي لايبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادّون ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لايدركه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل محدود. فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه و من ثناه فقد جزأه، ومن جزأه، فقد جهله ومن جهله فقد اشاراليه، ومن اشار اليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم فقد ضمنه ومن قال: علام فقد اخلى منه، كائن لاعن حدث، موجود لاعن عدم، مع كل شيئ لابمقارنة وغير كل شيئ لابمزايلة...». [1]

وانت اذا قارنت ما نقل عن اصحاب الحديث في مجال توحيده وتنزيهه سبحانه لقضيت منه عجباً، فهذا الامام الاشعري ينقل عنهم ان معنى توحيده سبحانه في الخالقية، ان سيئات العباد يخلقها الله، وان أعمال العباد يخلقها الله عزوجل وان العباد لايقدرون ان يخلقوا منها شيئاً. [2]

١ــ نهج البلاغة خطبة الامام علي بن ابي طالب، الخطبة الاولى.

٢ــ مقالات الاسلاميين ص ٣٢١.

ان ابـن تيمية ومن لـف لـفّه يصفون انفسهـم بـأهل الحديث ويفسرون التوحيد في الخـالقية بهذا المعنى، افهل بعد هذا يمكن لهم تنزيهه سبحانه عن الظلم والجور والـتعدي والـتجاوز، فاذا كان هـو الخالق لسيئـات العباد، وليس لـلعباد فيها صنع لا استقلالاً ولا تبعاً فلماذا يعذبهم؟ اوليس هذا من مقولة قول القائل: «غيري جنى وانا المعاقب فيكم».

وانت خبير بـان التوحيـد في الخالقية ليس بالمعنى الذي ذكره اصحاب الحديث، وفي مقدمتهم ومؤخرتهم: الجبرية وابن تيمية واشياعه.

بل معناه ان الخـالق المستقـــل والمؤثر الغني عن كل شيً هوالله سبحانه ولكن هناك فواعل و مؤثرات تؤثر باذنه سبحانه وتخلق بأمره، وتقوم وتقعد بحوله وقوته، فـهو المسؤول عن اعماله و افـعاله: **«كلُّ نفس بمـا كسبت رهينـة»** (المدثر/٣٨)

تزلّف علماء الوهابية الى السلاطين.

نرى ان علـماء الـوهابيـة في السـعوديـة وغـيرها يـتـزلفـون الى اصـحاب السلطات، وخـلفـاء الجور ويسعـون في تبـرير أعمالهم الظـالمة، ومواقفهـم الجائرة ويجتهدون في اضفـاء طابع الشرعـية على كل ما يصدر من حكـامهم واولي أمرهم بِراً كان او فاجراً.

ولا عـجـب في ذلـك لانهم هم الذيـن يـرون الصـلاة خـلف كل امام بروفاجر صحـيحة، والدعاء لائمة المسلمين بالصلاح فريضة، والخروج عليهم عند الانحراف محرمة.[1]

واين هم مـن قول رسول الله(صلّـى الله عليه وآله) حسبما نقلـه عنه سبطه الحسين بن علي ابوالشـهداء اذ قال: ايها الـناس ان رسول الله(ص) قال: **من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فـلـم يغيّر عـليه بفعـل ولا قـول، كان حقاً على الله ان يـدخـله مدخله.**[2]

١ــ المصدر السابق ص ٣٢٢. وهوعـقيدة اصحـاب الحـديث وابن تيـمية واتباعـه مـن هذه الفرقة.

٢ــ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤ حوادث سنة احدى وستين.

قل لي بربك اي القولين واي المنهجين ينبع من صميم الاسلام، ويجسد رؤيته ونظريته. قال سبحانه «**ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار**» (هود/ ١١٣).

الثورة الاسلامية وهجمة الوهابية.

لقد احدث نجاح الثورة الاسلامية الايرانية زلزالاً كبيراً في المنطقة وأقلق جميع الانظمة الحاكمة فيها، وبالاخص مايتصل منها بالقوى الكبرى، وتعتمد عليها كل الجهات والدوائر الاستعمارية، ومن هذه الانظمة النظام الوهابي الحاكم على قطر كبير من الاقطار الاسلامية يزخر باضخم الثروات الطبيعية، ويتمتع بموقع جغرافي خاص.

فعمد الاستعمار البغيضُ واذنابهم وعملائهم وفي مقدمتهم دعاة الوهابية الى الوقوف في وجه الثورة الاسلامية وتيارها بشتى الوسائل من ايجاد القلاقل في داخلها واشعال نيران الحرب في وجهها، وفرض الحصار الاقتصادي عليها. ولما فشلت جميع هذه المخططات المناهضة للثورة عمدوا الى تشويه ثقافة الثورة ومسخ مفاهيمها ورميها باكاذيب ونسب مفتعلة لمنع الناس من اتباع نهجها، والاقتداء بها، وبقائدها.

وقد تمثل هذا المخطط العدواني على ثقافة الثورة الاسلامية في امور:

١ــ تحريك اذاعات وصحف مختلفة في شتى اقطار العالم للتحدث ضد الثورة، والتشويش عليها، وتشويه ثقافتها الواقعية.

٢ــ طبع رسائل وكتب كثيرة جداً حول ثقافة الثورة بايدي رجال و كتاب مأجورين لايهمهم الاّ علفهم، والاّ مناصبهم الدنيوية، وفي مقدمتهم كيذبان اشوس هو احسان إلٰهي ظهير، وهو من مرتزقة السعودية في المنطقة.

فقد قام بكل ما يملك من القوى، وبكل ما تقدمه السعودية من العدة بتشويه ثقافة الثورة بين المسلمين، والمسكين فقير في كل شيئ حتى في مايدعيه من المعرفة بمذهب الشيعة الامامية، فجعل يخلط ويخبط، ولا يميزبين الأصل والفرع ولا بين العقيدة والرواية، ويستدل بالرواية على كونها مذهب الشيعة.

اضف الى ذلك كثيراً من اكاذيبه وافتعالا ته واستنتاجاته الزائفة،

فلنا مع الرجل موقف آخر في كتاب مستقل.

٣ـ نشر المذهب الوهابي بين الشباب في المنطقة باساليب مختلفة، مصرحين بأنهم هم المسلمون الموحدون العاملون بالكتاب والسنة، وغيرهم بُعداء عن ذلك .

فلاجل ذلك وضعنا تلك الرسالة في تبيين المذهب الوهابي، واوضحنا فيها قيمة ماتقوله الوهابية ومدى بعدها عن الكتاب والسنة وسيرة المسلمين.

وفي الختام نقترح على علماء الاسلام المتواجدين في جميع الآفاق والاقطار: اولاً، وعلى كتّاب الوهابية ثانياً، القيام بعقد مؤتمر عالمي اسلامي يضم علماء المسلمين من كافة الطوائف الاسلامية لدراسة هذه المسائل على ضوء الكتاب والسنة ونشر نتائج ذلك المؤتمر في الملأ الاسلامي، حتى يتبين الحق باجلى مظاهره ويُتبع والحق أحق ان يُتبع والله هو الموفق والمعين.

الفصل الاول:

من هومؤسس المذهب الوهابي؟

يُنسب المذهب الوهابي الىٰ الشيخ محمدبن «عبدالوهاب» النجدي. وقد أخذ هذا النسب من اسم «عبدالوهاب» والد الشيخ «محمد». ويقول بعض العلماء إن السبب في عدم تسمية هذا المذهب بالمذهب «المحمدي» نسبةً الىٰ إسم مؤسسه الشيخ محمد، هولتجنب التشابه مع إسم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله، والحيلولة دون إستغلاله.[1]

ولد الشيخ محمد في عام ١١١٥ هـ في مدينة «عُيينَة» إحدىٰ المدن التابعة لـ«نجد»والتي كان والده أحد قضاتها. كان الشيخ منذ الطفولة مولعاً كثيراً بمطالعة كتب التفسير والحديث والعقائد، وقد درس الفقه الحنبلي علىٰ يد والده الذي كان من علماء الحنابلة. كان الشيخ منذ أوائل شبابه يستقبح الكثيرمن الطقوس الدينية التي كان يمارسها أبناء «نجد»، ففي مرةٍ توجه الىٰ المدينة المنورة بعد ما أنهىٰ مناسك الحج وهناك أنكرعلىٰ الناس التوسل بالرسول(ص) عند قبره. بعد ذلك عاد الىٰ «نجد» ومن هناك توجه الىٰ البصرة وهو في طريقه إلى «الشام». أقام فترةً في «البصرة» واعترض علىٰ الناس الكثيرمن طقوسهم، إلاّ ان أبناء «البصرة» أخرجوه من ديارهم فلمّا خرج من البصرة وهو في طريقه إلى مدينة «الزبير» ثقُل عليه الحرّ والظمأ وكاد أن يهلك. فتداركه رجل من أهالي الزبير وعطف عليه لأنه كان يرتدي زي رجال الدين، فسقاه ماءً وأركبه حتىٰ وصل به الىٰ الزبير. أراد الشيخ مواصلة سفره الىٰ «الشام» ولكنه لم يكن يملك من

١ــ دائرة المعارف لفريد وجدي ج. ١ ص ٨٧١، نقلاً عن مجلة المقتطف ج ٢٧ ص ٨٩٣.

المال والزاد مايكفي للسفر الىٰ الشام لذلك عقد العزم علىٰ التوجه الىٰ مدينة «الأحساء» ثم مدينة «حريملة» التابعة لـ«نجد».

كان ذلك في عام ١١٣٩ هـ؛ وفي نفس العام كان والده قد نقل من «العُيينة» الىٰ «حريملة». فرافق والده وتتلمذ علىٰ يده. إلاّ أنه واصل انكاره لعقائد أبناء «نجد» وهذا الأمر، أدىٰ الىٰ وقوع نزاع وجدل حادّين بينه وبين والده من جهة وبينه وبين أهالي «نجد» من جهة أخرىٰ. واستمرت الحالة هذه عدة سنوات حتىٰ وفاة والده عام ١١٥٣هـ.[٢]

قام الشيخ محمد بعد وفاة والده بالإفصاح عن عقائده والاستمرار في تنكره لجانب من الطقوس الدينية التي كان يمارسها الناس. فاستأثر به جمع من أهالي مدينة «حريملة» وتبعوه حتىٰ ذاع صيته واشتهر. وبعدها توجه الشيخ الىٰ مدينة «العيينة» التي كان يرأسها آنذاك «عثمان بن حمد».

استقبل عثمان «الشيخ محمد» وأكرمه ووعده بتأييده ومساندته وبالمقابل أعرب الشيخ محمد عن أمله في أن يحظىٰ عثمان بتأييد أهالي «نجد» وطاعتهم.

بلغ أمير «الأحساء» نبأ دعوة «الشيخ محمد» وتصرفاته فكتب رسالةً الى «عثمان» يوبّخه فيها؛ اعتذر عثمان علىٰ إثرها من «الشيخ محمد» وطلب منه مغادرة المدينة. الاّ ان الشيخ محمد اقترح علىٰ عثمان قائلا: لو أقدمت علىٰ عوني لأصبحت مالكاً لـ «نجد» كلها. ولكن عثمان رفضه وطرده من مدينة «العيينة».

في عام ١١٦٠هـ، أي بعد ما طرد «الشيخ محمد» من مدينة «العيينة»، توجه الىٰ مدينة «الدرعية» التي كانت إحدىٰ أشهر المدن التابعة لـ «نجد»، وهناك استقبله «محمد بن سعود» (جد آل سعود) الذي كان آنذاك أميراً لمدينة «الدرعية» ووعده بأن يجعله عزيزاً مكرماً. وبالمقابل بشّره «الشيخ محمد» ببسط سلطته ونفوذه علىٰ بلاد «نجد» بأسرها. وهكذا بدأت العلاقة بين «الشيخ محمد» و «آل سعود».[٣]

والجدير بالذكر ان أهالي مدينة «الدرعية» كانوا حتىٰ ماقبل وصول «الشيخ

٢ـ مختصر من تاريخ نجد لـ (الآلوسي) من ص ١١١ الىٰ ص ١١٣

٣ـ كتب أحد المؤلفين العثمانيين في الصفحة ١٥٢ من كتابه «تاريخ بغداد» كتب بداية العلاقة بين «الشيخ محمد» و «آل سعود» بشكل آخر. ولكن يبدو أن الأصح هو ماورد أعلاه الصفحة.

محمد» إليها وتوافقه مع «محمدبن سعود» يعيشون حالةً شديدةً من الفقر والحرمان. حيث كتب الآلوسي نقلاً عن «إبن بشر النجدي» مايلي:

يقول إبن بشر النجدي، إنني شاهدت مدينة «الدرعية» قبل وصول «الشيخ محمد» إليها، فقد كان ابناؤها يعيشون حالةً كئيبةً من الفقر والحرمان، وقد شاهدتها أيضاً بعد وصول «الشيخ محمد» إليها في عهد الأمير «محمدبن سعود» حيث كان أبناؤها يملكون ثروات هائلةٍ، وان أسلحتهم كانت مزينةً بالذهب والفضة وكانوا يركبون حصناً أصيلةً، ويرتدون أزياءاً فاخرة ويتمتعون بكل مايعود عليهم بالثراء والغنىٰ بحيث يعجز اللسان عن وصفه. ففي أحد الأيام ذهبت الىٰ احد أسواق المدينة، فكان الرجال في طرف والنساء في طرف آخر، وقد ملئت السوق بكل شئ: الذهب، الفضة، الأسلحة، الجمال، المواشي، الحُصُن، الألبسة الفاخرة، اللحوم، القمح... والخ؛ وكانت أصوات الباعة والزبائن تتداخل مع بعضها كتداخل أصوات حشرات النحل المكتظة حول خلايا العسل.[4]

وهنا تجدر الإشارة الىٰ ان «إبن بشر» لم يذكر من أين كانت تأتي كل تلك الثروات الهائلة؟ بيد ان التاريخ يبين بأن «الشيخ محمد» كان يحصل عليها من خلال الهجمات التي كان يشنها علىٰ القبائل والمدن الأُخرىٰ في «نجد» والتي كانت تأبىٰ قبول عقائده. فلذلك كان يسلب وينهب أموالها وممتلكاتها. من جهة أُخرىٰ كان «الشيخ محمد» يتّبع اسلوباً خاصاً بالنسبة لتقسيم الغنائم (التي كان يغتنمها من المسلمين في تلك البلاد). إذ انه كان يتصرف فيها حسب رغبته؛ فمرةً كان يقسّم الغنائم رغم كثرتها بين شخصين ومرةً أخرىٰ بين ثلاثة أشخاص وهكذا. حتى أن أمير «نجد» كان يأخذ قسطه من الغنائم بموافقة «الشيخ محمد» ذلك لأن الشيخ كان يتولىٰ الغنائم بنفسه.

كان «الشيخ محمد» يعامل المسلمين، الذين كانوا يرفضون عقائده ويأبون اتّباعه، معاملة الكافر المحارب. ولم يكن يولي أي اهتمام لأرواحهم وأعراضهم فكان ذلك أكبر نقطة ضعف في حياته. وخلاصة القول ان «محمدبن عبدالوهاب» كان يدعو للتوحيد، ولكن لتوحيد خاطئ. فمَنْ قبل دعوته سَلِمْ هو وماله، ومن رفض أحلّ وأباح دمه وماله كالكافر المحارب. وبناءً علىٰ ذلك قام «الوهابيون» بعدة معارك في «نجد» وخارجها كاليمن والحجاز وأطراف «سوريا» و «العراق» فهم كانوا يبيحون التصرف بالمدن التي كانوا يسيطرون عليها بعد المعارك كيفما شاؤوا. فإن تمكنوا ضمّوا أراضيها إلىٰ أراضيهم واذا استحال ذلك كانوا يكتفون بالغنائم التي كانوا يستولون عليها من تلك المدن.[5]

٤ــ تاريخ إبن بشر النجدي.

٥ــ جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣٤١.

من جهة اخرىٰ أعلنوا انه مَنْ قَبلَ دعوة «الشيخ» وجب عليه مبايعته، ومن رفض الدعوة ووقف بوجهها وَجَبَ قتله و تقسيم ماله. ولذلك إنهم قتلوا ثلا ثمائة رجل من أهالي قرية تابعة لمدينة «الأحساء» تسمىٰ بـ «الفصول» وسلبوا أموالهم وممتلكاتهم.[6]

توفي «الشيخ محمدبن عبدالوهاب» عام ١٢٠٦هـ[7] وبعد وفاته سلك أتباعه نهجه. ففي عام ١٢١٦هـ أعدّ «الأمير سعود» الوهابي جيشاً قوامه عشرين ألف رجل، وشن هجوماً علىٰ مدينة كربلاء التي كانت آنذاك تتمتع بشهرة بالغة حيث كان يقصدها الزّوار الايرانيون والأتراك والعرب. فرض «سعود» الحصار حول المدينة ومن ثم دخلها وقتل الكثيرين من حماتها وسكانها.

ارتكب الجيش «الوهابي» في مدينة كربلاء فضائح لا توصف. حيث انهم قتلوا خمسة الآف شخص او اكثر (حتى يقال عشرين ألف شخص) وعندما انتهىٰ «الأمير سعود» من العمليات الحربية سارنحو خزائن حرم «الإمام الحسين(ع)» التي كانت مملوءة بالأموال والاشياء النفيسة فنهب كل ماوقعت عليه عيناه. بعد تلك الحادثة تغيّر الوضع في كربلاء حتىٰ إن الشعراء نظّموا قصائد في رثائها.[8]

كان «الوهابيون» يقومون بين فترة واخرى وخلال مدة تراوحت بين اثني عشر عاماً بشنّ هجمات علىٰ مدينة «كربلاء» وضواحيها وكذلك علىٰ مدينة «النجف» وكانوا يسلّبون أبناءها. وأول هجوم علىٰ مدينة كربلاء وقع، كما ذكر آنفا في عام ١٢١٦ هـ وعلىٰ حد تعبير المؤلفين الشيعة ان ذلك الهجوم وقع في يوم «عيدالغدير» من ذلك العام.

يقول العلاّمة المرحوم «السيد محمد جواد العاملي» في الصفحات الأخيرة من الجزء السابع من كتابه الفقهي النفيس «مفتاح الكرامة»: انتهىٰ تصنيف هذا الجزء من الكتاب بعد منتصف الليلة التاسعة من شهر رمضان المبارك عام ١٢٢٥هـ في جو كان يسوده القلق والإضطراب، ذلك لأن أعراب «عنيزة» (من الوهابيين) كانوا يحيطون «بالنجف الأشرف» ومشهد الحسين عليه السلام، وقدقطعوا الطرق ونهبوا ممتلكات زوّار الحسين عليه السلام ممن أنهوا زيارة (منتصف شعبان) وكانوا في طريق عودتهم الىٰ بلدانهم. فقتل الوهابيون عدداً غفيراً منهم (اكثرهم من الزوّار الايرانيين). ويذكر ان عدد القتلىٰ (في هذه المرة) بلغ مائة وخمسين قتيلاً، وقيل ان عدد القتلىٰ كان أقل من هذا

٦ـ تاريخ المملكة العربية السعودية ج ١ ص ٥١.

٧ـ هناك اختلاف حول ميلاد ووفاة الشيخ من (١١١٥ـ١٢٠٦ هـ).

٨ـ تاريخ كربلاء و حائر الحسين(ع) من ص ١٧٢ـ١٧٤.

العدد.[9]

فياترىٰ ماهـذا التوحيد الذي كان يدعو «الشيخ محمد» وأتباعه الناس إليه وكانوا يبيحون دماء وأموال من رفض دعوتهم؟ إنهم كانوا يستشهدون بظاهر بعض الآيات والأحاديث ليبرهنوا بأن للّه تعالىٰ إتّجاهاً وأعضاءاً وجوارحاً.

يقول الآلوسي بهذا الصدد إن «الوهابيين» باتباعهم لـ «إبن تيمية» يتقبلون الأحاديث التي تدل علىٰ نزول اللّه تعالىٰ الىٰ سماء الدنيا (السماء الاولىٰ) حيث يقولون ان اللّه عزّوجلّ ينزل من العرش الىٰ سماء الدنيا ويقول «هل من مستغفر». كذلك انهم يؤكدون علىٰ ان الله سبحانه وتعالىٰ يأتي الىٰ صحراء المحشر يوم القيامة ذلك لأنه سبحانه عزّوجلّ يقول في كتابه الكريم «**وجاء ربُّك والملك صفاً صفاً**» (الفجر/ ٣) ويقولون أيضاً ان الله تعالىٰ يتقرّبُ ممن يشاء وكيفما شاء مثلما يقول في كتابه «**ونحن أقربُ اليه من حبلِ الوريدِ**» (ق/ ١٥).[10]

إن «إبن تيمية» كما يتبين من كتابه «الردّ علىٰ الأخنائي» كان يعتبر الأحاديث الخاصة بزيارة قبر الرسول(ص) أحاديث مفتعلة وقد قال ان من يعتقد بأن تواجد النبيّ(ص) بعد وفاته هو كتواجده وهو علىٰ قيد الحياة فقد ارتكب خطأً كبيراً وقد جاء «الشيخ محمد» وأتباعه بقول مماثل ولكن أعنف ممّا قاله إبن تيمية.

لقد أدت معتقدات وأقوال «الوهابيين» الباطلة الىٰ أن يعتبر البعض من الباحثين حول الدين الاسلامي ممن أجروا بحوثهم بالاستناد الىٰ الأقوال والمعتقدات المذكورة، أن يعتبروا الاسلام ديناً جامداً ومحدوداً لاينفع الناس في كل المراحل والأدوار.

يقول «لوتروب ستودارد»: إن الوهابيين قد أفرطوا في التعصب، وعلىٰ اثره إتّخذ بعض الباحثين المحنّكين من اسلوبهم هذا دليلاً لاثبات ان واقع الاسلام وطبيعته لايتماشىٰ مع مقتضيات الزمان، ولايتناسب مع سبل التقدم والتطور الاجتماعي والزمني.[11]

منذ ذلك الوقت الذي أعلن فيه «الشيخ محمدبن عبدالوهاب» عن أفكاره وعقائده، ودعا الناس اليها، قامت مجموعة من كبار العلماء بمعارضته. وكان والده ومن ثم أخوه «الشيخ سليمانبن عبدالوهاب» أول من إحتجّا عليه. وجدير ذكره ان والد الشيخ

٩ــ مفتاح الكرامة ج ٧ ص ٦٥٣.

١٠ــ يرجىٰ مراجعة كتاب تاريخ الآلوسي ص ٩٠ــ٩١ وكذلك رسالة العقيدة الحمدية تأليف إبن تيمية.

١١ــ حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ٢٦٤.

محمد وكذلك أخاه كانا يُعتبر ان من علماء الحنابلة.

ألَّفَ الشيخ «سليمان» كتاباً بعنوان «**الصواعق الإلهيةفي الردّ علىٰ الوهابية**»، رفض فيه عقائد أخيه. فيقول السيد «زيني دحلان»: كان والد «الشيخ محمد» وكذلك أخوه «الشيخ سليمان» رجلين صالحين ومن أهل العلم أيضاً. وقد علما بدعوة «الشيخ محمد» من خلال أقواله وتصرفاته عندما كان يواصل دراسته في المدينة المنورة فعاتباه وانتقداه ودعيا الناس الىٰ الحذر منه.[12]

يقول السيد «عباس محمود العقاد»: كان «الشيخ سليمان » مؤلف كتاب «الصواعق الإلٰهية» من أشدّ المعارضين لأخيه «الشيخ محمد» فهوعلاوة على رفضه لعقائد أخيه يقول: ان الأعمال والممارسات التي يعتبرها الوهابيون كفراً والحاداً ويبيحون دماء المسلمين وأموالهم بسببها كانت قد ظهرت في عهد أئمة الاسلام وليست هناك رواية تشير الىٰ ان أئمة المسلمين كانوا يعتبرون مرتكبي تلك الأعمال كفاراً أو مرتدين، ولم يعلنوا الجهاد ضدهم ولم يعتبروا بلاد المسلمين بلاد شرك ودار كفر مثلما يفعل الوهابيون.[13]

إن محمدبن عبدالوهاب ليس مبتكرا في تأسيس مذهبه، وانما اخذ مانشره من الافكار من الشيخ ابن تيمية الحراني، وتلميذه ابن القيم وابن عبدالهادي ومن نسج منوالهم فصاغ ما وقف عليه في كتبهم على نحو خاص، فابن تيمية احد العلماء الحنابلة في القرن الثامن، وقد سجن في دمشق الشام عام ٧٢٨ هـ لاجل اظهار عقائد و آراء تخالف الرأي العام بين المسلمين.

وقد اصدر الشاميون فتيا وكتب عليها البرهان بن فركاخ الفزاري نحو اربعين سطراً باشياء الى أن قال بتكفيره ووافقه في ذلك، الشهاب بن جهبل، و كتب تحت خطه كذلك المالكي ثم حملت الفتيا الى مصر وعرضت على قاضي قضاة الشافعية، فكتب فيها: ينبغي أن يزجر هذا الرجل عن مثل هذه الفتاوى الباطلة عند الائمة والعلماء ويمنع من الفتاوى الغريبة ويحبس اذا لم يمتنع من ذلك، ويشهَّر أمره ليحتفظ الناس من الاقتداء به.

وكان من معاصريه من ينهاه عن غيه كالذهبي (ذلك الرجل الفذ في الرجال والحديث) فانه كتب اليه ينصحه برسالة مفصلة.[14]

وقد قيض المولى سبحانه في كل عصر ومصر رجالا نصروا الحقيقة وأحيوا كلمة

١٢ــ الفتوحات الاسلامية ج ٢ ص ٣٥٧.

١٣ــ الاسلام في القرن العشرين ص ١٢٦ــ١٣٧.

١٤ــ راجع تكملة السيف الصقيل للشيخ محمد زاهر الكوثري ص ١٥٥ و ١٩٠، الغدير ج ٥ ص ٧٣.

الباطل واماتوا بذرة الضلال، وقابلوا تلك الافكار الواهية ببراهين ساطعة، واليك بعض ما الفوا في رد الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومن لف لفّهما.

١ــ شفاء السقام في زيارة خير الانام لتقي الدين السبكي.

٢ــ الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية له ايضا.

٣ــ المقالة المرضية لقاضي القضاة المالكية لتقي الدين ابي عبدالله الاخنائي.

٤ــ نجم المهتدي ونجم المقتدي للفخر ابن المعلم القرشي.

٥ــ رفع الشبه لتقي الدين الحصيني.

٦ــ التحفة المختارة في الرد على منكر الزيارة لتاج الدين الفاكهاني المتوفى عام ٨٣٤هـ.

نعم كانت الامة الاسلامية بفضل جهود علمائها ــ تتبع الطريق المهيّع وتسلك سويّ السبيل وتقتفي اثر الكتاب والسنة، وتعظم شعائر الله «**ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب**» الى ان القى الشر جرانه، وجاء الدهر بمروج الضلال محمد بن عبدالوهاب، فحذى حذو ابن تيمية واتبع هواه وهوى تلاميذه وجدد ــ في القرن الثاني عشر ــ تلك الافكار التي اكل عليها الدهر وشرب، فاخذ يموه ويدجل ويرمي جمهرة المسلمين بالكفر والردة، ويرميهم بكل معرة ومسبّة ويرى ان ما تقوم به الامة الاسلامية من الزيارة والدعاء عند القبور المشرفة والصلاة عندها، والتبرك والتوسل والاستشفاع بها كلها تخالف التوحيد، وتجر الامة الى الشرك .

غيرانّ في الامة الاسلامية رجالاً غيارى على الشريعة وسننها فقاموا في وجه هذه السموم المنبثة، وقارعوا اصحابها بالحجة بعد الحجة، فاول من رد عليها كما مرّ آنفاً اخوه الشيخ سليمان بن عبدالوهاب فكتب كتاباً اسماه «الصواعق الالٰهية في الرد على الوهابية»، واول من رد عليها من علماء الشيعة الامامية هو الشيخ الاكبر الشيخ جعفر كاشف الغطاء فالّف رسالة اسماها: «منهج الرشاد» في جواب رسالة ارسلها اليه عبدالعزيز بن سعود احد الامراء السعوديين في ذلك الوقت، الذين مازالوا يؤيدون تلك الفتنة العمياء، حفظاً لسلطانهم وصيانةً لسيادتهم.

ثم تتابع الرد والنقد في ظروف مختلفة، وجاءت الكتب تترى في آونة بعد آونة.

على ان هذا المذهب لايستحق الرد والنقد لتفاهته وسقوط حجته، وما فيه من تناقضات واباطيل ولولا السلطات السعودية التي حصلت على الثروات الطائلة العائدة من البترول تسعى في ترويج هذا المذهب، ونشره وبثه وصرف الاموال الضخمة في الدعوة اليه لما كتب له البقاء الى هذا الوقت.

وحيث انه يعد خير وسيلة لالقاء التفرقة بين المسلمين وضرب بعضهم ببعض

وتشتيت صفوفهم سعت تلك السلطات ـــ ومع الاسف ـــ وبوحي من اسيادها الاجانب على تقويته ونشره، من مركز التوحيد، ومنطلق الاتحاد الاسلامي العظيم اعني مكة المكرمة شرفها الله، وأعلا اركانها.

الفصل الثاني:

الوهابيون وتعمير قبور الاولياء

تعتبر مسألة تعمير القبور، وبناء المشاهد على قبور الأنبياء وأولياء الله من المسائل التي يبدي «الوهابيون» حساسية خاصة بشأنها وقد كان «ابن تيمية» وتلميذه الشهير «ابن القيم» أول من أصدرا الفتاوىٰ بشأن تحريم بناء المشاهد وضرورة هدمها.

يقول «ابن القيم» في كتابه «زاد المعاد في هدى خير العباد»: يجب هدم المشاهد التي بُنيت علىٰ القبور، ولا يجوز ابقائها بعد القدرة علىٰ هدمها وابطالها يوماً واحداً.

بعد ما تمكن السعوديون في عام ١٣٤٤هـ من بسط سلطتهم علىٰ مكة المكرمة والمدينة المنورة وضواحيها، بدأوا بالبحث عن مستمسك لهدم مشاهد البقيع وآثار أهل البيت والصحابة. ولأجل ذلك لجأوا للاستفتاء من علماء المدينة المنورة لتبرير موقفهم أمام الرأي العام الحجازي، ذلك لأن ابناء الحجاز لم يتفقوا معهم بهذا الصدد مطلقاً لذلك بعثوا سليمان بن بليهد الذي كان يشغل منصب قاضي القضاة في «نجد»، بعثوه الىٰ المدينة المنورة للاستفتاء من علمائها الآ ان الأسئلة التي طرحها ابن بليهد كانت تحمل في مضامينها أجوبة مطابقة لآراء «الوهابيين» انفسهم، وما كان علىٰ العلماء الآ الاجابة بمثل ما هو وارد في الأسئلة ذاتها. اذ لولاه لكانوا يتهمون بالكفر ومن ثم يحكم عليهم بالقتل ان رفضوا التوبة.

١ــ زاد المعاد ص ٦٦١ــ يرجىٰ مراجعة كتاب كشف الارتياب ص ٣٥٨.

قامت جريدة «ام القرى» الصادرة في مكة المكرمة بنشر تلك الأسئلة وأجوبتها في عددها الصادر في شهر شوال عام ١٣٤٤هـ[2]. الأمر الذي أدىٰ الىٰ اثارة ضجة كبيرة في صفوف المسلمين السنة والشيعة علىٰ السواء. ذلك لأن الكل كان يعلم بان الاستفتاء من العلماء، و ان كان قد حصل بالتهديد سيؤدي لامحال الىٰ هدم مشاهد وقبور قادة الاسلام وقد حصل ذلك بالفعل في الثامن من شوال عام ١٣٤٤هـ بعد ماتم الاستفتاء من خمسة عشر عالما من علماء المدينة المنورة ونشر في الحجاز. حيث قاموا بهدم وتدمير آثار أهل البيت والصحابة ونهبوا جميع الآثار النفيسة من حرم الأئمة في البقيع، وحولوا مقبرة البقيع والصحابة الىٰ مزبلة تثير الرعب في قلب كل من يشاهدها.

ونحاول هنا ان ننقل جانباً من الأسئلة التي طرحها ابن بليهد كي يتوضح لدينا كيف ان السائل لقّن الجواب بالسؤال، ولكي يتبين أيضاً بان الاستفتاء لم يكن هو الهدف، بل ان الهدف كان الحصول على مستمسك لتضليل الرأي العام وتدمير آثار الدعوة النبوية. اذانهم لو كانوا يستهدفون حقاً الوقوف علىٰ الحقائق لمادعت الضرورة لتلقين المُستفتي جواب السؤال من خلال السؤال نفسه. فمن خلال الدلائل الموجودة يمكننا التكهن بان الأسئلة والأجوبة كانت قد أُعدت مسبقاً على ورقة، ثم قُدمت للعلماء للتوقيع عليها فقط. والاّ ليس من المعقول ان يغير مشاهير علماء المدينة المنورة وجهة نظرهم فجأة، ويصدروا الفتاوى بتحريم البناء علىٰ القبور وبضرورة هدمها، في حين كانوا هم و آباؤهم من المروجين لآثار النبوة وحماتها وزوارها خلال سنين متمادية.

يقول ابن بليهد في سؤاله:

«ما قول علماء المدينة المنورة زادهم اللّه فهماً وعلماً في البناء علىٰ القبور واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ واذا كان غير جائز بل ممنوع مُنهىٰ عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا. واذا كان البناء مسبلة كالبقيع وهو مانع من الانتفاع

٢ــ يقول المرحوم آغا بزرك الطهراني في كتابه «الذريعة» ج ٨ ص ٢٦١: لقد سيطر الوهابيون علىٰ الحجاز في ١٥ ربيع الأول عام ١٣٤٣ هـ، وفي الثامن من شوال من نفس العام هدّموا قبور الصحابة وقبور الأئمة في البقيع في حين ان جريدة «ام القرى» نشرت نص الاستفتاء في عددها الصادر بتاريخ ١٧ شوال عام ١٣٤٤ هـ، وذكرت بان جواب علماء المدينة المنورة جاء في ٢٥ رمضان عام ١٣٤٤ هـ، لذلك يبدو بان سيطرة الوهابيين علىٰ الحجاز وهدمهم للقبور قدوقعا في عام ١٣٤٤ هـ. ذكر ذلك أيضاً المرحوم السيد محسن الامين. يرجى مراجعة كتاب كشف الارتياب ص (٥٦ــ ٦٠).

بالمقدار المبنى عليه فهل هو غصب يجب رفعه لمافيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟»

يجيب علماء المدينة علىٰ سؤال «الشيخ» في جو يسوده الخوف والتهديد بمايلي:

«أما البناء علىٰ القبور فهو ممنوع اجماعاً لصحة الأحاديث الواردة في منعه ولهذا أفتىٰ كثير من العلماء بوجوب هدمه مستندين بحديث علي رضى الله عنه انه قال لأبي الهياج: الا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله(ص)، ان لا تدع تمثالاً الاّ طمسته ولاقبراً مشرفاً الاّ سويته».

يقول «الشيخ النجدي» في مقال نشرته جريدة «ام القرى» في عددها الصادر في شهر شوال عام ١٣٤٥ هـ: ان بناء القبة والمشاهد أصبح متداولاً منذ القرن الخامس الهجري. هذه هي نماذج من أقوال جماعة «الوهابية» حول تعمير القبور. فهم غالباً يستدلون في كتاباتهم ومؤلفاتهم بدليلين وهما:

١ ــ اتفاق علماء الاسلام علىٰ تحريم البناء علىٰ القبور.

٢ ــ حديث أبي الهياج عن الإمام علي(ع)، وماشابه ذلك.

وتجدر الاشارة الىٰ اننا سنحاول هنا أن نتطرق فقط الىٰ موضوع تعمير القبور واقامة المظلات وانشاء السقوف والأبنية عليها، علىٰ ان نناقش موضوع زيارة هذه القبور في فصل آخر وبصورة مستقلة. وفيما يخص الموضوع الأول فاننا سنبحثه من خلال دراسة النقاط التالية:

١ ــ ما هو رأي القرآن بهذا الصدد، وهل يمكن الحصول علىٰ حكم من القرآن بشأن تعميرالقبور؟

٢ ــ هل هو صحيح بان الامة الاسلامية تتفق في آرائها علىٰ تحريم البناء علىٰ القبور ام ان بناء القبور كان متداولاً في جميع العهود الاسلامية وحتىٰ في زمن الرسول(ص).

٣ ــ ماذا يعني حديث ابي الهياج وأحاديث أخرى مماثلة يستغلها الوهابيون في هذا المجال؟

* * *

أ ــ رأي القرآن حول تعمير القبور:

لم يتطرق القرآن الكريم الىٰ حكم خاص في هذا المجال، الاّ انه يمكن استنباط الحكم بشأنه من خلال ماجاء به القرآن الكريم بشكل عام وكالآتي:

١ ــ ان القرآن الكريم يعتبر تعظيم شعائر الله دليلاً علىٰ تقوىٰ القلوب حيث يقول

«ومن يُعظِّم شعائر الله فانها من تقوى القلوب» الحج/٣٢)

فما هوالمعنىٰ من تعظيم شعائر الله؟ قبل كل شيء لابد من الاشارة الىٰ ان كلمة «شعائر» هي جمع «شعيرة» اي بمعنىٰ الدليل والعلامة. ولكن ليس المقصود من كلمة شعائر في هذه الآية، العلائم والأدلة التي تثبت وجود الله تعالى: ذلك لأن عالم الكون كله دليل علىٰ وجوده عزّوجل. وليس هناك أيضاً من يدّعي بان تعظيم كل ما هوموجود في الكون هو دليل علىٰ تقوىٰ القلوب اذ ان المقصود من هذه الآية هوتعظيم شعائر دين الله تعالىٰ، وعلىٰ هذا الأساس يقول المفسرون بان كلمة «شعائر الله» تعني معالم دين الله في هذه الآية.[٣]

لو كان القرآن الكريم يعتبر الصفا والمروة[٤]، وكذلك الجَمَل الذي يؤخذ الى منى[٥] لنحره، من شعائر الله فهذا يعني بان ذلك هو من معالم ودلائل الدين الحنيف دين ابراهيم(ع)، واذا كانوا يسمون «المزدلفة» بـ«المشعر» فهم يعنون به علامة من علائم دين الله، والوقوف عنده دليل علىٰ العمل بدين الله وطاعته؛ وان كانوا يطلقون علىٰ مجموعة مناسك «الحج» شعائر، فهوبدليل ان الأعمال هي دلائل وعلائم لدين التوحيد، الدين الحنيف.

ملخص الكلام هو ان تعظيم كل ما يعتبر شعيرة ودليلاً علىٰ دين الله، يؤدي الىٰ التقرب لله تعالىٰ.

ومما لاشك فيه ان أنبياء وأولياء الله هم من اكبر وابرز علائم دين الله. اذانهم كانوا خير وسيلة لابلاغ الدين، وسبباً في نشره واتساع قاعدته بين الناس؛ لذلك ليس هناك من يتحلىٰ ولو بقدر من الانصاف والمروءة ان ينكر بان وجود النبي(ص)، وكذلك وجود الأئمة(ع) ليس من علامات ودلائل الدين المقدس، وان حماية وصيانة آثارهم وقبورهم من المحو والزوال ليست وسيلة لتعظيمهم.

علىٰ أية حال يمكننا ان نستخلص حكماً واضحاً حول مايخص تعظيم وتكريم قبور أولياء الله علىٰ النحو التالي:

أ ـ ان أولياء الله وخاصة اولئك الذين ضحوا من أجل الدين هم من شعائر الله وعلائم دينه.

ب ـ ان صيانة وتعمير قبور هؤلاء الأولياء بعد وفاتهم، هو أحد السبل المؤدية الىٰ

٣ـ مجمع البيان ج ٥ ص ٨٣ ط صيداً.

٤ـ سورة البقرة، الآية ١٥٨ ان الصفا والمروة من شعائر الله.

٥ـ سورة الحج، الآية ٣٦ والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله.

تكريمهم.

ومن هذا المنطلق تعمل كافة الشعوب في العالم علىٰ دفن كبار شخصياتها السياسية والدينية في قبور و مناطق خاصة حرصاً منهم علىٰ حماية وصيانة هذه القبور من الفناء والزوال، وكأنهم يريدون ذلك بان يصنعوا منهم رمزاً لتخليد هم وتخليد افكارهم وعقائدهم.

* * *

٢ــ ان القرآن الكريم يأمرنا بالحب والمودة للمقربين الىٰ النبي(ص)، حيث يقول:

«قل لا أسألكم عليه أجراً الاّ المودة في القربى» (الشورى/ ٢٣)

ألا يعتقد الناس الذين يخاطبهم الله في هذه الآية، بأن بناء القبور وتعميرها هو بالذات سبيل من سُبل اظهار الحب والمودة لحملة الرسالة السماوية؟ لم لايجوز ذلك في حين نلاحظ بان هذه العادة متّبعة عند كافة الشعوب في العالم، والجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودة لصاحب القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية في كنائس ومقابر شهيرة، ويزرعون انواع الأزهار والأشجار حولها.

٣ــ يُستنبط من آيات القرآن الكريم بان احترام قبور المتديّنين المؤمنين كان امراً شائعاً حتىٰ لدىٰ الأقوام التي كانت تعيش ماقبل ظهورالاسلام. فبالنسبة لأصحاب الكهف، يقول القرآن الكريم انه عندما تبيّن أمرهم في ذلك الزمان، وذهب الناس الىٰ الكهف الذي كانوا فيه، اختلفوا فيمابينهم حول مدفنهم، وأصبحوا فريقين ولكل فريق رأيه، فقال احدهم:

١ــ «ابنوا عليهم بنياناً»[٦]

٢ــ «وقال الذين غلبوا علىٰ أمرهم لنتّخذنّ عليهم مسجداً».

يلاحظ ان القرآن الكريم يورد هذين الرأيين دون ان ينتقدهما. ولذلك يمكن القول بانه لوكان الرأيان خلافاً لانتقدهما القرآن أولكان قد أشار اليها بنوع من الاعتراض. و على أية حال يتأكد لدينا من هذين الرأيين بان ابقاء قبور أصحاب الكهف كان وسيلة لتعظيم الأولياء والصالحين.

بالاستناد الىٰ الآيات الثلاث، لايمكن قطعاً اعتبار تعمير قبور أولياء الله والصالحين أمراً محرماً أو مكروهاً، لابل يمكن اعتباره وسيلة من وسائل تعظيم شعائر الله، ومظهراً من مظاهر المودة لذي القربىٰ.

وهناك آية رابعة نأتي بها مع توضيحٍ لمفادها.

* * *

٦ــ المعنىٰ من ظاهر الآية هو ان يبنوا سقفاً علىٰ مدفنهم.

الاذن في ترفيع بيوت خاصة:

ان الله سبحانه اذن في رفع بيوت مخصوصة التي يذكر فيها اسمه ويسبح لهُ بالغدو والآصال. قال سبحانه: «**في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال... رجال لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار**» (النور/ ٣٦ــ٣٧).

فهذه الآية صريحة في جواز رفع هذه البيوت والاستدلال على المقصود يتم ببيان أمرين:

أ/ ماهو المقصود من البيوت؟

ب/ ماهو المقصود من الرفع؟

لاشك ان المراد من البيوت ليس هو المساجد حسب بل المراد منها الأعم منها ومن المنازل التي يذكر فيها سبحانه، بالغدو والآصال سواء كان مسجداً أو غيره والمسبحون والذاكرون فيها عبارة عن الانبياء والأولياء والصالحون الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

بل يمكن ان يقال: ان المراد من البيوت غير المساجد فانه يلزم ان يكون للبيت سقف، فالبيت بلاسقف لايتجاوز عن كونه بناءاً ذات جدران اربعة.

قال سبحانه: «**لولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفاً من فضة**» (الزخرف/ ٣٣).

فالاية تفيد ان البيت لاينفك عن السقف مع ان المساجد لا يجب ان يكون لها سقف، بل يستحب ان تكون بلاسقف.

هذا هو المسجد الحرام، والمسجد النبوي تراهما بلاسقف وعلى كل تقدير فالبيوت اما أعم من المساجد اوغيره مصداقاً.

هذا كله راجع الى توضيح معنى البيوت.

واما الرفع فهو يحتمل امرين:

الاول: ان يكون المراد منها هو الرفع الظاهري، واقامة الجدران، والقواعد وتعميرها، قال سبحانه: «**واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل**» (البقرة/ ١٢٧)

الثاني: ان يكون المراد هوالرفع المعنوي، قال سبحانه «**ورفعناه مكاناً علياً** » (مريم/ ٥٧) اي اعطينا له مكانة عالية.

فلو كان المراد هوالمعنى الاول فهو يدل على جواز تشييد بيوت الأنبياء، وتعميرها في حياتهم وبعد مماتهم.

ومن المعلوم ان مدفن النبي، ومدفن عدة من اولياء الله سبحانه بيوتهم، فتشييد

هذه البيوت، وصيانتها من الخراب والاندثار عمل جائز بنص الآية المباركة وعند ذلك يُسأل الوهابيين: لماذا باشروا بهدم هذه البيوت، وتخريبها بدلامن تعميرها وتشييدها.

وان كان المراد هو الرفع والعظمة المعنوية فتكون النتيجة من الاذن برفعها هو الاذن في تكريمها وتبجيلها وصيانتها، وتطهيرها مما لايليق بشأنها.

ومن المعلوم ان من مظاهر رفعة البيوت وعظمتها المعنوية هو توجه القلوب اليها والحفاظ عليها من الانهيار والاندثار. وعند ذلك لماذا اقدم الوهابيون على تحقير هذه البيوت، واذلالها، واهمالها، حتى بدلوها الى اماكن مهجورة، بل ومزابل يرثى لها، ويحزن لمظهرها قلب مؤمن محب لرسول الله واولياء الله، كيف وروى الحافظ جلال الدين السيوطي عن انس بن مالك وبريرة قال قرأ رسول الله(ص)، هذه الآية: **«في بيوت اذن الله ان ترفع»** فقام اليه رجل فقال: اي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الانبياء، فقام اليه ابوبكر فقال: يا رسول الله، هذا البيت منها؟ (آي بيت علي وفاطمة) قال: نعم من افاضلها.[7]

ب ــ رأي الأمة الاسلامية حول تعمير القبور

عندما انتشر الاسلام في شبه الجزيرة العربية، وبينما كانت انواره تعم رويداً رويداً اجزاء هامة من منطقة الشرق الاوسط كانت لقبور الانبياء التي اكتشفت حتى ذلك الزمان سقوفاً ومظلات وكان لبعضها قباباً وضرائح لازال البعض منها موجوداً الى يومنا هذا كما كان عليه سابقا. وفي مكة نفسها، فان قبر اسماعيل وامه «هاجر» موجودان في حجر. كما ان قبر النبي دانيال في شوش و قبور هود و صالح ويونس وذوالكفل في العراق وكذلك قبور النبي ابراهيم وأولاده اسحاق ويعقوب ويوسف التي نقلها النبي موسى(ع) من مصر الى القدس لازالت كلها موجودة، ولكل منها معالم وأبنية.

ولكن قبر«حواء» في «جدة» قد أُمحيت آثاره بعد سيطرة السعوديين على هذه المدينة، هذا في حين ان المسلمين لم يتذمروا من مشاهدة تلك الآثار بعد فتحهم لتلك البلاد ولم تصدر اليهم الأوامر بهدمها وتخريبها. فلو كان تعمير القبور ودفن الموتى في مقابر مسقفة عملاً محرماً من وجهة النظر الاسلامية في ذلك العهد لكان من المفروض ان يقوم المسلمون بادئ ذي بدء بهدم تلك القبور التي لازالت تنتشر في مناطق متعددة من الأردن والعراق، ولكانوا قد منعوا اعادة بنائها على مرالأدوار المختلفة ولكن نلاحظ بانهم لم يقوموا بتدميرها فحسب انما دأبوا على تعميرها وصيانتها طوال أربعة عشرقرنا. لقد كانوا يعقلون بما

٧ــ الدر المنثور ج ٥ ص ٥٠.

وهبهم الله من عقل وذكاء بـان حماية آثار الأنـبياء وصيانتها هي نـوع من الاحتـرام تجاههم والقائم بها يعتبر من الابرار وينال ثواب المحسنين.

يقول ابن تيميـة في كتابه «الصراط المستقيم»: «عندماتم فتح القدس كانت لقبور الأنبيـاء هناك أبـنـية ولكـن أبوابها كـانـت مغلـقة حتى القـرن الـرابع الهجـري» (كشف الارتيـاب ص ٣٨٤). اذن لوكان البنـاء على القـبور حراماً، لكـان هدمـه واجباً ايضاً، ولم يكن اغلاق ابوابها دليلاً وجوازاً على ابقائها بل لابد من الاسراع في هدمها وتسويتها.

خلاصة القول: هـو ان بقاء الأبنيـة والقباب على القـبور طوال هذه الفـترة وأمام مرأى علماء الاسلام وفقهائه، هو دليل واضح على جوازها في الدين الاسلامي المقدس.

* * *

الآثار الإسلامية دليل علىٰ اصالة الدين الإسلامي:

إنّ لحفظ وصيانة آثار النبوة وخاصة آثار النبي الأكرم(ص)، أمثال قبره وقبور زوجاته وأولاده وأصحابه، وكذلك البيوت التي كانوا يسكنون فيها والمساجد التي كانوا يقيمون الصلاة فيها، فوائد كبيرة نشير اليها كالآتي:

اليوم وبعدمضي عشرين قرناً علىٰ ميلاد السيد المسيح(ع)، تحول السيد المسيح وأُمه العذراء وكتابه الانجيل وكذلك الحواريون، تحولوا في الغرب الىٰ اسطورة تاريخية؛ وذلك لأنّ المستشرقين أصبحوا يظنون في وجود رجل اسمه المسيح وأمه مريم و كتابه الإنجيل حتىٰ انهم باتوا يعتبرون قصته أشبه باسطورة «مجنون العامري» وعشيقته «ليلىٰ» ولكن لماذا؟. لأنه ليس هنـاك اثر حقيقي وملموس للسيد المسيح(ع) فلا يعلم بالضبط اين ولد، واين كـانـت الدار التي كان يسكنها، وايـن دفـن بـعد مماته حسب اعـتـقاد النصارىٰ؟؛ ولقدتم تحريف كتابه السماوي الإنجيل، والأنـاجيل الأربعة التي تحوي خاتمة كل منها حادث مقتله ودفنه لا ترتبط اليه بصلة، وكما يـبـدو واضحاً ان هذه الأناجيل قـد دوّنت كلها بعد وفاته. وعليه فان الكثير من البـاحثين يعتبرون الأناجيل هذه بانها من الكتب الأدبية التي يعود تاريخها الىٰ القرن الثـاني الميلادي. امالوتم حفظ وصيانة كافة الميزات الخاصة بالنبي عيسىٰ(ع) وزعامتـه، لكانت هنـالك أدلة تبرهن اصالته، ولا تدع المجال للشاكين وذوي الخيالات الواهية كي يشكّوا في أمره.

أمّا المسلمون، فهم يواجهون العالم مرفوعـو الرأس ويقولون يا ايها الناس لقد بعث رجل من أرض الحـجاز قبل الـف و اربعمـائة سنة لـقيادة المجتمع البشري وقد نال نجاحاً كبيـراً في مهمتـه. فها هـي كافة خصائص حـياته محفوظة مصانـة، ليس فيها اي غموض. هذه هي الدار التي ولد فيها، وهذا هوغار حراء مهبط الوحي، وهذا هو مسجده الذي كان يقيم الصلاة فيه، وهذه هي الدار التي دُفن فيها، وهذه هي بيوت أولاده وزوجاته والمقربين

اليه، وهذه هي قبور أولاده وأوصيائه وخلفائه ونسائه... فماذا يحصل اذن لو أقدمنا علىٰ محو وازالة الآثار هذه؟ الا نكون قد طمسنا معالم وجود نبينا ودلائل اصالته؟. ان تدمير آثار الرسالة النبوية وآثار اهل العصمة لايعني الإساءة اليهم فحسب بل يعني العداء ضد معالم الاصالة الاسلامية، واصالة الدعوة النبوية.

ان الدين الاسلامي دين خالد، وسيبقى ديناً للبشرية جمعاء حتىٰ يوم القيامة. ولابد للأجيال المتعاقبة علىٰ مدىٰ الدهر أن تعترف وتؤمن بأصالة هذا الدين. ولأجل تحقيق هذا الهدف، يجب ان نعمل باستمرار علىٰ حماية وصيانة كافة آثار ومعالم النبوة لنوجد بذلك خطوة من أجل استمرار الدين وبقائه علىٰ مدىٰ العصور القادمة. كما يجب أن ننهي عن كل ما يمكن ان يؤدي الىٰ أن تواجه نبوة نبينا الكريم(ص)نفس المصير الذي واجهته نبوة النبي عيسىٰ(ع).

لقد بذل المسلمون جهوداً لابأس بها من أجل بقاء وصيانة آثارنبينا(ص). اذ انهم عملوا بدقة علىٰ تدوين كافة خصائصه ومميزاته طيلة فترة النبوة. حيث ان مميزات وخصائص خاتمه، حذائه، مسواكه، وعلامات سيفه ودرعه ورمحه وجواده وجَمله وغلامه، وحتىٰ المكان الذي شرب الماء فيه، والأراضي التي أوقفها، والطعام الذي فضله وكذلك كيفية مشيته وتناوله... الخ قد دوّنت كلها، ولا زالت آثار البعض منها باقية الى يومنا هذا.[8]

يتبين لنا من خلال مراجعة تاريخ المسلمين، والتجول في البلدان الاسلامية الواسعة بان تعمير القبور وصيانتها من الزوال والفناء، كان مرسوماً متداولاً عند كافة المسلمين في أرجاء الوطن الاسلامي. ولازالت هناك ضرائح ومقابر الأنبياء والأولياء والرجال الصالحين والتي تعتبر غالبيتها من الآثار التاريخية الاسلامية. وان المبالغ اللازمة لإبقائها وصيانتها تأتي من العائدات الوقفية للآثار نفسها...

لقد كانت قبور أولياء الله في كافة أرجاء الحجاز معمّرة، تُحظىٰ باهتمام المسلمين كافة حتىٰ ماقبل ظهور جماعة «الوهابية» في «نجد» وسيطرتهم علىٰ الحرمين وضواحيهما ولم يكن هناك حتىٰ عالماً واحداً معترضاً علىٰ بقائها وتعميرها. كما ان ايران اليوم ليست هي البلد الوحيد الذي تقام فيه الضرائح المعمرة علىٰ قبور الأولياء والصالحين. اذ انّ في كافة البلدان الاسلامية، وخاصة في مصر والعراق وسوريا والمغرب وتونس، مقابر معمرة للعلماء وكبار المسلمين، يقوم المسلمون بزيارتها افواجاً، ويقرأون

٨ــ يُرجىٰ مراجعة كتاب طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٦٠ــ٥٠٣.

الفاتحة والقرآن عليها كما ان لكل منها خدماً وحرساً وقد تطوّعت جماعة خاصة للقيام بمهمة تنظيف وتعمير وصيانة «الاحرام» المقدسة.

اذن كيف يمكن اعتبار تعمير القبور أمراً محرماً، في حين كان ولازال عادة متبعة منذ صدرالاسلام وحتىٰ اليوم. هذه العادة التي يطلق عليها العلماء مصطلح «سيرة المسلمين»، والتي يعود تاريخها الىٰ زمن النبي(ص) أو زمن سائر المعصومين. ان بقاء هذه السيرة لم يتعرض للنقد والرفض، بل في الوقت ذاته يعتبر دليلاً وجوازاً للرغبة فيها واستقبال الناس لها.

لقد بلغ الأمر مستوى عالياً من حيث الضرورة، مما دفع أحد كتّاب «الوهابية» للاعتراض عليه بقوله:ــ

هذا أمر عمّ البلاد وطبق الأرض شرقاً وغرباً بحيث لابلدة من بلاد الاسلام الاّ فيها قبور و مشاهد، بل مساجد المسلمين غالباً لاتخلو من قبر أو مشهد ولايسع عقل عاقل ان هذا منكر يبلغ الى ماذكرت من الشناعة ويسكت علماء الاسلام.[9]

ولكنه رغم اعترافه لايكف عن عناده، حيث يقول ان اشاعة أمر وسكوت العلماء بشأنه ليس دليلاً علىٰ جوازه.

حول الجواب المنسوب الى علماء المدينة:

والاغرب من ذلك هو الجواب المنسوب الىٰ علماء المدينة المنورة، حيث يقولون: أما البناء علىٰ القبور فهو ممنوع اجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة في منعه ولهذا أفتىٰ كثير من العلماء بوجوب هدمه.

ولكن كيف يمكن الإدّعاء بالاتفاق علىٰ تحريم البناء علىٰ القبور في حين ان المسلمين كانوا قد دفنوا النبي(ص) في نفس الغرفة التي كانت تسكن فيها زوجته عائشة ومن ثم دفنوا أبابكر و عمر الىٰ جواره للتبرك . وبعد ذلك أقاموا جداراً في وسط الغرفة ليصبح نصفها منزلاً لعائشة، والنصف الآخر مقبرة للنبي(ص) والشيخين. حتىٰ ان الجدار قد زيدمن ارتفاعه في زمن عبدالله بن الزبير. كما انه تم علىٰ مدىٰ العصور المختلفة تعمير أواعادة بناء الدار التي دفن فيها النبي(ص) وفقاً للفن المعماري الخاص بكل عصر. في العصرين الاموي والعباسي، كان البناء علىٰ القبر يُحظىٰ باهتمام بالغ، لذلك فهم كانوا يقيمون البناء وفقاً للفن المعماري الخاص بكل منهما. وآخر بناء علىٰ القبر هو البناء الذي أقامه السلطان «عبدالحميد» والذي استغرق أربع سنوات حتىٰ عام ١٢٧٠ هـ.

٩ــ تطهير الاعتقاد ص ١٧ــ طبعة مصر، نقلاً عن كشف الارتياب.

ويمكنك عزيزي القارئ مراجعة كتاب «وفاء الوفاء» للسمهودي[10]، للحصول علىٰ تفاصيل أُخرىٰ حول تاريخ تعمير واعادة بناء قبر الرسول(ص) علىٰ مدىٰ العصور الإِسلامية وحتىٰ عصر «السمهودي».

* * *

ج ــ حديث ابي الهياج:

والآن قد حان الوقت كي نبحث في الحديث الذي يُحظىٰ باهتمام علماء «الوهابية» قبل كل شيئ ننقل هنا نص الحديث المستند من صحيح مسلم:

حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ وأبوبكربن أبي شيبة وزهيربن حرب قال: يحيىٰ أخبرنا وقال الآخران، حدثنا: وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي وائل عن أبي الهياج الأسدي: قال لي علي بن ابي طالب الا أبعثك علىٰ مابعثني عليه رسول الله(ص)، أن لا تدع تمثالاً اِلّا طمسته ولا قبراً مشرفاً اِلّا سوّيته.[11]

رأينا حول هذا الحديث:

لو أردنا الاستدلال بحديث علىٰ حكم من أحكام الله، يجب أن يتوفر في الحديث الشرطان التاليان:

١ــ يجب أن يكون سند الحديث صحيحاً اي أن يكون رواة الحديث من أية طبقة كانوا، أشخاصاً ثقات يمكن الاعتماد علىٰ اقوالهم.

٢ــ أن تكون دلالة الحديث علىٰ المقصود واضحة. أي بمعنىٰ أن تدل ألفاظ الحديث وعباراتها دلالة كاملة علىٰ مقصود نامنه، بحيث يفهمه كل من له المام باللغة مثلما نحن نفهمه.

ومن حسن الحظ ان هذا الحديث لم يكن نقيّاً عن النقاش من حيث الدلالة والسندمعاً؛فبالنسبة الى الدلالة علىٰ المدعىٰ، ليس هناك صلة بينه وبين المقصود من الحديث وأما بالنسبة الى السند، فلم يتفق علماء الحديث علىٰ الثقة بمن رووا الحديث اي اولئك الذين وردت اسماؤهم في السند أمثال:

١ــ الوكيع.

٢ــ سفيان الثوري.

١٠ــ وفاء الوفاء من ص ٣٨٣ــ ٣٩٠.

١١ــ صحيح مسلم ج ٣ــ كتاب الجنائزــ ص ٦١ و سنن الترمذي ج ٢ــ ص ٢٥٦. باب ماجاء في تسوية القبر، سنن النسائي ج ٤ــ باب تسوية القبر ص ٨٨.

٣ـ حبيب بن ابي ثابت.

٤ـ الوائل الأسدي.

حتىٰ ان أحد علماء الحديث المدعو «الحافظ ابن حجر العسقلاني» قد انتقد هؤلاء الرواة في كتابه «تهذيب التهذيب» بشكل يثير الظن تماماً حول صحة الحديث المذكور وكذلك الأحاديث الأخرىٰ التي روتها هذه المجموعة من الرواة. فعلىٰ سبيل المثال يقول العسقلاني بشأن «الوكيع» نقلاً عن الإمام «أحمد بن حنبل» قوله: انه اي الوكيع أخطأ في خمسمائة حديث.[12]

ويقول أيضاً عن «محمد بن نصر المروزي» قوله:

كان (الوكيع) يحدث بالمعنىٰ ولم يكن من أهل اللسان.[13] وفيما يخص سفيان الثوري كتب نقلاً عن ابن مبارك قوله:

حدّث سفيان بحديث فجئته وهو يدلسه فلما رآني استحيى.[14]

ان التدليس في الحديث باي معنىٰ كان، هو دليل علىٰ ان المدلس كان يفقد صفة العدل او الصدق، ولذلك كان يظهر غير الواقع واقعاً.

يقول «يحيىٰ القطان» في ترجمة سفيان؛ ان «سفيان» حاول ان يُظهر لي الرجل غير الموثوق وكأنه رجل موثوق فيه، ولكنه لم يفلح.[15]

وفيما يخص «حبيب ابن ابي ثابت»، كتب العسقلاني نقلاً عن «ابي حيان» قوله:

ان حبيب ابن ابي ثابت «كان مدلسا».

وكتب نقلاً عن عطاء:

«لايعول عليه وليست محفوظة».[16]

واما بالنسبة لـ «وائل» فيقال: انه كان من النواصب ومن المنحرفين عن أميرالمؤمنين الامام علي عليه السلام.[17]

اذن طالما تحيط بالسند اشكالات كهذه، فلا يمكن لأي من الفقهاء ان يستند عليه في اصدار الفتوىٰ.

١٢ـ تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٢٥.

١٣ـ المصدر السابق ج ١١ ص ١٣٠.

١٤ـ نفس المصدر ج ٤ ص ١١٥

١٥ـ المصدر السابق ج ١١ ص ٢١٨

١٦ـ المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٩

١٧ـ شرح الحيدري ج ١٢ ص ٢٢٣

وأما دلالة الحديث فلا تقل اشكالاً عن السند ذاته، اذان ما يستشهد به في هذا الحديث هوعبارة عن الجملة الآتية:

«ولا قبراً مشرفاً الآسويته»

والآن دعنا نمحص في معنىٰ اللفظين التاليين:

أ ــ مشرفاً.

ب ــ سوّيته.

أ ــ ان لفظ «المشرف» يعني العالي والمرتفع، وقيل: «المشرف من الأماكن؛ العالي والمطل علىٰ غيره.[18]

ويقول صاحب القاموس الذي له اصالة اكثر في ترتيب معاني الألفاظ:

«الشرف محركة: العلو ومن البعير سنامه».

فالمعنىٰ المتبادر من لفظ «مشرف» اذن هو المرتفع، وخاصة المرتفع الذي هو علىٰ شكل سنام البعير.

ب ــ لفظ «سويّته» يعني جعلته متساوياً. سوّىٰ الشيْ: جعله سوياً؛ يقال سوّيت المعوج فما استوى؛ صنعه مستوياً.

وجاء في القرآن الكريم:

«الذي خلق فسوّىٰ»[19]

الله الذي خلق ثم اكمل الخلق.

بعد الأطلاع علىٰ معاني المفردات، يجب ان نعلم ما هو المقصود من هذا الحديث؟ يحتمل أن يكون لهذا الحديث مقصودان، لابد من تعيين أحدهما وفقاً لمعاني المفردات والدلائل الأُخرى.

١ــ المقصود الأول هو أن يكون أميرالمؤمنين علي(ع) قد أمر آبا الهياج بتدمير القبور العالية وتسويتها بالأرض. ولكن هذا الاحتمال الذي يتمسك به «الوهابيون» مرفوض لعدة أسباب هي:

أولاً ــ ان لفظ تسوية لايعني الهدم والتدمير. ولو كان المقصود به هو الهدم والتدمير لوجب أن يُقال: «ولا قبراً مشرفاً الا سوّيته بالأرض». غير ان الحديث لايشتمل علىٰ لفظ كهذا.

ثانياً ــ لوكان المقصود منه الهدم والتدمير فلماذا لم يصدر أحد من علماء الاسلام

١٨ــ المنجد، مادة شرف

١٩ــ سورة الأعلىٰ، الآية الثانية.

فتوىٰ بالأستناد عليه؟. ان تسوية القبر بالأرض هي خلاف للسُنة الاسلامية، ان السُنة الأسلامية تحبّذ أن يكون القبر مرتفعاً قليلاً، وقد أفتىٰ جميع فقهاء الاسلام باستحباب ارتفاع القبر عن الأرض بمقدار شبر واحد.

جاء في كتاب «الفقه علىٰ المذاهب الأربعة» الذي يطابق فتاوي الأئمة الأربعة المعروفين مايلي:

«ويندب ارتفاع التراب فوق القبر بقدر شبر»[20]

استناداً الىٰ ماورد من الروايات. اذن، يجب أن نفسر الحديث بشكل آخر كالآتي:

٢ـ المقصود من تسوية القبر هو جعل سطحه مستوياً ومسطحاً، بعكس القبور التي تبنىٰ علىٰ شكل ظهر السمك وسنام البعير. وعلىٰ هذا الأساس فان الحديث يعني أن يكون سقف القبر مسطحاً ومستوياً، ولايجوز، أن يكون كظهر السمك أو مسنماً كماهو متبع في البلدان التي تعتنق المذهب السني. ولقد أفتىٰ ثلاثة من الأئمة الأربعة، يستثنىٰ منهم الإمام الشافعي، أفتوا جميعاً باستحباب تسنيم القبور.[21] وبذلك فأن هذا الحديث يؤيد فتوىٰ علماء الشيعة ممن يقولون بان القبر يجب أن يكون مسطحاً ومستوياً في نفس الوقت الذي يجب أن يكون فيه القبر مرتفعاً عن الارض.

لقد أورد «مسلم» نفسه أو من بوّب كتابه هذا الحديث وحديثاً آخر في «صحيحه» تحت عنوان «باب الأمر بتسوية القبر». كما أورده «الترمذي» و «النسائي» في سننهما تحت نفس العنوان والمقصود من هذا العنوان أن يكون كالقبر مسطحاً ومستوياً، ولو كان المقصود منه تسوية القبور بالأرض، لكان من المفروض تسمية الباب المذكور بـ «الأمر بتخريب القبور وهدمها».

ان كلمة «تسوية» في اللغة العربية، لواطلقت علىٰ شيء (مثل القبر) فأنه يعني بها أن يكون القبر نفسه مسطحاً ومستوياً، لا أن يسوى القبر بشيء آخر (مثل الارض).

الآن ننقل الحديث الآخر الذي أورده «مسلم» في «صحيحه» والذي يحوي نفس المضمون الذي نؤيده نحن:

«كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بن

٢٠ـ الفقه علىٰ المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٢٠

٢١ـ الفقه علىٰ المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٢٠؛ يجعل كسنام البعير وقال الشافعي جعل التراب مستوياً مسطحاً افضل من تسنيمه. وعلى هذا الأساس فان فرقتين من الفرق الاسلامية تعمل بموجب مضمون هذا الحديث وهما الفرقة الشافعية والفرقة الشيعية.

عبيد بقبره فسوى ثم قال سمعتُ رسول الله يأمر بتسويتها». [22]

فما هو المقصود من «تسوية القبر» في هذا الكلام. هل تعني هدم البناء على القبور؟ لنفترض ان الذي يعنيه هوانه لم يكن هناك بناء على القبر حين دفن المتوفى أو ان المقصود هو تسوية سطح القبر بالأرض، ولكن هذا خلاف للسنة القاطعة التي توجب رفع القبر عن الأرض بقدر شبر. اذن ليس هناك سبيل آخر سوى القول بأن المقصود هو تسوية سطح القبر، وعدم جعله كالسنام أو كظهر السمك .

من جهة أخرى دعنا نُراجع «النووي» المفسّر الشهير لصحيح مسلم، لنرى كيف يفسّر هذا الحديث . يقول النووي:

«ان السنّة ان القبر لايُرفع عن الارض رفعاً كثيراً ولايسنم بل يُرفع نحو شبر ويسطح». [23]

يبدو من هذه العبارة ان مفسّر صحيح مسلم قد استنبط نفس المعنى الذي استنبطناه نحن من هذا الحديث. اي ان الإمام علي(ع) أوصى بتبديل القبور المسنمة أو التي كانت على شكل ظهر السمك الى قبور مسطحة، ولم يكن المقصود تسوية القبور بالأرض.

اننا لسنا الوحيدين الذين يفسّرون هذا الحديث بهذه الصورة، ذلك لأن «ابن حجر العسقلاني» قد فسّره في كتابه «ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري» كما نفسّره نحن؛ حيث يقول : ان السنّة في القبر تسطيحه، ولا يجوزلنا أبداً ان نترك هذه السنة لكون ان التسطيح هو شعار «الروافض». نحن عندما نقول بأن السنة هي تسطيح القبر فان ذلك لايعني بان مانقوله يتنافى مع حديث أبي الهياج ذلك :

«لأنه لم يرد تسويته بالأرض وانما اراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار...» [24]

بالاضافة الى ذلك لوكان الغرض من وصية الإمام علي(ع) لأبي الهياج هوتدمير القباب والأبنية على القبور، اذن لماذا لم يأمر الامام علي(ع) بتدمير القباب التي كانت على قبور الأنبياء في زمانه؟ لماذا لم يأمر بتدميرها في حين انه كان الحاكم المطلق على كافة البلدان الاسلامية، وكان يرى بام عينيه القباب والأبنية على قبور الأنبياء في كل من فلسطين وسورية ومصر والعراق وايران واليمن؟.

لو غضضنا النظر عن ذلك كله، وافترضنا بان الإمام علي(ع) كان قد أمر

٢٢ــ صحيح مسلم ج ٣، كتاب الجنائز ص ٦١.

٢٣ــ تفسير صحيح مسلم بقلم «النووي».

٢٤ــ ارشاد الساري ج ٢ ص ٤٦٨.

«آبا الهياج» بتسوية كافة القبور المرتفعة بالأرض، الاّ انه ليس في الحديث مايدل علىٰ وجوب هدم البناء علىٰ القبور. ذلك لأن الإمام علي(ع) قال لأبي الهياج: «ولا قبراً الاّ سوّيته» ولم يقل ابداً «ولا بناء ولاقبة الا سويّته».

ان حديثنا لايدور حول القبور، وانما يخص الأبنية المقامة عليها... هذه الأبنية التي يقصدها الناس ويتمتعون بظلالها في تلاوة القرآن والدعاء واقامة الصلاة. فهل في هذه العبارة مايدل علىٰ هدم هذه الأبنية والآثار التي تمكّن الزوّار، من القيام باعمالهم العبادية وتصونهم من الحر والبرد.

في الختام لابد أن نذكّر بانه من المحتمل أن يكون هذا الحديث وأحاديث أُخرىٰ مشابهة له قد عُني بها قبور الأولياء والصالحين التي كانت تتخذها الأقوام السالفة قبلة لها. انهم كانوا يديرون وجوههم نحو تلك القبور والصور التي كانوا يضعونها الىٰ جنبها وكانوا يمتنعون عن اقامة الصلاة وقوفاً صوب القبلة الحقيقية التي فرضها الله تعالى. وعلىٰ هذا الأساس لايمكن ان يكون لهذا الحديث أية صلة بتلك القبور التي كان المسلمون ولازالوا ينهون عن اقامة الصلاة عليها، بل يقفون الىٰ جنبها مدبرين وجوههم نحو القبلة الالٰهية (الكعبة) لاقامة الصلاة وتلاوة القرآن الكريم:

يقول القرآن الكريم:

«واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّىٰ»[٢٥]

فلوكان لمقام ابراهيم منزلة وكرامة، فهوبسبب النبي ابراهيم(ع) نفسه، ولهذا السبب ايضاً نقيم الصلاة عند مقامه. اذن ما الذي يحول دون أن يكون لمقابر أولياء الله والمضحين في سبيل الحق أمثال النبي ابراهيم(ع) ممن أفدىٰ كل شيء في سبيل الله وترسيخ دينه، مقاماً رفيعاً ينال الثواب الأكثر من اقام الصلاة وأجرى العبادة عنده وفقاً للشروط الخاصة بها، وكما تؤكده الروايات الاسلامية.

بهذه المناسبة نذكر فتاوى علماء المذاهب الأربعة حول البناء علىٰ القبور والتي نقول: «يُكره أن يبنىٰ علىٰ القبر بيت أو قبة أو مدرسة أو مسجد».[٢٦]

ولكن طالما يتفق الأئمة الأربعة علىٰ كره البناء، فكيف يتعنت قاضي «نجد» على تحريمه؟ هذا ناهيك عن عدم وجود سند صحيح ومؤكد حول كراهة البناء علىٰ القبر، خاصة لو مكّن هذا البناء الزائر من اجراء الفرائض الدينية وتلاوة القرآن الكريم عند القبر الذي يقام عليه البناء.

* * *

٢٥ــ سورة البقرة/ الآية ١٢٥.

٢٦ــ الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٢١

الاستدلال المصطنع بدلاً من لمس الحقائق:

لجأ الوهابيون الىٰ اصطناع الأدلة، أو بعبارة أخرىٰ انهم أوجدوا ذريعة أخرىٰ لهدم قباب الأئمة في البقيع وهي، قولهم بان أرض البقيع هي أرض وقفية يجب الاستفادة منها باكبر قدر ممكن للأهداف الوقفية لذا يجب ازالة كل ما يعرقل الاستفادة من هذه الأرض كالبناء علىٰ قبور أصحاب الدعوة الرسالية التي تعزقل الاستفادة من جزء من أرض البقيع. ذلك لو افترضنا انه من الممكن دفن الموتىٰ في الحرم، ولكن لايمكن دفنهم تحت أعمدة البناء وجدرانها، ولهذا السبب لابدمن ازالة هذه الأبنية كي يمكن تنفيذ الأهداف الوقفية في كافة أرجاء البقيع.

الرد:

مما لاشك فيه ان هذا النوع من الاستدلال ليس الاّ تحكيماً مسبقاً يريدبه القاضي الوهابي محو وازالة آثار أهل النبوة مهما كلف الثمن، ولولم يجد دليلاً آخراً لذلك لكان قد لجأ الىٰ استعمال العنف وهدم هذه الأبنية من أساسها. ومن أجل أن ينفذ القاضي هدفه المسبق، فكّر في ايجاد دلائل مصطنعة، وبذلك طرح مسألة وقفية أرض البقيع في حين ان فكرة الوقف لم تكن سوى وهماً وخيالاً لعدة أسباب وهي :ـــ

أولاً : لم يرد في اي كتاب من الكتب التاريخية وكتب الحديث ما يشير الىٰ ان أرض البقيع هي ارض وقفية، ولكن يحتمل بان هذه الأرض قد كانت أرض بوار وموات و كان أبناء المدينة يدفنون موتاهم هناك ، وبهذا الاستدلال ستكون هذه الأرض ضمن «المباحات الأولية» التي يجوز التصرف فيها بأي شكل من الأشكال.

في العهود السابقة لم يحرص الناس كثيراً علىٰ تملك اراضي «البوار» واراضي «الموات» ولم تكن لديهم الامكانات اللازمة للقيام بمشاريع عمرانية، كما لم تبدأ آنذاك هجرة القرويين الىٰ المدن، ولم تكن هناك مشكلة باسم مشكلة «الارض» وافراد باسم «محتكري الأراضي» ومؤسسات باسم مؤسسات «بورصة الأراضــي»(المؤسسات العقارية)، وحتىٰ ان الكثير من الأراضي لم يكن لها اصحاب وملاكون،وانما كانت مباحة أو بالأحرىٰ كانت تعتبر جزءاً من أرض البوار.

وفي تلك الأيام كان الناس في المدن والنواحي والقرىٰ يخصصون قطعة أرض لدفن موتاهم فيها أو انه عندما كان يقدم أحد علىٰ دفن فقيده في قطعة ارض ما، كان الآخرون يتبعونه في ذلك ويجعلون من تلك الأرض مقبرة دون أن يدّعي أحد بتملكها ومن ثم جعلها ارضاً وقفية لدفن الموتىٰ.

ان أرض البقيع لم تكن مستثناةمن هذهالقاعدة، ولم تكلف الأرض في الحجاز

وفي المدينة أثماناً باهضة، كما انه لم يكن يفضل أي شخص عاقل وقف قطعة ارضه الزراعية لدفن الموتىٰ، في حين كانت المدينة المنورة محاطة بمساحات واسعة من أراضي البوار فلاشك ان الناس يستغلون أرض «البوار» لهذا الغرض لا الأراضي الصالحة للزراعة.

والتاريخ أيضاً يؤكد هذه الحقيقة، حيث يقول السمهودي في كتاب «وفاء الوفاء» في أخبار دارالمصطفىٰ: كان الصحابي عثمان بن مطعون أول من دُفن في أرض البقيع وعندما توفىٰ ابراهيم ابن النبي(ص)، أمر النبي(ص) بدفنه الىٰ جانب عثمان. ومنذ ذلك الحين جنّد الناس دفن موتاهم في «البقيع»، ولذلك قاموا بقطع الأشجار من هناك وخصصوا كل قطعة من ارض البقيع لقبيلة من القبائل.

يضيف السمهودي في كتابه قائلا: كانت علىٰ أرض البقيع شجرة تُسمىٰ «الفرقد» وقدتم قطعها عندما دُفن عثمان بن مطعون هناك.[27]

ان شجرة الفرقد هي تلك الشجرة الصحراوية التي يمكن مشاهدتها من مسافة بعيدة في واحات المدينة المنورة.

يتبين من هذه العبارة بان أرض البقيع كانت أرض بور، ولكنه تم تقسيمها الىٰ عدة قطع بعدما دُفن الصحابي فيها، وخُصصت كل قطعة منها لقبيلة من القبائل، ولم يطلق عليها علىٰ مر التاريخ اسم الوقف والمهداة في سبيل الله.

يروي التاريخ بان بيت عقيل بن ابي طالب كان يمثل المكان الذي دُفن فيه أئمة البقيع، وان جثمان الأئمة الأربعة الطاهرة قدووريت في الدار التي كانت تعود الىٰ بني هاشم.

يقول السمهودي: ان العباس بن عبدالمطلب قد دفن الىٰ جوار قبر فاطمة بنت أسد في المقبرة الخاصة ببني هاشم في بيت عقيل بن ابي طالب.[28] ويروي أيضاً عن سعيد بن جبير بانه شاهد قبر ابراهيم ابن النبي(ص) في البيت الذي كان يعود الىٰ محمد بن زيد بن علي.

ويضيف أيضاً بان النبي(ص) قد دفن جثمان سعد بن معاذ في قبر داخل بيت «ابن الأفلح» الذي كان يقع في مكان حول البقيع، وكان له بناء وقبة.

تؤكد هذه العبارات علىٰ أن أرض البقيع لم تكن وقفاً، وان جثمان ائمتنا الطاهرة قدووريت في قبور داخل بيوت كانت تعود ملكيتها اليهم.

علىٰ هذا الأساس هل يصح أن يتم تسوية آثار أهل الرسالة النبوية بالأرض

٢٧ــ وفاء الوفاء ج ٢ ص ٨٤

٢٨ــ وفاء الوفاء ج ٢ ص ٩٦.

بحجة أنها تعرقل عملية الوقف؟. لنفترض ان أرض البقيع كانت أرضاً موقوفة، فهل هناك مايثبت كيفية وقفها؟ ربما ان مالك الأرض جعل أرضه وقفاً وسمح بانشاء البناء علىٰ قبورها اعتزازاً بشخصية رفيعة المستوىٰ، ولكننا طالما لسنا علىٰ علم بذلك ، عليه يجب ان نعتبر عمل المؤمن صحيحاً ونأبىٰ عن اتهامه. وعلىٰ هذا الأساس فان هدم وتدمير هذه الأبنية والقباب يُعتبر حراماً بيّناً وخلافاً لأحكام الشرع الواضحة.

كان القاضي «ابن بليهد» واتباعه يعلمون جيداً بان فكرة الوقف لم تكن سوىٰ استدلالاً مصطنعاً، ولو لم يكن لديهم استدلال كهذا، لكانوا أيضاً قد أزالوا آثار النبوة، وذلك لأن هذه المرة ليست هي المرة الأولىٰ التي تقوم فيها جماعة الوهابية بهدم وتدمير آثار الدعوة، حيث انهم قاموا ولأول مرة في عام ١٢٢١هـ وبعد سيطرتهم علىٰ المدينة المنورة بهدم وتدمير تلك الآثار التي تم اعادة بنائها كلها بعدما طُردت هذه المجموعة من أرض الحجاز علىٰ يد القوات العثمانية.

* * *

الفصل الثالث:

زيارة القبور علىٰ ضوء الكتاب والسنّة

تتميز ظاهرة زيارة القبور بان لها آثاراً اخلاقية وتربوية سريعة، حيث سنشير اليها هنا بشكل مقتضب.

ان مشاهدة هذا الوادي الصامت، الذي يضم بين جنباته من انطفأنور حياتهم سواء الغني منهم او الفقير وكذلك القوي والمقتدر، فضلاً عن احتوائه لجميع الافراد الذين دفنوا تحت التراب بعد ان غطّت اجسامهم بقطعتي قماش ليس الآ، ان مشاهدة مثل هذه المناظر تهز القلوب والارواح وتقلل من مشاعر جشع وطمع الانسان، ولو امتلك الانسان عيناً بصيرة لأخذ العبر الجليلة من هذا الممر الحتمي، ولفكّر مع نفسه ان هذه الحياة مؤقتة زائلة لامحال، فمهما تقدم الانسان بالعمر سواء ستين أو سبعين عاماً فانه بالتالي سوف يُدفن تحت التراب وسيكون مصير جسده المادي، المحو والتعفن والفناء.

لذا فان هذه الحياة الفانية لا تستحق هذا الجهد المضني الذي يبذله الانسان في الحصول علىٰ المال والمنصب ويلحق بنفسه وبالآخرين شتىٰ انواع الظلم. ان مشاهدة هذا الوادي الساكن يرقق اقسى القلوب، ويفتح اشد الآذان صمماً، وينوّر اكثر العيون حلاكة، ان ذلك يدفع الانسان الىٰ اعادة النظر في برنامج حياته ويفكّر مرة أُخرىٰ وبعمق بمسؤولياته الكبيرة أمام الله والناس وبواجباته الفردية والاجتماعية العديدة وان يبتعد عن الانانية المقيتة.

* * *

جاء في احاديث للنبي(ص) بهذا الصدد قوله:

١ــ زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة... [٢٩]

يستنتج من الاحاديث الاسلامية التي رواها مؤلفو الصحاح والسنن بان النبي(ص) نهىٰ عن زيارة القبور لأسباب مؤقتة ومن ثم سمح للناس بل حثهم علىٰ أدائها، ولربما جاء النهي بسبب ان أغلب أموات الناس كانوا من المشركين وعبدة الأصنام، وان الاسلام قطع صلتهم بعالم الشرك . ويحتمل ان يكون السبب شيئاً آخر هوان جماعة من الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً كانوا يرثون أمواتهم بالباطل، كما انهم كانوا يرددون كلمات تخرج عن نطاق الأدب الاسلامي. ولكن بعدما انتشر الاسلام ودخل الايمان قلوب الناس ألغىٰ النبي(ص) بأمره سبحانه النهي، ودعا الناس الىٰ زيارة القبور نظراً لفوائدها التربوية حيث يروي مؤلفو الصحاح والسنن: قال النبي(ص):

٢ــ كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، زوروها فانها تزهد في الدنيا وتذكر بالآخرة. [٣٠]

٣ــ «زار النبي(ص) قبر امه فبكىٰ وابكىٰ من حوله... وقال:

استأذنت ربي في ان أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فانها تذكركم الموت». [٣١]

٤ــ قالت عائشة: «ان رسول الله رخص في زيارة القبور». [٣٢]

وقالت أيضاً:

٥ــ فأمرني ربي آتي البقيع فاستغفر لهم؛ قلت كيف أقول يا رسول الله؟ قال:

٢٩ــ صحيح ابن ماجة ج ١ «باب ماجاء في زيارة القبور» ص ١١٣.

٣٠ــ سنن ابن ماجة باب «ماجاء في زيارة القبور» ج ١ ص ١١٤ طبعة الهند، صحيح الترمذي أبواب الجنائز ج ٣ ص ٢٧٤ مع شرح ابن العربي المالكي طبعة لبنان.

يقول الترمذي بعد روايته الحديث عن بريدة: حديث بريدة صحيح والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم لايرون بزيارة القبور بأساً وهو قول ابن المبارك والشافعي وأحمد واسحاق.

بالاضافة الىٰ ذلك يمكن مراجعة المصادر التالية:

ــ صحيح مسلم ج ٣ باب «استئذان النبي ربه عزوجل في زيارة قبر امه ص ٦٥.

ــ صحيح أبي داود ج ٢ كتاب الجنائز باب زيارة القبور ص ١٩٥.

ــ صحيح مسلم ج ٤ كتاب الجنائز باب زيارة القبور ص ٧٣.

٣١ــ صحيح ابن ماجة ج ١ ص ١١٤، صحيح مسلم ج ٣ باب «استئذان النبي ربه عزوجل في زيارة قبر امه ص ٦٥. من المؤكد ان ام النبي(ص) كانت كآبائها واجدادها من دعاة التوحيد والمؤمنين بالدين الحنيف ولهذا السبب فان هذا الحديث لاينطبق بالكامل مع المعايير العلمية.

ــ سنن ابي داود ج ٢ كتاب الجنائز ص ١٩٥ طبعة مصر مع تعليقات احد علماء الأزهر الشيخ أحمد سعد و صحيح مسلم ج ٤ كتاب الجنائز باب زيارة قبر المشرك ص ٧٤.

٣٢ــ صحيح ابن ماجة ج ١ ص ١١٤.

قولي السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين يرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين وانّا ان شاءالله بكم لاحقون.[33]

٦ــ جاء في أحاديث أخرىٰ نص الجُمل التي كان يرددها النبي(ص) عند زيارته القبور والتي هي:

«السلام عليكم دارقوم مؤمنين، وانّا واياكم متواعدون غداً ومواكلون، وانّا اِن شاء الله بكم لاحقون، اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».[34]

جاء ذلك بشكل آخر كالآتي:

«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانّا ان شاءالله بكم لاحقون أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع أسأل الله العافية لنا ولكم»[35].

يستنتج من حديث عائشة بان النبي(ص) كان يخرج الىٰ البقيع آخر الليل ويقول:

«السلام عليكم دارقوم مؤمنين وانّا معكم متواعدون غداً موحلون وانّا ان شاءالله بكم لاحقون اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».[36]

يستنتج من حديث آخر بان النبي(ص) كان يزور المقابر مع الجماعة، ويعلمهم كيف يزورونها: «كان رسول الله يعلمهم اذا خرجوا الىٰ المقابر فكان قائلهم يقول: **السلام علىٰ اهل الديار. او السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين والمسلمين. وانّاان شاءالله لاحقون أسأل الله لناولكم العافية...»**[37]

* * *

النساء وزيارة القبور:

بقي هنا موضوع آخر وهو زيارة النساء للقبور. وقد جاء في بعض الروايات بان النبي(ص) كان ينهى النساء عن زيارة القبور.

«لعن رسول الله زوارات القبور»[38]

ولكن يجب الانتباه الىٰ ان تحريم النساء من زيارة القبور بالاستدلال بهذا

٣٣ــ سنن النسائي ج ٣ ص ٧٦ وصحيح مسلم ج ٣ باب «مايقال عنددخول القبور»ص٦٤

٣٤و٣٥ــ سنن النسائي ج ٤ ص ٧٦ــ٧٧.

٣٦ــ صحيح مسلم ج ٣ باب «مايقال عند دخول المقابر» ص ٦٣.

٣٧ــ صحيح مسلم ج ٣ باب« مايقال عند دخول المقابر» ص ٦٣.

٣٨ــ صحيح ابن ماجة كتاب الجنائز باب «ماجاء في النهي عن زيارة النساء القبور» ج ١ ص ٤٧٨ الطبعة الاولىٰ ــ مصر.

الحديث ليس صحيحاً لعدة أسباب هي:

أولاً: ان الكثير من العلماء يعتبرون هذا النهي نهي تنزيه، وكان للكراهة شروط خاصة بذلك الزمان، يشير اليها مؤلف «مفتاح الحاجة» في تعليقه علىٰ صحيح ابن ماجة قائلاً:

«اختلفوا في الكراهة هل هي كراهة تحريم او تنزيه، ذهب الأكثر الىٰ الجواز اذا آمنت بالفتنة»[39]

ثانياً: قرأنا في الأحاديث السابقة بان عائشة ام المؤمنين روت عن رسول الله(ص) بان النبي(ص) أباح زيارة القبور.[40] فلو استثنيت النساء من هذا الحكم لكان النبي(ص) قد ذكر بانه يخص الرجال خاصة وان الراوية هي امرأة. وبالطبع كانت هنالك نساء من بين الذين كان يخاطبهم الرسول(ص)، وكان كل مخاطب يفكر بان الحكم يخصه.

ثالثاً: جاء في بعض الأحاديث بان النبي(ص) علّم عائشة كيفية زيارة القبور،[41] وكانت عائشة هي أول من زارت القبور بعد النبي(ص).

رابعاً: يروي الترمذي بانه عندما توفي «عبدالرحمان بن ابي بكر» شقيق عائشة في «الحبشة» نقلوا جثمانه الىٰ مكة ودفنوه هناك وعندما ذهبت شقيقته عائشة من المدينة الىٰ مكة خرجت لزيارة قبر اخيها وألقت قصيدتان في رثائه[42]

كتب مفسر صحيح الترمذي «الامام الحافظ ابن العربي» المولود في عام ٤٣٥ هـ، والمتوفي في عام ٥٤٣ هـ، كتب في تعليقاته علىٰ الصحيح قائلا: الصحيح هو ان النبي(ص) سمح للرجال والنساء بزيارة القبور. ولكن البعض كانوا يعتبرون زيارة النساء للقبور مكرءها، وذلك بسبب عدم تمالك النفس من قبلهن او عدم رعايتهن للحجاب.

خامساً: يروي البخاري عن «أنس» قوله: شاهد النبي(ص) امرأة تبكي علىٰ قبر عزيزها، فقال لها اتقي الله واصبري؛ فاجابت وهي لا تعلم بان مخاطبها هوالنبي(ص): دعني وشأني لأنك لم تبلَ ببليتي. ولما أخبروها بان النبي(ص) كان يخاطبها، تركت قبر عزيزها وذهبت الىٰ بيت النبي(ص) واعتذرت منه فقال لها: الصبر علىٰ المصيبة هو المطلوب أولاً.[43] اذن لوكانت زيارة القبور للنساء حراماً لنهاها الرسول(ص) عن ذلك في

٣٩ــ حواشي ابن ماجة، ج ١ ص ١١٤ طبعة الهند.

٤٠ــ يرجىٰ مراجعة الحديث رقم (٤).

٤١ــ يرجىٰ مراجعة الحديث رقم (٥).

٤٢ــ صحيح الترمذي ج ٤ كتاب الجنائز باب «ماجاء في زيارة القبور» ص ٢٧٥.

٤٣ــ صحيح البخاري كتاب الجنائز باب «زيارة القبور ص ١٠٠»،صحيح ابي داود ج ٢ ص ١٧١

حين انه اوصاها بالصبر فقط.

سادساً: ان «فاطمة» بنت الرسول(ص) كانت تخرج لزيارة قبر عمها «حمزة» في كل جمعة وكانت تُصلي عند قبره وتبكي.[44]

سابعاً: يقول القرطبي: لم يلعن النبي(ص) كل زائرة بل كان يلعن التي كانت تزور القبور دوماً، والدليل علىٰ ذلك قوله «زوارات القبور» وكلمة «زوار» هي صيغة المبالغة وتدل علىٰ الكثرة.[45]

لربما ان التفرط في زيارة القبور يؤدي الىٰ ضياع حق الزوج، ويصبح وسيلة لـ«التبرج» والبكاء والعويل المفرط، الأمر الذي يستوجب اللعن ولكن لوجاءت الزيارة بعيداً عن هذه الامور فلا اشكال فيها خاصة وان زيارة القبور تذكّر بالموت، وهذه الذكرىٰ يحتاج اليها كل انسان رجلاً كان أو امرأة.

ثامناً: لوان زيارة القبور تؤدي الىٰ ترك ملذات الدنيا وتقلل الحرص والطمع وتذكّر الآخرة في نفس الزائر، فانها في الوقت ذاته تفيد الميت أيضاً علىٰ الرغم من انه يرقد تحت أكوام من التراب وقد قطع أمله في اي شيء ذلك لأن الزيارات الاسلامية مرفقة بقراءة الفاتحة واهداء ثوابها الىٰ الميت وهذه الهدية هي أفضل هدية يمكن للانسان الحي أن يهديها الىٰ عزيزه الراقد تحت التراب.

يروي ابن ماجة في صحيحه عن النبي(ص) حيث قال:

«اقرأوا يٰس علىٰ موتاكم»[46]

فما هو الفرق والحال هذه بين الرجل والمرأة كي تحرم زيارة أحدهما وتباح زيارة الآخر لولا الشروط الخاصة بالنساء كما أشرنا اليها.

النتائج البنّاءة لزيارة قبور الشخصيات الدينية:

ان القبور التي تُحظىٰ باهتمام عباد الله وخاصة المسلمين هي في الغالب قبور اولئك الذين كانوا يحملون علىٰ عاتقهم رسالة هداية مجتمعاتهم، وقد بلّغوا رسالتهم علىٰ الوجه المطلوب. وهؤلاء ينقسمون الىٰ ثلاث جماعات هي:

١ــ الأنبياء والزعماء الذين حملوا علىٰ عاتقهم الرسالة الربّانية وضحوا بارواحهم وأموالهم وقدموا دماء اعزائهم وتحملوا المصائب والآلام من أجل هداية وارشاد الناس.

٢ــ كبار العلماء الذين احترقوا كالشمع وأضاؤوا ماحولهم وقضوا ايام شبابهم في

٤٤ــ مستدرك الحاكم ج ١ ص ٣٧٧، وفاء الوفاء ج ٢ ص ١١٢

٤٥ــ نعم جاء في سنن أبي داود «زائرات» مكان «زوّارات»

٤٦ــ صحيح ابن ماجة حديث ١٤٤٨، سنن أبي داود ج ٣ ص ٤٨٩ باب القراءة عند الميت.

المدارس والمراكز العلمية وواصلوا البحوث كي يضعوا في متناول يد البشرية كنزاً باسم العلم، وليعرّفوا الناس علىٰ كتاب الله، و كتاب الطبيعة، ويضعوا أساساً للعلوم الدينية والانسانية والطبيعية.

٣ــ اولئك الذين نفذ صبرهم من المظالم الاجتماعية واستمرار هضم حقوق الناس و ممارسة التميز، ومن ثم ثاروا ضد الحكام الجائرين من أجل اعادة حقوق الانسان واقامة العدالة الاجتماعية. (شهداء طريق الاسلام).

فلايمكن تحقيق اي ثورة او اي تغيير اجتماعي الاّ بدفع الثمن.. وثمن الثورة المقدسة التي تستهدف تدمير قصور الظالمين وخنق انفاسهم هو الدماء الزكية التي يضحي بها المقاتلون البواسل ممن يستهدفون اعادة العدالة والحرية الىٰ وطنهم.

ان الناس يزورون قبور هذه الجماعات ويذرفون الدموع عندها ليتذكروّا خدماتهم وتضحياتهم.. ويقرأوا سورة من القرآن الكريم لاسعاد ارواح هؤلاء الأعزاء... ويلقون القصائد لتخليد تضحياتهم وفضائلهم الانسانية والأخلاقية.. وليحيوا عقائدهم ويخلدوها ويدعوا الجماهير لانتهاج طريقهم.

ان زيارة قبور هذه الشخصيات هي نوع من الشكر والتقدير علىٰ تضحياتهم واشعار للجيل المعاصر بانه هكذا يخلد كل من يسلك طريق الحق والفضيلة، ويضحي بحياته دفاعاً عن العقيدة ونشر الحرية. ان مرور الزمان يؤدي الىٰ انقراض وزوال كل شيء، بيد أنه لن يتمكن من نسيان ذكرىٰ هؤلاء، بل يخلّد حبهم في القلوب. اذن أليس من الأفضل للأجيال المعاصرة والأجيال الآتية أن يسلكوا طريقهم.

القرآن وزيارة القبور:

عندما مات «عبدالله بن أبي» رئيس حزب النفاق، أمرالله النبي(ص) بعدم اقامة الصلاة عند قبر افراد هذه الجماعة، وعدم (تلاوة القرآن وطلب المغفرة لهم) عند قبرهم. حيث جاء في القرآن الكريم:

«ولا تُصلِّ علىٰ أحد منهم مات أبداً ولا تقم علىٰ قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون» (سورة التوبة/ الآية ٨٤)

فما المقصود من (ولا تقم علىٰ قبره)؟ هل المقصود هو القيام عند اقامة الصلاة عند دفنه ان كان مؤمناً وعدم جوازها ان كان منافقاً؟ ام المقصود هو اقامة الصلاة عند الدفن وغيره ؟

يفسر البعض هذه الآية بانها تعني اقامة الصلاة عند الدفن فقط، ولكن البعض الآخر أمثال البيضاوي وغيره يفسرونها بانها تعني «ولا تقف علىٰ قبره للدفن او

الزيارة»[47]

ان التمعن في مفاد الآية يوصل الىٰ ان المقصود منها يشتمل علىٰ الاقامة سواء كان عندالدفن أو بعده و انه لايجوز في المشرك والمنافق ويجوز في المؤمن.

زيارة قبر الرسول(ص):

لقد تبين لنا من خلال دراسة زيارة قبور الشخصيات الدينية أهمية زيارة قبور الشخصيات الدينية البارزة والمضحين في سبيل الحق. وعليه يجب علينا ان نواصل دوماً تكريمهم بعد مماتهم كمانكرمهم وهم علىٰ قيد الحياة، و ان نسعىٰ من اجل حماية وصيانة آثارهم وذكرياتهم، وان نحتفل بذكرىٰ ميلادهم، ونعلن الحداد والعزاء بذكرىٰ وفاتهم.. كما يجب ان نعقد اجتماعات كبيرة نُلقي فيها كلمات مؤثرة ومثمرة بهذه الذكرىٰ، وذلك كي ندعو الناس الىٰ التعرّف علىٰ عقائدهم وصيانة هذه العقائد علىٰ مرالعصور القادمة. ويجب علينا أيضاً ان نحترم قبورهم وتربتهم، ونمتنع عن الاساءة اليهم ذلك لأن احترام تربتهم هو احترام لعقائدهم، كما ان الاساءة الىٰ قبورهم وآثارهم هي اساءة الىٰ الطريق الذي سلكوه.

في هذه الأيام عند مايزور الانسان مقبرة البقيع وقادة الاسلام وصحابة الرسول(ص) ممن ضحوا بكل شيئ من أجل نشرالدين، يصاب بالقشعريرة وتهتز مشاعره نظراً للحالة السيئة التي وصلت اليها هذه المقبرة. كما انه يصاب بالاستغراب علىٰ مدىٰ قساوة قلوب جماعة «الوهابية» الذين يعتبرون انفسهم ناشري الدين الاسلامي! وذلك لأنهم عندما يذكرون اسماء هؤلاء القادة والصحابة علىٰ المنابر، يراعون جانب الاحترام الكامل بالنسبة لهم ولكن عندما يخرجون الىٰ قبورهم لايكنون أي احترام تجاههم، فهم لايبالون حتىٰ لو أفسدت الحيوانات أطراف قبورهم، انهم يتمسكون بكلمتي «الشرك» و «المشرك» ويطعنون بها كل من يحترم ويكرم أولياء الله وكأنهم يكِنون نوعاً من العداء تجاه اولياء الله ولذلك فهم يتذمرون من اي نوع من الاحترام والتكريم لهم.

والآن ننتقل للحديث حول زيارة قبر الرسول(ص) على ضوء الأدلة الاسلامية.

زيارة النبي الاكرم(ص):

يأمر القرآن الكريم الأشخاص المذنبين أن يطلبوا من النبي(ص) كي يطلب لهم بالمغفرة من الله ذلك لأن الله يجيب دعوة النبي اذا دعا بالمغفرة لهم حيث جاء في القرآن

٤٧ــ تفسير البيضاوي ج ٣ ص ٧٧.

الكريم:

«ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» (النساء/٦٤)

فلولم تكن هناك آية اخرىٰ سوىٰ هذه الآية، لقلنا بانها تخص يوما كان فيه النبي(ص) علىٰ قيد الحياة ولكن يمكن ان نستخلص منها حكماً شاملاً لايخص الحياة الدنيوية كالآتي:

اولاً: ان آيات القرآن الكريم تعتبر حياة الأنبياء والأولياء وكذلك حياة جماعات خاصة، حياة برزخية، وتعتبرهم مبصرين وسامعين في هذه الدنيا وسنشير الىٰ هذه الآيات في الحديث حول موضوع «التوسل بالأرواح المقدسة».

ثانياً: ان الاحاديث الاسلامية تدل بوضوح علىٰ ان الملائكة تبلّغ خاتم الأنبياء(ص) نداء الأفراد... حيث جاء في الصحاح:

«ان رسول الله قال: **مامن أحد يسلّم عليّ الآرد الله عليّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام**»[48] وقال رسول الله... «**صلّوا عليّ فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[49]

ثالثاً: لقد استنتج المجتمع الاسلامي منذ البداية معنى عاماً وشاملاً من هذه الآية وعملوا بموجبه، ولم تحول وفاة الرسول(ص) دون العمل به حتى ان جماعة من العرب ممن تخلصت أذهانهم من الشوائب والمجادلات الكلامية كانوا يزورون قبر النبي(ص)، بعد وفاته ويقرأون هذه الآية ويطلبون من النبي(ص) ان يستغفر لهم.

لقد أورد «تقي الدين السبكي» في كتاب «شفاء السقام» و «السمهودي» في كتاب «وفاء الوفاء» نماذج من هذا النوع نذكر بعضاً منها كالآتي:

روى «سفيان بن عنبر» الذي هو من شيوخ الشافعية عن «العتبي» قوله: كنت عند قبر النبي(ص) فجاء اعرابي وقال:

«السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً. وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك الىٰ ربي».

بعد ذلك بكىٰ والقىٰ قصيدة ثم استغفر وغادر حرم النبي(ص) وهذان بيتان من قصيدة ذلك الأعرابي:

٤٨ــ سنن أبي داود ج ١ ــ كتاب الحج ــ باب زيارة القبور ــ ص (٤٧٠ ــ ٤٧١)

٤٩ــ التاجُ الجامع للاصول في أحاديث الرسول(ص) تأليف الشيخ منصور علي ناصف ج ٢ ص ١٨٩.

يا خير من دفنت بالبقاع اعظمه فطاب من طيبهنّ القاع والأكم
نفسي الفداء بقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم[50]

يروي «السمهودي» في هذا المجال عن الإمام علي(ع) قوله:

بعد مضي ثلاثة ايام علىٰ دفن جثمان النبي(ص)، جاء اعرابي والقىٰ بنفسه علىٰ القبر وذرىٰ ترابه علىٰ رأسه ثم قال: يا رسول الله أنت قلت ونحن سمعنا، أخذت من الله ما أخذنا منك نحن، وهذه الآية هي من ضمن مانزلت عليك «ولو انهم اذ ظلموا...» انني ظلمت نفسي وها قدجئتك كي تطلب لي المغفرة من الله.

هذه الأعمال ان دلت علىٰ شيء فانما تدل علىٰ ان المنزلة التي منحها الله للنبي(ص) وفقاً لهذه الآية لاتخص حياة النبي(ص) الدنيوية، بل تؤكد علىٰ انها خاصة بالحياة البرزخية.

ان المسلمين لايعتبرون الآيات التي تخص احترام النبي(ص)، خاصة بحياته. والدليل علىٰ ذلك هو انه عندما دفن جثمان «الحسن بن علي»(ع) رفع البعض اصواتهم بالعويل ولكي يخفف عنهم الإمام «الحسين بن علي»(ع) قرأعليهم هذه الآية:

«يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي...» (الحجرات/٢)

لم يقل أحد من الناس وحتىٰ الأمويين بان هذه الآية وكذلك احترام النبي(ص) تخص حياة الرسول(ص). حتىٰ ان جماعة «الوهابية» كتبوا هذه الآية وعلّقوها علىٰ الجدار المقابل لقبر الرسول(ص) ولا زالت باقية الىٰ يومنا هذا: انهم يريدون بذلك ان يسمعونا كي نخفض اصواتنا عند قبر النبي(ص). وعلىٰ هذا الأساس يمكننا ان نستنتج معنى شاملاً من هذه الآية وهو انه بامكان المسلمين ان يقفوا عند قبر النبي(ص) ويطلبوا منه كي يستغفر الله لهم.

ان هذه الآية تدل علىٰ موضوعين هما:

١ــ يمكن للانسان ان يقف عند قبر النبي(ص) بعد وفاته ويرجوه كي يطلب من الله ان يغفرله. هذا الموضوع سنشير اليه في موضوع «التوسل بأولياء الله».

٢ــ ان هذه الآية تدل علىٰ جواز زيارة الرسول(ص)، ذلك لأن حقيقة الزيارة لا تعني سوىٰ «حضور» «الزائر» عند «المزور». فلو كان جائزاً ان نقف عند قبر النبي(ص) ونطلب منه كي يدعو الله ان يغفر لنا، فنحن ننجز بذلك عملين هما:

١ــ نطلب منه كي يدعو الله ان يغفر لنا.

٢ــ نحضر أمامه ونخاطبه، وهذه هي الزيارة بعينها.

٥٠ــ وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٣٦١.

استدلال آخر:

اِنّ اتفاق المسلمين علىٰ حكم ما، خلال العصور المختلفة هو أوضح دليل علىٰ صدق وثبات ذلك الحكم. وزيارة قبر النبي (ض) هي احد مصاديق هذه القاعدة.

تتجلىٰ لنا حقيقة هذا الموضوع لوراجعنا كتب الحديث والفقه والأخلاق خاصة الباب المتعلق بـ «مناسك الحج».

نقل العلاّمة الأميني استحباب زيارة قبر النبي (ص) من اثنين وأربعين مصدراً اسلامياً حيث أورد في كتابه «الغدير» ج ٥ ص (١٠٦ــ١٢٩) النصوص والعبارات الخاصة بهذا الموضوع بدقة متناهية. والكتب التي اعتمدناها في هذا المجال هي كالآتي:

١ــ «**شفاء السقام، في زيارة خير الأنام**» تأليف «تقي الدين السبكي الشافعي» (المتوفى عام ٧٥٦ هـ). ذكر هذا المؤلف في كتابه بعضاً من نصوص و عبارات العلماء بهذا الصدد.

٢ــ «**وفاء الوفاء**» تأليف «السمهودي» (المتوفى عام ٩١١ هـ). يذكر هذا المؤلف نصوص و عبارات العلماء التي تشير كلها الى الاستحباب المؤكد في زيارة قبر النبي (ص).

٣ــ «**الفقه علىٰ المذاهب الأربعة**» تأليف أربعة من علماء المذاهب الأربعة.

ان هذا الكتاب يكرس أفكار الأئمة الأربعة للسنة. يقول هؤلاء:

«زيارة قبر النبي أفضل المندوبات ورد فيها أحاديث ».[٥١]

وأما الآن فقدآن الآوان كي ننقل بعضاً من الأحاديث التي رواها المحد ثون الاسلاميون في هذا المجال.

الأحاديث الإسلامية حول زيارة قبر النبي (ص):

ان الأحاديث الاسلامية حول زيارة قبر النبي (ص) والتي أوردها المحد ثون من اهل السنّة علىٰ قدر من الدقة والكفاية بحيث تجعلنا في عدم الحاجة الىٰ التمحص في المستندات والروايات بهذا الصدد. لقد أورد الحافظون من كبار أهل السنة ومن جميع الفرق هذه الأحاديث في كتبهم. وتدل هذه الأحاديث كلها علىٰ ان زيارة قبر النبي (ص) كانت من الامور المؤكدة لديهم. ان نقل جميع هذه الأحاديث من الوثائق الاسلامية الأصيلة يطيل علينا الكلام، لذا نكتفي بذكر البعض منها كمايلي:

٥١ــ الفقة علىٰ المذاهب الأربعة ج ١ ص ٥٩٠.

۱ــ عن عبدالله بن عمر: **«من زار قبري وجبت له شفاعتي».**
جاء هذا الحديث في كتاب «الفقه علىٰ المذاهب الأربعة» (ج ۱ ص ٥٩٠)، وقد أفتىٰ جمعٌ من العلماء استناداً له. وللحصول علىٰ المستند يُرجىٰ مراجعة كتاب «وفاء الوفاء» (ج ٤ ص ۱۳۳٦).

مما لاشك فيه ان هذا الحديث الذي أورده الحفاظ والعلماء في كتبهم ابتداءاً من منتصف القرن الثاني الهجري وحتى الآن، لايمكنه ان يكون باطلاً لاأساس له.

ولأجل كمال الموضوع أجرىٰ «تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي» (المتوفى في عام ۷٥٦هـ) أجرىٰ بحثاً أورده في كتابه القيم «شفاء السقام»[٥٢] (ص ۳ــص ۱۱) حول طرق الحديث وتوصل خلاله الىٰ اثبات صحة طرق الحديث.

۲ــ **«من جاءني زائراً (لا تحمله) الاّ زيارتي كان حقاً عليّ أن اكون له شفيعاً يوم القيامة».**
ذكر هذا الحديث ستة عشر حافظاً ومحدّثاً في كتبهم. يرجىٰ مراجعة كتاب «شفاء السقام» و كتاب «وفاء الوفاء» (ج ٤ ص. ۱۳٤)

۳ــ **«من حجّ فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي».**
نقل هذا الحديث خمسة وعشرون شخصاً من أشهر المحدثين والحفّاظ في كتبهم. وقد تحدث تقي الدين السبكي بصورة مفصلة حول سند الحديث في كتابه «شفاء السقام» ص (۱۲ــ۲۱٦). يرجىٰ مراجعة كتاب «وفاء الوفاء» (ج ٤ ص ۱۳٤۰) أيضاً.

٤ــ **«من حجّ البيت ولم يزرني فقد جفاني».**
نقل هذا الحديث تسعة من كبار الشيوخ وحفّاظ الحديث. يرجىٰ مراجعة كتاب «وفاء الوفاء» (ج ٤ ص ۱۳٤۲).

٥ــ **«من زار قبري (اومن زارني) كنتُ له شفيعاً (اوشهيداً)».**
ذكر هذا الحديث أحد عشر شخصاً من الحفّاظ والمحدثين، وكان بعضهم يعيش في القرن الثالث الهجري. يرجىٰ مراجعة «وفاء الوفاء» (ج ٤ ص ۱۳٤۳).

٦ــ **«من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي».**
نقل هذا الحديث ثلاثة عشر حافظاً ومحدّثاً. يرجىٰ مراجعة «وفاء الوفاء» (ج ٤

٥۲ــ هذا الكتاب هو أهم كتاب تم تأليفه من قبل كتّاب أهل السنة رداً علىٰ فتوىٰ «ابن تيمية» بشأن تحريم السفر لزيارة قبر الرسول(ص).

ص ١٣٤٧)

كانت تلك نماذج من الأحاديث الوافرة التي دعا فيها الرسول(ص) الناس الىٰ زيارة قبره، وأن مجموع هذه الأحاديث كما جاء في كتاب الغدير يبلغ اثنين وعشرين حديثاً.

وقد أورد منها «السمهودي» سبعة عشر حديثاً في كتاب «وفاء الوفاء» ص (١٣٣٦ــ ١٣٤٨) كما انه اجرىٰ بحثاً وافياً حول مستنداتها.

ان النبي (ص) دعا الناس الىٰ زيارة قبره وذلك نظراً للفوائد المادية والمعنوية التي تضمها هذه الزيارة، وزيارة الشخصيات الاسلامية البارزة. فعلىٰ ضوء زيارة قبر النبي (ص) يتعرف الناس علىٰ مركز نشر الدين الاسلامي وعلىٰ الحوادث التي تجري فيه، ويحصلون من هناك علىٰ العلوم والأحاديث الصحيحة وينشرونها في كافة أرجاء المعمورة.

أدلة الوهابيين علىٰ تحريم السفر الى زيارة القبور:

ان الوهابيين يجوزون أصل الزيارة، ولكنهم لايوافقون علىٰ جواز السفر بهدف زيارة قبر النبي (ص)، فقد كتب بن محمدبن عبدالوهاب في رسالته الثانية من مجموع رسائل «الهدية السنية» مايلي:

«تسنّ زيارة النبي الاّ انه لايشد الرحال الاّ لزيارة المسجدو الصلاة فيه».

ان دليلهم الهام في تحريم الزيارة هو الحديث التالي الذي جاء في الصحاح ورواه أبوهريرة:

«قال النبي(ص): لا تشدّ الرحال الاّ الىٰ ثلاثة مساجد، مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ».

وقد روي هذا الحديث بشكل آخر أيضاً وهو:

«انما يسافر الىٰ ثلاثة مساجد، مسجد الكعبة ومسجدي، ومسجد أيليا».

و روي بشكل ثالث أيضاً وهو:

«تشد الرحال الىٰ ثلاثة مساجد..»[٥٣]

اننا لسنا بصدد مناقشة الحديث لكونه ورد في الصحاح ورواه أبوهريرة، ولكن

٥٣ــ اورد «مسلم» الأحاديث الثلاثة في صحيحه ــج ٤ــ كتاب الحج ــ باب «لا تشد الرحال» ص ١٢٦. ووردت أيضاً في سنن أبي داود ج ١ــ كتاب الحج ــ ص ٤٦٩. كما وردت في سُنن النسائي ــ بشرح السيوطي ج ٢ ص ٣٧ــ٣٨.

المهم هو مفاده. لنفترض ان نص الحديث هو كالآتي: «لا تشد الرحال الىٰ ثلاثة مساجد...» ولكن مما لاشك فيه ان كلمة «الاّ» هي اداة «استثناء» و «المستثنىٰ منه» لازماً يجب تحديده. غير انه لايوجد في اللفظ فيجب جعله تقديراً. ويمكن تقدير المستثنىٰ منه علىٰ شاكلتين قبل الرجوع الىٰ المصادر:

١ــ لا تشد الىٰ مسجد من المساجد الاّ ثلاثة مساجد..

٢ــ لا تشد الىٰ مكان من الامكنة الاّ ثلاثة مساجد..

ان درك مفاد الحديث يرتبط باحد التقديرين وايهما ننتخب. فلو اعتمدنا الافتراض الأول فان الحديث يعني عدم شد الرحال الىٰ اي مسجد من المساجد سوىٰ المساجد الثلاثة ولا يعني عدم جواز شد الرحال الىٰ اي مكان حتى لولم يكن مسجداً.

فلا يشتمل نهي الحديث علىٰ من يشد الرحال لزيارة الأنبياء والأئمة والصالحين ذلك لأن موضوع الحديث يخص شد الرحال الىٰ المساجد التي تستثنى منها المساجد الثلاثة. واما النهي في هذا الحديث فلا يشتمل السفر لزيارة المشاهد التي تخرج عن نطاق حديثنا هذا.

وأما لو اعتمدنا الافتراض الثاني فلازمه ان تكون كافة السفرات المعنوية ماعدا السفر الىٰ المناطق الثلاثة المذكورة محرمة، سواء كان السفر من أجل زيارة المسجد او زيارة مناطق اخرىٰ.

ولكن الدلائل تشير الىٰ ان الغرض الأول هو المفاد من الحديث، شريطة أن يكون سند الحديث صحيحاً. ذلك لأنه:

أولاً: ان المساجد الثلاثة هي المستثنىٰ. اذ اَنّ الإستثناء في هذه الحالة هو استثناء متصل، وان كلمة المساجد هي «المستثنىٰ منه» وليست كلمة مكان هي «المستثنىٰ منه».[٥٤]

ثانياً: لوكان الهدف منه كافة السفرات المعنوية، فلايصحّ الحصر والحالة هذه، ذلك لأن الانسان يشد الرحال في موسم الحج للسفر الى «عرفة» و «المشعر» و «منىٰ» ولو كانت السفرات الدينية لهذه المناطق الثلاثة غير جائزة، اذن لماذا نشدّ الرحال الىٰ هذه المناطق.

ثالثاً: ان السفر من أجل الجهاد في سبيل الله وطلب العلم وصلة الرحم وزيارة الوالدين هو من ضمن السفرات التي يشير اليها القرآن الكريم كماجاء في الآية

٥٤ــ لوقيل: «ماجاء الآزيد» فالمستثنىٰ منه في هذه الجملة هوكلمة الانسان أو القوم او ماشابه ذلك. وليس المستثنىٰ منه كلمة شاملة كـ «الشيء» و «الكائن» سواء كان انساناً أو غيره.

الكريمة:

«فلولا نفرمن كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ولعلهم يحذرون» (التوبة/ ١٢٢)

ولهذا السبب فقد فسّر كبار الباحثين هذا الحديث كما اشرنا اليه. حيث يقول الغزالي في كتاب «احياء العلوم»:

«ان الجانب الثاني من السفر هو السفر من أجل العبادة. كالسفر من أجل الجهاد والحج وزيارة قبور الأنبياء والصحابة والتابعين والأولياء. فمن كانت زيارته متبركة وهو علىٰ قيد الحياة، فان زيارته تكون متبركة بعد الممات أيضاً وان شدّ الرحال لهذه الأغراض لااشكال فيه، ولا يتعارض مع الحديث الذي لايجوز «شدالرحال» الاّ الىٰ المساجد الثلاثة. ذلك لأن المساجد هي موضوع الحديث وطالما كانت سائر المساجد الاخرىٰ هي علىٰ مستوىٰ واحد من حيث الفضيلة فلايجوز السفر اليها. لو غضضنا النظر عن المساجد فان لزيارة الأنبياء والأولياء فضائل رغماً عن ان لكل منها درجات ومراتب متفاوتة». [55]

وعلىٰ هذا الأساس فان مايخصه النهي هو «شدالرحال» الىٰ مساجد غير المساجد الثلاثة ولا يخص شدالرحال من أجل الزيارة أو من أجل امور معنوية اخرىٰ.

ولابد ان نشير هنا الىٰ ان النبي (ص) عندما يقول لايشد الرحال الاّ الىٰ المساجد الثلاثة فانه لايعني بان شدالرحال الىٰ المساجد الاخرىٰ حرام، انما يعني بان المساجد الاخرىٰ لا تستحق ان يشد الانسان الرحال اليها ويتحمّل أعباء السفر من أجل زيارتها، ذلك لأن المساجد الاخرىٰ لا تختلف من حيث الفضيلة مع المساجد الثلاثة فلكل مسجد في العالم ثواب لايختلف مع ثواب مسجد آخر. فطالما هناك مسجد جامع قريب لايستوجب ان يشد الانسان الرحال من أجل مسجد جامع آخر في مكان أبعد حتىٰ و ان كان عمله هذا ليس بحرام ولا يجلب المعصية. والدليل علىٰ ذلك هوماذكره مؤلفو الصحاح والسنن، حيث جاء في صحيح البخاري:

«ان النبي كان يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً وان ابن عمر كان يفعل كذلك» [56]

٥٥ــ احياء العلوم كتاب آداب السفر ج ٢ ص ٢٤٧ طبعة دارالمعارف ــ بيروت. يرجىٰ أيضاً مراجعة كتاب الفتاوى الكبرىٰ ج ٢ ص ٢٤.

٥٦ــ صحيح البخاري ج ٢ ص ٧٦ــ صحيح مسلم بشرح النووي ج ٩ ص (١٦٩ــ١٧١) سنن النسائي بشرح السيوطي ج ٢ ص ٣٧.

فكيف اذن يمكن ان يكون السفر من أجل اقامة الصلاة في أحد مساجد الله دون تظاهر أو تحايل حراماً ومنهىً عنه.

* * *

الفصل الرابع

اقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء:

ان موضوع اقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء واضاءة المصابيح في المقابر هو من المواضيع التي يتناولها البحث في كتب جماعة الوهابية.

يقول مؤسس المذهب الوهابي في رسالته «زيارة القبور»:

«لم يذكر أحد من أئمة السلف ان الصلاة عند القبور وفي مشاهدها مستحبة ولا ان الصلاة والدعاء هناك أفضل بل اتفقوا كلهم على ان الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأولياء والصالحين»[٥٧]

ويقال بان علماء المدينة المنورة ردّوا علىٰ ذلك بقولهم:

«أما التوجه الى حجرة النبي (ص) عند الدعاء فالأولىٰ منعه كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب ولان أفضل الجهات، جهة القبلة».

لقد خرجت هذه المسألة علىٰ مرّ الزمان من مرحلة المنع الىٰ مرحلة «الشرك»، حتىٰ انهم اليوم يعتبرون ذلك شركاً وكل من يفعل ذلك يعتبر مشركاً.

والجدير بالذكر ان الصلاة لصاحب القبر وعبادته، او جعله قبلة يعتبر شركاً قطعاً، ولكن ليس علىٰ وجه الأرض مسلم يفعل ذلك عند قبور الأنبياء والأولياء. لذا فان فكرة الشرك هذه ليست سوىٰ وهماً وخيالاً، ان هدف المسلمين من اقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء هو التبرك بمكان دفن فيه حبيب الله كما انهم يعتقدون بان هذا المكان يتحلىٰ بمنزلة سامية لكونه يضم جسد عزيز من اعزاء الله، ولذلك فللصلاة

٥٧ــ زيارة القبور ص ١٥٩ــ ١٦٠.

والدعاء ثواب اكثر.

ولابد أن نتساءل هنا هل ان دفن الصالحين والطاهرين في مكان ما هوالذي يمنح ذلك المكان سمواً خاصاً ام لا؟ فلو ثبت ذلك بحكم من القرآن والسنّة فان اقامة الصلاة والدعاء عند بقاع قادة الدين ستتحلىٰ بالفضيلة، ولا يمكن بدونها أيضاً ان تحرم الصلاة والدعاء فيها مثل سائر الأماكن الاخرىٰ التي يجوز فيها اقامة الصلاة والدعاء حتىٰ لولم تتحلىٰ بالفضيلة.

اما الآن فنركز حديثنا حول هذا الموضوع وهو هل ان لمقابر ومشاهد الأولياء شرف وفضيلة خاصة، وهل يمكن الاستدلال على ذلك بالقرآن والسنة؟

للاجابة علىٰ هذا السؤال تمكن الاستفادة من الآيات التالية:

١ــ قال الموحدون بشأن مدفن «اصحاب الكهف»:

«لَنَتّخذنَّ عليهم مَسْجِداً»

(سورة الكهف/ ٢١)

لم يكن الهدف من جعل مدفن اصحاب الكهف مسجداً سوىٰ اتخاذه مكاناً للقيام بالفرائض الدينية كاقامة الصلاة والدعاء.[58] ان هؤلاء كانوا يعتقدون بان هذا المكان يتحلىٰ بفضيلة خاصة كونه يضم أجساد عباد الله من أحبائه، ولابد اذن من التبرك بفضيلة هذا المكان ونيل الثواب الأكثر منه.

ان القرآن الكريم ينقل هذا الموضوع عن الجماعة الموحدة بسكوت. فلوكان عملهم خلافاً او لهواً لماسكت القرآن أزاءه بل لكان قدرفضه واما السكوت فهو دليل الرضاء.

٢ــ يأمر القرآن الكريم حجاج بيت الله ان يقيموا الصلاة عند مقام ابراهيم(ع) أي، المكان الذي أقام فيه ابراهيم(ع) حيث يقول:

«واتّخذوا من مقام ابراهيم مصلّىٰ فيه» (سورة البقرة/ ١٢٥)

ان من يقرأ هذه الآية يستنتج منها بان لمقام ابراهيم فضيلة وكرامة وذلك لأن ابراهيم(ع) كان يقف في ذلك المكان او لربما كان يعبد ربه هناك ، ولأجله يأمر القرآن المسلمين باقامة الصلاة في ذلك المكان ونيل التبرك منه. فلوكان قيام ابراهيم في مكان سبباً في تسامي وتبرك ذلك المكان، اذن ألا يمكن أن يكون لمدفن شهداء طريق الحق والرجال الأفاضل كرامة وفضيلة، والصلاة عنده أفضل والدعاء عنده

٥٨ــ يقول الزمخشري في «الكشاف» في تفسير هذه الآية: يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم. ويقول النيشابوري أيضاً: يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم.

مستجاب؟ صحيح ان هذه الآية قد نزلت بشأن ابراهيم(ع)، ولكن ألا يمكن أن نستنتج منها حكماً شاملاً؟

دخل «الدوانيقي» في نقاش مع الإمام مالك «أحد أئمة مذاهب أهل السنّة) داخل مسجد النبي(ص) فسأله: هل يجب ان نقف باتجاه القبلة أو باتجاه مدفن النبي(ص) عند الدعاء؟ أجاب مالك: لم تصرف وجهك عن النبي في حين انه وسيلة لك ولجدك آدم، فقف باتجاه قبر رسول الله واجعله شفيعاً واطلب منه كي يشفع لك عند الله.[59]

نستنتج من هذه المناقشة بانه لم يكن هناك اشكال في الدعاء عند قبر النبي(ص)، كما نستخلص منها بان مناقشة منصور الدوانيقي مع الإمام مالك كانت تدور حول رجحان الدعاء جهة القبلة أم جهة قبر الرسول(ص). ولكن الإمام مالك يبدي رأيه بان الاهتمام بالقبر هو كالاهتمام بالقبلة.

٣ـ تنكشف لدينا هذه الحقيقة اكثر لوراجعنا أخبار المعراج، حيث جاء في روايات أخبار المعراج بان النبي(ص) صلّىٰ في أماكن كـ «الطيبة» و «طور سيناء» و «بيت لحم»، فقال له جبرائيل يا رسول الله أتعلم أين أقمت الصلاة؟ انك صلّيت في مسقط رأس عيسىٰ(ع).[60]

نستنتج من هذا الحديث بان الصلاة في اماكن لمسها جسد النبي تعتبر ذات فضيلة، وتبرك تلك الأماكن لم يأتِ سوىٰ بسبب ولادة النبي عيسىٰ(ع) فيها.

٤ـ ان آثار اقدام «هاجر» و «اسماعيل» في المنطقة الواقعة بين «الصفا و المروة»[61] أصبحت مكاناً للعبادة نظراً لصبرهما وتحملهما الصعاب والغربة في سبيل الله. هذا كلام تلميذ «ابن تيمية»؛ والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هوان تحمّل المصائب والصبر في سبيل الله من قبل هاجر واسماعيل قد جعل من آثار اقدامهما مكاناً بلغ هذا الحد من التبرك بحيث يأمر الله المسلمين ان يعبدوه في هذا المكان ويسعوا فيه، فلماذا لايجوز ان يصبح قبر النبي(ص) متبركاً والصلاة والدعاء عنده مفضلاً مشرفاً، في حين ان النبي(ص) تحمّل اكبر المصائب واستقام امامها من أجل صلاح المجتمع وارشاده؟.

٥ـ لولم تكن الصلاة عند قبر النبي(ص) جائزة فكيف قضت ام المؤمنين

٥٩ـ وفاء الوفاء في اخبار دارالمصطفىٰ ج ٤ ص ١٣٧٦.

٦٠ـ الخصائص الكبرىٰ تأليف عبدالرحمان السيوطي.

٦١ـ جلاء الافهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، تأليف ابن القيم ص ٢٢٨.

حياتها في الصلاة والعبادة في الغرفة التي دُفن فيها النبي (ص)؟.

يستدل الوهابيون بحديث «لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور انبيائهم مساجد»[٦٢] في عدم جواز الصلاة عند قبور الأولياء ولكن لو كان معنىٰ الحديث هو ما يستدل به الوهابيون فلماذا قضت عائشة ــ راوية الحديث ــ مايقرب من خمسين عاماً من عمرها في الصلاة والعبادة في الغرفة التي دُفن فيها النبي (ص).

٦ـ لولم يتحلىٰ قبر النبي (ص) بمكانة خاصة، فلماذا أصرّ الشيخان علىٰ دفنهما في نفس المقبرة التي دُفن فيها النبي (ص)؟ ولماذا أوصىٰ الحسن بن علي (ع) بدفنه الىٰ جوار قبر جده النبي (ص)، وإن حال الأعداء دون دفنه هناك ، أوصى بدفنه في مقبرة البقيع.

ان سيرة المسلمين تدل على انهم يقيمون الصلاة ويقرأون الادعية في الاماكن التي يدفن فيها اعزاء الله والمتفانون في سبيل الحق والفضيلة، وذلك لاعتقاد هم بان لهذه الاماكن مكانة أسمى وفضيلة اكبر، والصلاة فيها تبرك .

ولنفترض انه ليس هناك اي دليل من القرآن والحديث حول سمو مكانة هذه الاماكن وفضيلة الصلاة والدعاء فيها، فما هو السبب في منع الصلاة في هذه الاماكن ولماذا لا تدخلَ هذه الاماكن ضمن اطار القانون الاسلامي الشامل، الذي يعتبر الارض كلها مسجداً وطهوراً ومكاناً لعبادة الله ويقول(ص): «**جعلت لي الارض مسجداً وطهوراً**»[٦٣]

وتتجلى تلك الحقيقة اذا لاحظت قوله سبحانه آمراً حجاج بيته بان يتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقدمرّ الكلام في ذلك .

* * *

اَدلّة الوهابيين على المنع:

ثم ان الوهابيين استدلوا بأحاديث وردت في الصحاح من انه صلى الله عليه وآله قال:

«**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجداً**»[٦٤] وقال صلى الله عليه وآله:

«**الا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم وصالحيهم مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد، اني انهاكم عن ذلك**»[٦٥]

٦٢ــ سنن النسائي ج ٤ ص ٩٦ ــ طبعة بيروت وسنوافيک مفاد الحديث فانتظر.

٦٣ــ مسند احمد ج ٢ ص ٢٢٢.

(٦٤و٦٥و٦٦و٦٧) راجع في العثور على هذه الاحاديث صحيح البخاري كتاب الجنائز ج ٢ ←

ان ام حبيبة و ام سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها صور لرسول الله فقال رسول الله (ص):

«ان اولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، اولئك شرار الخلق عندالله يوم القيامة»[66]

لعن رسول الله (ص) زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد.

وقد استند ابن تيمية على هذه الاحاديث وقال:

قال علماؤنا لايجوز بناء المساجد على القبور.[67]

غير ان ابن تيمية واتباع منهجه اغتروا بظاهر الاحاديث فجاؤوا بالفتيا المذكورة، ولو انهم امعنوا النظر في القرائن الحافة بها واظهروا من انفسهم العدالة لما تفوّهوا بذلك الحكم، واليك توضيح هذه الاحاديث:

١ــ ان النصارى واليهود كانوا يتخذون قبور انبيائهم قبلة، وربما كانوا يعبدون تلك القبور والمدفونين فيها مكان عبادتهم لله سبحانه.

ويدل على ذلك مارواه مسلم الذي نقلناه من أن ام حبيبة وام سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها صور لرسول الله... الى آخر مانقلنا.

فانهم كانوا يبنون المساجد على قبور الصالحين، وصوروا فيها تلك الصور و كان الهدف من وضع صورهم فيها هو اتخاذها قبلة بل معبوداً. ولولا ذلك لما كان لاتخاذ الصور في المساجد ووضعها فيها معنى صحيحاً.

وبما ان النصارى كانوا ومازالوا متوغلين في عبادة البشر فليس ذلك العمل ــاي اتخاذ الصور قبلة ومعبوداًــ امراً مستبعداً منهم.

٢ــ ويدل على ذلك مارواه احمد في مسنده، ومالك في موطأهِ أنه (ص) قال:

«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»[68]. فان دعاء رسول الله تحذير للامة عن ان تتخذ الامة قبره قبلة او معبوداً مشعراً الى العمل الذي كان عليه النصارى؛ وهذا الحديث قرينة شارحِة لما نهى عنه رسول الله من اتخاذ القبور مساجد.

٣ــ ان لمعان النظر في ما قالته ام المؤمنين في ذيل الحديث حيث قالت:

ص ١١١ و صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٨ وايضا كتاب المساجد ج ٢ ص ٦٦ وسنن النسائي ج ٣ ص ٧٧ باب التغليظ في اتخاذ الرج على القبور.

٦٧ــ زيارة القبور ص ١٠٦.

٦٨ــ مسند احمد ج ٣ ص ٣٤٨.

«ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير اني أخشى ان يُتّخذ مسجداً».

فان جعل الحاجز والحائل انما يمنع عن اتخاذ قبره(ص) قبلة اووثناً يعبد، فلاجل ذلك، ما ابرزت الامة قبره، وجعلوا حاجزا بين القبر والمصلين في المسجد.

واما الصلاة عند القبر لله سبحانه واتخاذ الكعبة قبلة فهذا امر ممكن سواء كان هناك حاجز اولا، ابرزوا قبره اولم يبرزوا.

وعلى الجملة ان ماذكرته ام المؤمنين بعد نقل الحديث لازال دليل على ان المسلمين فهموا من الروايات الناهية ان الممنوع من بناء المساجد على القبور هو اتخاذ القبور قبلة، او اوثاناً تعبد، او اتخاذ صورها فيها كذلك.

واما الصلاة لله واتخاذ الكعبة قبلة، عند قبور الصالحين بحجة كون هذه الامكنة متبركة باجسادهم الطاهرة، فهوخارج عن حريم الرواية ولاجل ذلك ان شراح صحيحي البخاري ومسلم فسروا الحديث بما ذكرناه.

يقول القسطلاني في «ارشاد الساري»، ناقلاً عن تفسير البيضاوي: لما كان اليهود والنصارى يسجدون لقبور الانبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة متوجهين في الصلاة نحوها، متّخذين اياها اوثاناً، منع المسلمون في مثل ذلك، فاما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه، فلا يدخل في الوعيد المذكور[٦٩].

وقال العلاّمة السندي شارح «سنن النسائي» في شرح الحديث:

«اتخذوا قبور انبيائهم مساجد» اي قبلة للصلاة ويصلون اليها، اوبنوا مساجد عليها يصلون فيها، ولعل وجه الكراهة انه قد يفضي الى عبادة نفس القبر.

ويقول أيضاً يحذر امته ان يصنعوا بقبره ماصنع اليهود بقبور انبيائهم من اتخاذهم تلك القبور مساجد، اما بالسجود اليهاتعظيماً لها، او بجعلها قبلة يتوجهون في الصلاة اليها.[٧٠]

اضف الى ذلك أن غاية مايستفاد من هذه الاحاديث بناء المساجد على القبور واما بناء المساجد الى جنب القبور فلايستثنى عنها ابداً ولاجل ذلك نرى في المشاهد المشرفة حرماً ومسجداً، فالحرم مادفن فيه الامام (عليه السلام) والمسجد مايصلى فيه وتقام فيه الفرائض.

ولو كان بناء المساجد الى جنب القبور ممنوعاً فلماذا قام المسلمون بتوسيع

٦٩ــ ارشاد الساري في شرح صحيح البخاري ووافقه ابن حجر في فتح الباري ج ٣ ص ٢٠٨

٧٠ــ سنن النسائي ج ٢ ص ١٤١.

مسجد النبي بحيث وقع القبر في وسط المسجد كما هو المشاهد اليوم ولم ينكر ذلك احد من الفقهاء.

اننا نرى القوم يصفون انفسهم بالسلفية وانهم يقتفون اثر السلف الصالح؛ فهذا هو السلف ترى انهم يدفنون موتاهم في نفس المساجد، يقول السمهودي: اما قبر فاطمة بنت اَسد اُم علي بن ابي طالب، فقد قال رسول الله في حقها اذا توفيت فاعلموني، فلما توفيت خرج رسول الله فأمر بقبرها فحفر في موضع المسجد الذي يقال له اليوم قبر فاطمة، ثم لحد لها لحداً، ولم يضرح لها ضريحاً، فلما فرغ منه نزل فاضطجع في اللحد، وقرأ فيه القرآن ثم نزع قميصه، فامر ان تكفن فيه ثم صلى عليها عند قبرها فكبر تسعاً وقال: **«ماأعفي احد من ضغطة القبر الاّ فاطمة بنت اسد».**

قال السمهودي: وقوله في موضع المسجد الى آخره يقتضي انه كان على قبرها مسجد يعرف به في ذلك الزمان.[71]

اقول: يعني ان المسجد بني على القبر لا انه دفن في الموضع الذي كان مسجداً. وعلى كل تقدير فالرواية دليل على جواز بناء المساجد عند القبور.

ويقول ايضاً: واما قبر حمزة فانه اليوم مبني مجصص بالفضة لاخشب عليه، وفي اعلاه من ناحية رأسه حجر فيه بعد البسملة: «انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» هذا مصرع حمزة بن عبدالمطلب عليه السلام، ومصلى النبى (ص) عمرهُ العبد الفقير الى رحمة ربه حسين بن ابي الهيجاء غفر الله له ولوالديه سنة ثمانين وخمسمائة، انتهى[72].

الى غير ذلك من النصوص الدالة على الجواز والعجب أن بعض الوهابيين استدلوا بمارواه البخاري من انه لمّامات الحسن بن الحسن ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت فسمع صالحاً يقول:

الاهل وجدوا مافقدوا، فاَجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا[73].

وهذا الحديث المنقول على فرض صحته يدل على جواز نصب المظلة على القبر كيف ولو كان محرماً لماقامت امرأة الحسن بن الحسن على ضرب تلك المظلة خصوصاً انها كانت بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة.

ولعلها ضربتها لاجل قراءة القرآن على القبور في الحر والبرد وأما مانقله عن

٧١ــ وفاء الوفاء ج ٣ ص ٨٩٧ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

٧٢ــ نفس المصدر ص ٩٢٢.

٧٣ــ صحيح البخاري ج ٢ ص ١١١.

صالح فاشبه بكلام غير الصالحين لانه نوع من الشماتة ومثله ما اجابه الصالح المزعوم ولا حجية لقول من لم يعتمد على كتاب الله وسنة نبيه.

اضاءة المصابيح في القبور:

اما مسألة اضاءة المصابيح في مقابر اعزاء الله التي ينهى عنها الوهابيون بشدة فهي ليست مسألة مهمة ذلك لان دليلهم على ذلك لايتجاوز الحديث الذي جاء في سنن النسائي نقلاً عن ابن عباس والذي يقول: «لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[٧٤]

ولقد برهنّا سابقاً بان هذا النوع من الاحاديث لا يدل سوى على الكراهة ولو فرضنا انها تدل على التحريم فانه لايهدف الا الى منع التبذير او التشبه ببعض الشعوب في العالم ولكن لا اشكال بتاتاً لوكان الهدف من اضاءة المصابيح هو من أجل تلاوة القرآن الكريم والدعاء والصلاة.. الخ. بل بالعكس ان اضاءة المصابيح لهذه الأغراض المقدّسة هي مصداق واضح للآية الكريمة **«وتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ»**[٧٥] فما هو الدليل كي تكون الاضاءة محرّمة والحالة هذه؟

والجدير بالاشارة هو ان مجموعة من مفسّري الحديث قد اكدوا علىٰ هذه الحقيقة، حيث جاء السندي في حاشية سنن النسائي:

«والنهي عنه لأنه تضييع مال بلانفع»[٧٦]

* * *

٧٤ــ سنن النسائي ج ٣ ص ٧٧ طبعة مصر مصطفى الحلبي.

٧٥ــ سورة المائدة/ الآية الثانية.

٧٦ــ سنن النسائي ج ٣ ص ٧٧ طبعة مصر و ج ٤ ص ٩٥ طبعة بيروت. يرجىٰ مراجعة شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٩٨ أيضاً.

الفصل الخامس

التوسّل بأولياء الله:

ان التوسّل بأعزاء الله هو أحد المسائل المنتشرة بين المسلمين في كافة انحاء العالم. وقد أُعلن عن اباحته بواسطة الأحاديث منذ اليوم الذي بلغ الناس فيه الشريعة الاسلامية علىٰ يد النبي(ص). ولكنه أُنكر مرة واحدة في القرن الثامن الهجري من قبل «ابن تيمية» وتلاميذه وبعد قرنين اعتبره «محمدبن عبدالوهاب» بدعة حيناً وعبادة للأولياء حيناً آخر. وبالطبع ان عبادة غير الله هو شرك وحرام، ولكننا لسنا الآن بصدد الحديث حول معنىٰ العبادة اذاننا سنناقش ذلك في فصل آخر، بل الذي يهمنا في هذا المجال هو ان نذكر بان التوسّل باولياء الله يتم بصورتين وهما:

١ــ التوسّل بذات الأولياء كأن نقول:

«اللهم اني اتوسل اليك بنبيك محمد(ص) أن تقضي حاجتي».

٢ــ التوسّل بمنزلة الأولياء وقربهم من الله تعالىٰ وحقهم، كأن نقول:

«اللّهم اني اتوسّل اليك بجاه محمد(ص) وحرمته وحقه ان تقضي حاجتي»

ان «الوهابيين» يحرّمون الصورتين معاً. في حين ان الأحاديث الاسلامية وسيرة المسلمين تبرهن عكس مايدّعيه الوهابيون، وتجوّز الصورتين الآنفتين معاً.

والآن نذكر الأحاديث الخاصة بهذا الموضوع، ومن ثم نتطرق الىٰ سيرة المسلمين وبالاستناد الىٰ هذين الدليلين سيمكننا ان نرد علىٰ ما تقوله جماعة الوهابية بان التوسل باولياء الله بدعة وغير جائز ولكننا سنتطرق للحديث حول الادعاء القائل بان التوسل بالأولياء هو عبادة الأولياء في فصل «معنىٰ العبادة» الذي يُعتبر من أهم المباحث وأدقها.

قسم الأحاديث:

تحتوي كتب الحديث والتاريخ علىٰ أحاديث كثيرة تؤكد كلها علىٰ صحة التوسّل بذوات الأولياء ومنزلتهم. نذكر عدداً قليلاً منها كالآتي:

الحديث الأول ـــ حديث عثمان بن حنيف: التوسّل بذات الأولياء:

«ان رجلاً ضريراً أتىٰ الىٰ النبي(ص) فقال ادعُ الله أن يعافيني فقال ان شئت دعوت وان صبرت وهو خير؛ قال فادعه، فأمره ان يتوضأ فيحسن وضوءهُ ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللّهم اني اسألك واتوجّه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد اني اتوجه بك الىٰ ربي في حاجتي لتُقضى، اللّهم شفّعه فيَّ. قال ابن حنيف فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتىٰ دخل علينا كأن لم يكن به ضر».

كلمة حول سند الحديث:

لاشك في صحة وسند الحديث هذا، حتىٰ ان إمام «الوهابية» «ابن تيمية» قد اعترف بصحة سنده قائلاً: ان المقصود من اسم «ابوجعفر» الذي ورد في سند الحديث... «هو ابوجعفر الخطمي» وهو موثوق.[٧٧]

يقول «الرفاعي» الكاتب الوهابي المعاصر الذي يسعىٰ لتضعيف الأحاديث الخاصة بالتوسّل، يقول حول هذا الحديث:

«لاشك ان هذا الحديث صحيح ومشهور وقد ثبت فيه بلاشك ولاريب ارتداد بصر الأعمى بدعاء رسول الله»[٧٨].

يقول «الرفاعي» في كتاب «التوصل»: لقد أورد هذا الحديث «النسائي»، «البيهقي» «الطبراني»، «الترمذي» و «الحاكم» في مستدركه، ولكن اورد الترمذي والحاكم جملة «اللّهم شفعني فيه» بدلاً من جملة «وشفعه في»[٧٩].

كتب «زيني دحلان» في «خلاصة الكلام»:

«ذكر هذا الحديث مع مستندات صحيحة كل من البخاري في تاريخه، وابن ماجة والحاكم في مستدركهما، كما ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه الجامع...»[٨٠]

٧٧ـــ وصف «ابوجعفر» بـ (الخطمي) في مسند أحمد، ولكنه ذكر بـ (ابوجعفر) فقط في صحيح ابن ماجة.

٧٨ـــ «التوصل الىٰ حقيقة التوسل» ص ١٥٨.

٧٩ـــ نفس المصدر.

٨٠ـــ «كشف الإرتياب» ص ٣٠٩ نقلاً عن خلاصة الكلام.

نحن نورد هذا الحديث من المصادر التالية:

١ــ «سنن ابن ماجة» المجلد الأول، صفحة (٤٤١)ــ من انتشارات داراحياء الكتب العربيةــ عيسىٰ البابي الحلبي وشركاؤه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي رقم الحديث ١٣٨٥.

رویٰ ابن ماجة عن «ابي اسحاق» قوله:

«هذا حديث صحيح»

ويضيف قائلاً:

رویٰ الترمذي هذا الحديث في كتاب «أبواب الأدعية» قائلا: «هذا حديث حق صحيح غريب».

٢ــ «مسند أحمد بن حنبل»، المجلد الرابع، ص ١٣٨، في سند عثمان بن حنيف طبع المكتب الاسلامي مؤسسة دار الصادر بيروت. روي هذا الحديث من ثلاثة طرق.

٣ــ «مستدرك الحاكم» ج ١، ص ٣١٣، أوفسيت طبع حيدرآباد. يقول بعد نقل الحديث:

«هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه».

٤ــ «الجامع الصغير» تأليف السيوطي، نقلاً عن «الترمذي» و «مستدرك الحاكم» ص ٥٩.

٥ــ «تلخيص المستدرك» تأليف الذهبي المتوفى في عام ٧٤٨ هـ، والذي طبع في اسفل المستدرك.

٦ــ «التاج» ج ١ ص ٢٨٦. جمعت في هذا الكتاب أحاديث الصحاح الخمسة ماعدا صحاح «ابن ماجة».

وعلىٰ هذا الاساس لم يبقَ اي مجال للظن في سند الحديث. فلو اعطي هذا الحديث لعربي تخلو مخيلته من مجادلات الوهابيين حول مسألة التوسل وسئل بماذا أمر النبي(ص) ذلك الأعمىٰ عندما علمه الدعاء؟ فسيجيب حالاً: ان النبي(ص) علّمه كيف يجعل نبي الرحمة وسيلة يدعو الله له كي يقضي حاجته.

وهذا المعنىٰ يتجلى بوضوح من خلال العبارات التالية:

أــ «اللهم انّي اسألك واتوجه اليك بنبيك»

فكلمة «نبيك» متعلقة بما قبلها أي «اسألك» و «اتوجه اليك»، وبعبارة اخرى انه يسأل ربه بواسطة النبي(ص)، ويقف امام ربه بتوسيط النبي(ص) ايضاً والمقصود من كلمة «النبي» هو النبي(ص) نفسه وليس دعاؤه.

ب ــ لكي يتبين ان المقصود هو السؤال من الله، بواسطة النبي وشخصه

وشخصيته(ص) فقد وصف كلمة «نبيك» بجملة «محمد نبي الرحمة» وهذا ما يوضح الهدف اكثر فاكثر.

ج ــ ان جملة «يا محمد اني اتوجه بك الى ربي» تدل على ان الداعي جعل نفس النبي(ص) وجهة لدعائه، لادعاءه.

وبعبارة اخرى توسل بذات النبي الاكرم(ص) لابدعائه.

د ــ ان جملة «وشفّعه فيّ» تعني يا رب اجعل النبي(ص) شفيعي، واقبل منه شفاعته لي.

وعلى هذا الاساس فان ما يخصه الذكر في الجمل كلها هو النبي(ص) وشخصيته الشامخة لادعاوه.

ومن زعم ان الضرير توسل بدعاء النبي لابشخصه او بشخصيته، فقد غفل اوعلى الاصح تغافل عن نصوص الرواية.

كيف وهو يقول: «بنبيك محمد نبي الرحمة» ويقول يا محمد اني اتوجه بك الى ربي. ولو كان الهدف هو التوسل بدعاء النبي لكان الصحيح ان يقول: اسألك بدعاء النبي.

ثم ان قول الرسول: «ان شئت دعوت» لايعني الاّ الدعاء الذي علمه لضرير لا أنه(ص) قام بالدعاء وراء ذلك والاّ لنقل، ولو فرض انه قام مستقلا لماضرّ بالاستدلال ابداً وتصير النتيجة ان كلا من النبي والضرير قام بالدعاء، ولكن مورد الاستشهاد هو دعاء الضرير لادعاء الرسول، اذ لم تنقل كيفية دعائه حتى نتكلم فيها وعلى الجملة فالشاهد ان النبي علّم الضرير ذاك التوسل سواء أكان هناك دعاء للنبي اولا.

الحديث الثاني: التوسل بحق السائلين:

«يروي «عطية العوفي» عن ابي سعيد الخدري أن النبي(ص) قال: ما خرج رجل من بيته الى الصلاة فقال: «اللهم اني أسالك بحق السائلين عليك واسألك بحق ممشاي هذا فاني لم اخرج شراً ولا رياءً ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك ان تنقذني من النار وان تغفر لي ذنوبي انه لايغفر الذنوب الاّ انت.. «الا وكّل الله به سبعين الف ملك ليستغفرون له واقبل الله عزوجل بوجهه حتى يفرغ من صلاته.»»[81]

ان هذا الحديث هو من الاحاديث الواضحة تماماً والتي تدل على ان من الممكن للانسان ان يجعل من حرمة ومنزلة وحق وشأن الصالحين وسيطاً بينه وبين ربه ودلالة

٨١ــ صحيح ابن ماجة ج ١ باب المساجد ص ٢٦١ ومسند احمد ج ٣ حديث ٢١.

الحديث على مقصودنا واضحة.

الحديث الثالث: «التوسّل بحق النبي(ص)»

بعد ما عصىٰ «آدم» عليه السلام ــ تاب علىٰ ضوء كلمات من ربه،[82] كما جاء في القرآن الكريم:

«فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، انّه هو التوّاب الرحيم»[83]

اعرب مجموعة من المفسرين والمحدثين الاسلاميين عن وجهات نظرهم بشأن كلمات هذه الآية استناداً الىٰ الرواية التالية:

قال «الطهراني» في «المعجم الصغير» و «الحاكم النيشابوري» في «مستدرك الصحاح» و «أبونعيم الاصفهاني» و «البيهقي» في كتاب «دلائل النبوة» و «ابن عساكر الشامي» في «تاريخ ابن عساكر» و «السيوطي» في «الدرالمنثور» و «الآلوسي» في «روح المعاني» قالوا بالاستناد الىٰ سند من عمربن الخطاب بأن النبي(ص) قال:

«لما أذنب آدم الذي أذنبه رفع رأسه الىٰ السماء فقال أسألك بحق محمد الاّ غفرت لي فأوحىٰ الله اليه: ومن محمد؟ فقال تبارك اسمك، لما خُلقت رفعت رأسي الىٰ عرشك فاذا فيه مكتوب: لا اله الاّ الله ومحمد رسول الله. فقلت: انه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك فاوحىٰ اليه: انه آخر النبيين من ذريتك ولولا هو لما خلقتك»[84]

رأينا حول هذا الحديث:

١ــ ان «القرآن الكريم» يطلق لفظ الكلمات علىٰ الذوات والشخصيات، بعكس ماهو متّبع لدينا. فعلىٰ سبيل المثال:

٨٢ــ ان ماينهى به القرآن الكريم في (سورة البقرة/ ٣٥) «ولا تقربا هذه الشجرة» هو بمثابة نهي ارشادي ويتحلىٰ بصفة النصيحة ولا تستوجب معارضته العقاب انما ينجم عنه مواجهة تأثير العمل ذاته، فمثلاً لوأمر الطبيب المريض المصاب بالزكام بالامتناع عن تناول المرطبات فان معارضته لا تؤدي سوىٰ الىٰ تفاقم حدة المرض وفي القرآن الكريم آيات تدل علىٰ أن النهي الارشادي هو أحد انواع النهي الالهي وان نتيجته هو الخروج من الجنة. يرجىٰ مراجعة الآيتين (١١٨ و ١١٩) من سورة طه و كذلك كتاب «التفسير الصحيح لآيات القرآن الصعبة» الموضوع العاشر من الصفحة ٧٣ حتىٰ الصفحة ٨٢.

٨٣ــ سورة البقرة/ ٣٧.

٨٤ــ مستدرك الحاكم ج ٢ ص ٦١٥، و روح المعاني ج ١ ص ٢١٧، الدر المنثور ج ١ ص ٥٩ نقلاً عن الطهراني وابي نعيم الاصفهاني و البيهقي والمتن موافق لما في الدر المنثور.

أ ــ «ان الله يبشرك بيحيىٰ مصدقاً بكلمةٍ من الله»[85]

ب ــ «يا مريم انّ الله يبشّركِ بكلمةٍ منه اسمه المسيحُ عيسىٰ بن مريم»[86]

ج ــ «اِنّما المسيحُ عيسىٰ بن مريمَ رسول الله وكلمته»[87]

د ــ «قل لو كان البحرُ مداداً لكلماتِ ربّي لنفدَ البحر»[88]

هـ ــ «والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله»[89]

فالكلمات التي وردت في الآية، يمكن ان يكون المقصود منها هو «الذوات المقدسة» للشخصيات المحترمة التي تم التوسل اليها. وقد فسّر البعض هذه الكلمات باسماء الذوات المقدسة حيناً، وفسروها باشباحهم المنورة حيناً آخراً. واليكم التفسيرين كمايلي:

«ان آدم رأىٰ مكتوباً علىٰ العرش اسماء معظمة مكرّمة فسأل عنها، فقيل له هذه اسماء أجلّ الخلق منزلة عند الله تعالىٰ والأسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين؛ فتوسّل آدم عليه السلام الىٰ ربه في قبول توبته ورفع منزلته».[90]

وجاء في الأحاديث الأُخرىٰ للشيعة بان آدم(ع) رأىٰ الأشباح المنيرة لهؤلاء، وللاطلاع علىٰ هذه الروايات يرجىٰ مراجعة «تفسير البرهان».[91]

٢ــ يتبين لدينا عند مراجعة كتب التاريخ والحديث بان توسل آدم(ع) بالنبي(ص) كان أمراً معروفاً منذ القدم، حيث اننا قرأنا سابقاً بان «الامام مالك» قال لـ« منصور الدوانيقي» في حرم الرسول(ص):

«هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم».[92]

٨٥و٨٦ــ سورة آل عمران/ ٣٩، سورة آل عمران/ ٤٥.

٨٧ــ سورة النساء/ ١٧١.

٨٨ــ سورة الكهف / ١٠٩.

٨٩ــ سورة لقمان/ ٢٧.

٩٠ــ مجمع البيان ج ١ ص ٨٩، طبعة صيدا ــ تفسير البرهان ج ١ ص (٨٦ــ٨٨) الأحاديث ٢، ٥، ٦، ١١، ١٢، ١٤، ٢٧.

٩١ــ تفسير البرهان ج ١ ص ٨٧ الأحاديث ١٣، ١٥، ١٦.

٩٢ــ يقول السيد «احمد زيني دحلان» في الصفحة العاشرة من كتاب «الدرر السنية» ان القاضي عياض نقل هذه الواقعة بسند صحيح. ورواها أيضاً كل من الإمام السبكي في كتاب «شفاء السقام»، السيد السمهودي في كتاب «خلاصة الوفاء»، العلامة القسطلاني في «المواهب اللدنية»، ابن حجر في «الجوهر المنظم» وعدد آخر من كتاب المناسك. يقول ابن حجر في «الجوهر المنظم» ان هذه الواقعة رويت بسند صحيح و كتب الزرقاني في شرح «المواهب» روىٰ ذلك ابن فهد بسند جيد، ورواها القاضي عياض بسند صحيح أيضاً.

وقد نظم الشعراء قصائد بهذا الخصوص وقال أحدهم:

«به قد أجاب الله آدم إذ دعا | ونجا في بطن السفينة نوحُ
قوم بهم غفرت خطيئة آدم | وهم الوسيلة والنجوم الطلّعُ»[93]

الحديث الرابع:

توسل النبي بحق النبي (ص) وبحق الانبياء من قبله:

«لمّا ماتت فاطمة بنت أسد، دخل عليها رسول الله(ص) فجلس عند رأسها، فقال رحمك الله يا أمي بعد أمي، ثم دعا رسول الله(ص) اسامة بن زيد، وأبا أيوب الأنصاري و عمر بن الخطاب وغلاماً أسود، يحفرون، فحفر واقبرها فلما بلغوا اللحد، حفر رسول الله بيده واخرج ترابه، فلما فرغ دخل رسول الله(ص) فاضطجع فيه، ثم قال: الله الذي يُحيي ويميت وهو حي لايموت اغفر لأُمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي».

يقول مؤلف «خلاصة الكلام»:

«رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه...»[94]

«روىٰ ابن ابي شيبة عن جابر مثل ذلك، وكذا روىٰ مثله ابن عبدالبر عن ابن عباس، ورواه ابونعيم في حلية الأولياء عن أنس، ذكر ذلك كله الحافظ جلال الدين السيوطي في الجامع الكبير».[95]

وقد ورد هذا الحديث باشكال مختلفة في الكتب التالية والتي يشتمل بعضها علىٰ الدعاء الذي يتناوله بحثنا:ــ

١ــ كتاب «الاستيعاب» المجلد الرابع، ص ٣٨٢، تأليف «ابن البر» المتوفىٰ في عام ٤٦٣ هـ.

٢ــ كتاب: «مستدرك الحاكم»، المجلد الثالث، ص ١٠٨.

٣ــ كتاب «اصول الكافي»، المجلد الأول، ص ٤٥٣، تأليف المرحوم الكليني المتوفىٰ في عام ٣٢٩ هـ، كتاب الحجة باب مولد أميرالمؤمنين.

٤ــ كتاب «حلية الأولياء»، تأليف «أبونعيم الاصفهاني»، المجلد الثالث ص ١٢١.

٩٣ــ «كشف الارتياب» ص ٣٠٧ و ٣٠٨.

٩٤ــ «كشف الارتياب» ص ٣١٢ نقلاً عن خلاصة الكلام.

٩٥ــ «الدرر السنية» ص ٨ــ «وفاء الوفاء» ج ٣ ص ٨٨٩.

الحديث الخامس: «التوسل بالنبي(ص)»

روىٰ مجموعة من المحدثين الاسلاميين، ان بدوياً جاء الىٰ النبي(ص) وقال:

«لقد آتيناك ومالنا بعيريئط [96] لنا ولاصبي يغط». [97]

ثم أنشد يقول:

«أتيناك والعذراء يدمىٰ لبانها — وقد شغلت أم الصبي عن الطفلِ
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا — سوىٰ الحنظل العامي والعهلز الفسل
وليس لنا الاّ اليك فرارنا — واين فرار الناس الاّ الىٰ الرُسل

فقام رسول الله يجرر داءه حتىٰ صعد المنبر، فرفع يديه: **«اللّهم اسقنا غيثاً مغيثاً...»**

فمارد النبي يديه حتىٰ القت السماء... ثم قال لله درّ ابي طالب لو كان حياً لقرت عيناه، من ينشدنا قوله؟ فقام علي بن أبي طالب وقال وكأنك تريد يا رسول الله قوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه، — ثمال اليتامىٰ، عصمة الأرامل
يطوف به الهلاك من آل هاشم — فهم عنده في نعمة وفواصل

فقال النبي(ص): أجل

فأنشد علي أبياتاً من القصيدة والرسول يستغفر لأبي طالب علىٰ المنبر، ثم قام رجل من كنانة وأنشد:

لك الحمد والحمد ممن شكر — سقينا بوجه النبي المطر

هناك وثائق عديدة حول هذا الموضوع، ولكن المؤلف اعتمد المصادر التالية:

أ ــ «عمدة القارئ في شرح حديث البخاري»، المجلد السابع، ص ٣١ تأليف «بدرالدين محمودبن أحمد العين» المتوفي في عام ٨٥٥ هـ، طبع ادارة الطباعة المنيرية.

ب ــ «شرح ابن أبي الحديد» لنهج البلاغة، المجلد، ١٤، ص ٨٠.

ج ــ «سيرة الحلبي» المجلد الثالث، ص ٢٦٣.

د ــ «الحجة علىٰ المذاهب الى تكفير أبي طالب»، تأليف شمس الدين أبي علي فخاربن معد المتوفي في عام ٦٣٠ هـ. طبعة النجف ــ مطبعة العلوي، ص ٧٩.

هـ «سيرة زيني دحلان» في حاشية سيرة الحلبي، المجلد الأول ص ٨١.

الحديث السادس: «التوسّل بذات النبي(ص)»

ان «سواد بن قارب»، رضي الله عنه، أنشد لرسول الله قصيدته التي ضمّنها

٩٦ــ «يئط» مشتقة من «أطيط» وتعني صوت الجمل.

٩٧ــ «يغط» مشتقة من كلمة «غطيط» وتعني صوت الطفل عندما ينام.

التوسّل؛ حيث يقول:

واشهد ان الله لاربّ غيره ... وانك مأمون علىٰ كل غائب
وانك أدنىٰ المرسلين وسيلة ... الىٰ الله ياابن الأكرمين الأطايبَ
فمرنا بما يأتيك ياخير مرسل ... وان كان فيما فيه شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لاذوشفاعة ... بمغن فتيلاً عن سوادبن قارب[98]

ذكرنا حتى الآن مجموعة من أحاديث التوسل بالاستناد الىٰ كتب الحديث والتاريخ الخاصة بالسنة ولكن الأحاديث التي رواها ائمة الشيعة والتي تخص التوسل بالذوات المقدسة هي علىٰ قدرمن الوضوح حتى أنها جاءت في أدعيتهم أيضاً. والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المجال هوهل يجب أن نتعلم الأحكام الاسلامية من «ابن تيمية» و «محمدبن عبدالوهاب» أم من عترة الرسول(ص) وبما ينص عليه حديث الثقلين، الثقل الأصغر وعدالة القرآن؟.

اننا نكتفي هنا بذكر دعائين من الأدعية الكثيرة التي وردت في «الصحيفة العلوية»[99] او في ادعية الامام الحسين بن علي(ع) أو في «الصحيفة السجادية» كمايلي:

الحديث السابع: «دعاءعرفة»:

قال سيدالشهداء الحسين(ع) في «دعاء عرفة»:

«اللّهم انّا نتوجه اليك في هذه العشية التي فرضتها وعظّمتها بمحمد نبيك ورسولك وخيرتك من خلقك».

الحديث الثامن: التوسل بحرمة شهر رمشان وبحرمة الذين يقومون بالعبادة في هذا الشهر:

قال الامام علي بن الحسين(ع) في دعاء له بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك:

«اللّهم اني اسألك بحق هذا الشهر وبحق من تعبدلك فيه من ابتدائه الىٰ وقت فنائه من ملك قرّبته أو نبي أرسلته أو عبدصالح اختصصته»[100].

٩٨ـ «الدرر السنية» ص ٢٩، تأليف زيني دحلان، و«التوصل الىٰ حقيقة التوسل»ص٣٠٠.

٩٩ـ الصحيفة العلوية تضم أدعية أميرالمؤمنين علي(ع) وقدجمعها «الشيخ عبدالله سماهيجي»

١٠٠ـ «الصحيفة السجادية»، الدعاء (٤٤).

سيرة المسلمين في مسألة «التوسّل»:

كـان المسلـمون يتوسلـون بـذوات أوليـاء الله وحرمتهم ومـنـزلتهم مـنـذ زمن الرسول(ص) وبعده. وفيمايلي نماذج من هذا التوسّل:

١ــ كتب «ابـن الأثير عزالديـن علي بـن محمدبـن محمدبن عـبدالكـريم الجزري» المتوفي في عام ٦٣٠ هـ كتب في كتابه «اسد الغابة في معرفة الصحابة» قائلاً:

«واستسقىٰ عمـربن الخطاب بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط فسقاهم الله تعالىٰ بـه واخصبت الأرض فقـال عـمـر هذا والله الوسيلـة الىٰ الله والمكان مـنـه. وقال حسّان:

سـأل الإمـام وقـدتـتـابـع جـدبـنـا	فسقـىٰ الغـمـام بـغـرة الـعـبـاس
عـمّ الـنـبي وصـنـو والـده الـذي	ورث الـنـبي بـذاك دون الـنـاس
أحيا الاله بـه البلاد فـأصبحت	مخضرّة الأجـنـاب بـعـد الـيـأس

ولما سقىٰ النـاس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون هنيئاً لك ساقي الحرمين.[١٠١]

ان دلّت هذه القصيـدة التأريخية التي وردقسم منها في «صحيح البخاري» علىٰ شيء فانما تدل علىٰ ان أحد مصاديق «الوسيلة» هو التوسـل بالذوات المكرمة واصحـاب المنزلة التي هي سبب القرب الىٰ الله وتكريم الداعي والمتوسل. فاي تعبير هواوضح من مايقول: «هذا والله الوسيلة الىٰ الله والمكان منه».

٢ــ كتب «القسطلاني أحمدبن محمدبن أبي بكر» المعاصر لـ «جلال السيوطي» المتوفي في عـام ٩٢٣ هـ، كـتـب في كتاب «المواهـب اللـدنيـة بـالمنح المحمدية في السيرة النبوية» ــطبعة مصر قائلاً:

«ان عمر لمّا استسقـىٰ بالعباس قال يا أيها الناس ان رسول الله(ص) كان يرىٰ للعباس ما يرىٰ الولد للوالد فاقتدوا به في عمّه واتخذوه وسيلة الىٰ الله تعالىٰ ففيه التصريح بالتوسّل وبهذا يبطل قول من منع التوسّل مطلقاً بالأحياء والأموات وقول من منع ذلك بغير النبي».[١٠٢]

٣ــ سأل منصور مفتي المدينة الكبير الإمام مالك:

«يا أبا عبدالله استقبل القبلة وادعو أم استقبل رسول الله(ص)»؟

أجاب مالك:

١٠١ــ «اسد الغابة» ج ٣ ص ١١١، طبعة مصر.

١٠٢ــ المواهب ج ٣ ص ٣٨٠ ط مصر، وفي «فتح الباري في شرح البخاري» ج ٢ ص ٤١٣ ط لبنان لابن حجر العسقلاني وشرح المواهب لمحمدبن عبدالباقي المالكي الزرقاني (١٠٥٥ــ ١١٢٢).

«لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة ابيك آدم(ع) الى الله يوم القيامة بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله قال الله تعالى (**ولو انّهم اذ ظلموا انفسهم**).[103]

٤ــ نقل «ابن حجر الهيثمي» في كتاب الصواعق المحرقة الذي انتقده القاضي نور الله في كتابه بعنوان «الصوارم المهرقة»، نقل البيتين التاليين عن الشافعي:

«آل النبي ذريعتي وهم اليه وسيلتي
ارجوهم أُعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي[104]

بالإستناد الى هذه الأدلة والكلمات يمكن الادعاء بان الأنبياء والشخصيات السامية هم احدى الوسائل التي يأمرهم القرآن الكريم بهذه الآية «**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة**»[105]

ان الوسيلة لا تقتصر على القيام بالفرائض والامتناع عن المحرّمات فقط، انما تشمل المستحبات التي من ضمنها التوسّل بالأنبياء أيضاً. وهل يمكن أن يقال بان كل هؤلاء العلماء قد أخطأوا في درك معنى «الوسيلة»؟ في حين انهم يعتبرون مصادر الحكم وحفّاظ الحديث ومن أشهر علماء الاسلام؟.

ان من لايعتبرون لهذه الأدلة والشواهد أهمية ويسعون من أجل تبريرها وتأويلها هم أشبه بمن يصدر الحكم قبل الاستعانة بالشهود.

٥ــ يروي البخاري في «صحيحه»:

«ان عمر بن الخطاب كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب (رض) وقال اللهم كنا نتوسّل اليك بنبينا فتسقينا وانّا نتوسّل اليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون»[106]

لقد اتفق الجميع على صحة الحديث هذا، حتى ان «الرفاعي» الذي يرد الأحاديث المتواترة باشكال مختلفة قد اعترف بصحة هذا الحديث بقوله:

«ان هذا الحديث[107] صحيح... فان صح هذا الجواز شرعاً فنحن من أسبق

١٠٣ــ «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ١٣٧٦.
١٠٤ــ «الصواعق المحرقة»، ص ١٧٨، ط القاهرة.
١٠٥ــ سورة المائدة / ٣٥.
١٠٦ــ «صحيح البخاري» باب صلاة الاستسقاء ج ٢ ص ٣٢ــ مطبعة محمدعلي صبيح.
١٠٧ــ كان من الأصح أن يقول «ان هذا التاريخ صحيح»، ذلك لأن المصطلح في الحديث هو كلام النبي(ص) وان حديثنا يدور حول الأحداث التاريخية، واحاديث التوسّل قد اشرنا اليها سابقاً.

الناس الىٰ الأخذ به والعمل بمقتضاه».

فيما ان العبارات المتعلقة بالتوسّل بالعباس، قد رويت عن الخليفة عمر نفسه خاصة وانه يقسم بالله «هذا والله الوسيلة الىٰ الله والمكان منه»[١٠٨]، يتبين لنا بان حقيقة التوسّل في هذا المجال هي التوسل بذات أو منزلة «العباس» عندالله تعالىٰ. بالاضافة الىٰ ذلك روىٰ «شمس الدين أبوعبدالله محمدبن النعمان المالكي» المتوفي في عام ٦٨٣ هـ. روىٰ في كتابه «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» كيف توسّل عمر بالعباس قائلاً:

«اللهم انا نستسقيك بعم نبيك (ص) ونستشفع اليك بشيبته؛ فسقوا. وفي ذلك يقول عباس بن عتبة بن أبي لهب:

بعمي سقىٰ الله الحجاز وأهله عشية يستسقىٰ بشيبة عمره[١٠٩]

وانشد «حسان بن ثابت» أيضاً: «فسقىٰ الغمام بغرة العباس».

يقول: «ابن حجر العسقلاني» في كتاب «فتح الباري في شرح حديث البخاري» ان العباس قال في دعائه:

«وقد توجّه القوم بي اليك لمكاني من نبيك»[١١٠]

كما تلاحظ عزيزي القارئ، ليس هناك أي شك في ان الهدف هو التوسّل بشأن ومنزلة العباس، ونعلم انهم قالوا في قديم الأيام بان:

«تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعليّة»

وان القرآن الكريم يقول:

«وعلىٰ المولود لَهُ رِزقهنّ»[١١١]

فهذا يعني انه طالما انجبت النساء مولوداً لازواجهن، فما عليهم الآضمان عيشهم، وهذا بيان علّة الحكم.

ولو قلنا: احترموا العالم، فان ذلك هو بسبب علم العالم.

وعلى هذا الاساس لو ان عمراً يقول: «انا نتوسّل اليك بعم نبيك» فهو يريد بذلك ان يبيّن سبب التوسّل بالعباس ولماذا توسّل به دون غيره من الناس. وكما يقول العباس نفسه: «لمكاني من نبيك».

١٠٨ــ «أسد الغابة»، ج ٣ ص ١١١.

١٠٩ــ «وفاء الوفاء» ج ٣ ص ٣٧٥، نقلاً عن «مصباح الظلام».

١١٠ــ «فتح الباري» ج ٢ ص ٤١٣، مطبعة دار المعرفة ــ لبنان.

١١١ــ سورة البقرة / ٢٣٣

فبالاستناد الىٰ مانقلناه يمكن القول بالتأكيد بان المسلمين في صدر الاسلام كانوا يتوسلون بالأشخاص المزكين والصالحين.

٦ــ شعر صفية في رثاء النبي(ص):

اَلقت «صفية بنت عبدالمطلب» عمّة النبي(ص) قصيدة في رثاء النبي(ص)، بعد وفاته، اليكم هذان البيتان منها:[١١٢]

«آلا يارسول الله أنت رجاؤنا وكنتَ بنا براً ولم تكُ جافياً
وكنتَ بنا براً رؤوفاً نبينا ليبكِ عليك القوم من كان باكياً»

نستنتج من هذه القصيدة التي اُلقيت أمام الصحابة، وسجّلها المؤرخون وكتّاب السِيَر نستنتج منها مايلي:

أولا: ان مخاطبة الأرواح أو بالأحرىٰ مخاطبة النبي(ص) بعد وفاته كانت جائزةً ومتبعةً، ولم تكن شركاً ولغواً كما تدّعي جماعة «الوهابية».

ثانياً: تدل جملة «أنت رجاؤنا» علىٰ ان النبي(ص) كان أمل المجتمع الاسلامي ولم تنقطع صلته بنا حتىٰ بعد وفاته.

* * *

وفي الختام نلفت الانتباه الىٰ ان القرآن الكريم يقول:

«يا أيُّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا اليه الوسيلةَ، وجاهِدوا في سبيلهِ لعلّكم تُفلِحونَ»
(المائدة / ٣٥)

تدعوهذه الآية بصورة عامة كي يحصل المؤمنون علي «وسيلة» ولكن ما هي هذه الوسيلة التي لم تذكرها الآية؟ مما لاشك فيه ان القيام بالفرائض الدينية هو وسيلة من وسائل الفلاح، ولكنها لا تتحدد به فقط. حيث ان تاريخ التوسل باولياء الله يبين بان هذا العمل هو أيضاً وسيلة من وسائل الفلاح، كما يتجلىٰ ذلك بوضوح في الحوار الذي جرىٰ بين الإمام مالك والمنصور، وكذلك في الرواية التي تضمنت طلب الخليفة الثاني المطر عن طريق التوسّل بعمّ الرسول (ص) وغيرهما مما سردناه.

١١٢ــ «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربىٰ» ص ٢٥٢، تأليف الحافظ محب الدين احمد بن عبدالله الطبري المتولد في عام ٦١٥ هـ والمتوفىٰ في عام ٦٩٤ هـ طبعة القدس، القاهرة. و «مجمع الزوايد» المجلد التاسع، ص ٣٦، الطبعة الثانية ــ تأليف الحافظ نورالدين علي بن أبي بكر الهيثمي. والجدير بالذكر ان الشطر الأول «أنت رجاؤنا» قد جاء في الكتاب المذكور بصيغة «كنت رجاؤنا».

الفصل السادس

هل تكريم ميلاد و وفاة أولياء الله بدعة؟

تعتبر جماعة «الوهابية» تكريم ميلاد و وفاة الأولياء والصالحين بدعة وحراماً وكأنهم بذلك يكنّون عداءاً شديداً لقادة الدين وأولياء الله..

فقد كتب «محمد حامد فقي» زعيم جماعة «أنصار السنة المحمدية» في تعليقه علىٰ كتاب «الفتح المجيد» قائلاً:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم[113]» فالسبب الوحيد الذي يجهله هؤلاء هو انهم لايضعون حداً للشرك والتوحيد ولمعنىٰ «العبادة» علىٰ وجه خاص. ولذلك تراهم يعتبرون كل تكريم عبادة. فبالنسبة للعبادة المذكورة نرىٰ ان المؤلف قد وضع كلمة «العبادة» في جانب «التعظيم» ظناً منه بان للكلمتين معنى واحداً. اننا سنناقش معنى «العبادة» المذكورة في فصل آخر، وسنبرهن بان كل تكريم وتعظيم لعباد الله لايعني العبادة لهم أبداً.

مما لاشك فيه ان القرآن الكريم يشيد بجماعة من الأنبياء والأولياء بجملات فصيحة وبليغة، فقد جاء في القرآن الكريم بالنسبة الى زكريا ويحيى و...

---

١١٣ ـ «الفتح المجيد» ص ١٥٤ في هذه الأيام التي انشغل فيها بتأليف هذا الكتاب؛ وفي الوقت الذي يحتفل المسلمون في كافة البلدان الاسلامية بمناسبة المولد النبوي الشريف، فقد أعلن «بن باز» مفتي السعودية منع الاحتفال بهذه المناسبة وتكريمها معتبراً ذلك بدعة وحراماً. ولكن هذا الرجل منح لقب «اميرالمؤمنين» لـ«سعود الفيصل» في زمان سلطته. وقد كان هذا التصرف على حد من الاشمئزاز حتى ان الملك نفسه اعتذر عن تقبّل هذا اللقب.

«إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ في الخَيْراتِ ويدعونَنا رغباً ورهباً وكانُوا لَنا خاشِعينَ» (الانبياء / ٩٠)

اذن لو أقام البعض مجالس تكريم لهؤلاء الأنبياء، و وصفوهم وفق ما جاء في هذه الآية وامثالها، الايعني هذا انهم عملوا بموجب ما جاء في القرآن الكريم ؟

يقول الله عز وجل في كتابه بشأن أهل البيت :

«ويُطعِمونَ الطعامَ علىٰ حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» (الدهر / ٨)

فعلى هذا الأساس لو اجتمع اتباع الامام علي (ع) في يوم ميلاده، وقالوا بان علياً هو ذلك الشخص الذي أعطى طعامه للمسكين واليتيم والأسير، فهل هذا يعني بانهم عبدوه ؟

لماذا يقال باننا ارتكبنا عملاً محرّماً لوقمنا بمناسبة عيد ميلاد الرسول (ص) بترجمة الآيات التي تصف النبي (ص) من اللغة العربية الى لغة أخرى، أو نظمناها على شكل قصائد والقيناها على المجتمعين في هذه المناسبة ؟

ان هٰؤلاء هم أعداء التكريم للنبي (ص) ولأولياء الله ممن يعيقون تكريمهم بحجة مكافحة البدعة. والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المجال والذي يؤكد عليه «الوهابيون» في أبواقهم الدعائية هو: هل ان هذه المجالس والمراسيم التي تقام باسم: «الدين» يجب ان يقرها الاسلام بشكل خاص او بشكل عام، ولولاه فانها تعتبر «بدعة» و «حراماً» ؟

الجواب علىٰ هذا السؤال واضح كل الوضوح، ذلك لأن هناك آيات من القرآن الكريم تدعونا الىٰ ضرورة «تكريم النبي (ص)»، وان هذه المجالس لا تقام الاّ «تكريماً» للأنبياء والأولياء، وان مايعتبر «بدعة» هو العمل الذي لم يقرّه القرآن والسنة سواء كان قد أقرّ بشكل «خاص» او بشكل «عام».

فالهدف من هذه المراسيم والاحتفالات التي تزاولها كافة الشعوب في العالم، ليس الاّ تكريماً وتقديراً لكبار شخصياتها. وان هذه الاحتفالات متداولة تماماً لدىٰ كافة الشعوب الاسلامية في العالم وتستثنىٰ منها جماعة «نجدية» معقدة فقط. فلوكان هذا العمل «بدعة» و «جديداً» من نوعه، ولو لم يكن منطبقاً علىٰ الموازين الاسلامية لما سمح علماء الاسلام في الأقطار الاسلامية باقامة الاحتفالات وقراءة المقالات والقاء القصائد الرنانة التي تمنح جوالاحتفال شموخاً كبيراً.

والآن نورد بعض الأدلة من القرآن الكريم حول تكريم الأنبياء والأولياء كالآتي :

الدليل الأول:

يشيد القرآن الكريم بجماعة كرمت النبي (ص) بقوله:

«فالّذينَ آمنوا به وعزّروهُ ونصروه واتّبعُوا النورَ الّذي أُنزلَ معهُ اولئك هُمُ المفلحونَ» (الاعراف/ ١٥٧)

ان الجُمل التي وردت في هذه الآية هي عبارة عن:

١ ــ آمنوا به. ٢ ــ عزّروه. ٣ ــ نصروه. ٤ ــ واتّبعوا النور..

هل يحتمل أحد ان تكون هذه الجمل خاصة بزمن النبي (ص)؟ طبعاً لا؛ وكما نعلم ان جملة عزّروه التي تعني التعظيم والتكريم[114] لاتخص زمن النبي (ص)، اذن يجب ان يكون النبي (ص) معظّماً ومكرّماً أبد الدهر.

من جهة أُخرىٰ أليست المراسيم والاحتفالات التي تُقام بمناسبة البعثة النبوية وعيد ميلاد الرسول، والتي تلقىٰ فيها الخطب والقصائد مصداقاً واضحاً لجملة «عزّروه»؟.

فيا للعجب، ان جماعة «الوهابية» تركع لزعمائها، وتكن احتراماً فائقاً للانسان العادي ولكنها تعتبر أي احترام بالنسبة للنبي (ص) وللمنبر وللمحراب بدعة ومعارضاً للاسلام وبالتالي تُظهر الاسلام امام الرأي العام العالمي ديناً جافاً يخلو من كل المشاعر والعواطف وتعرف شريعته التي تتماشىٰ بكل سهولة مع فطرة الانسان وعواطفه، بانها شريعة خامدة تتجاهل عواطف الانسان في تعظيم وتكريم كبار الشخصيات ولايمكنها كسب الأقوام والشعوب الأُخرىٰ في العالم.

* * *

الدليل الثاني:

ان جماعة «الوهابية» تعارض كل نوع من انواع العزاء والرثاء للشهداء الذين يضحون في سبيل الله. ولكن ماذا تقول بشأن ماحصل ليعقوب (ع)؟ وما هو رأيها لوكان النبي يعقوب اليوم حياً يعيش بين النجديين وأتباع ــ محمد بن عبدالوهاب ــ. ان يعقوب (ع) كان يذرف الدموع ليلاً ونهاراً علىٰ فراق ولده يوسف، وكان يستفسر عن ولده من كل من كان يراه، حتىٰ انه فقد بصره من شدة الحزن علىٰ ولده.[115]

ان مرض يعقوب وفقد ان بصره لم يؤدِ الىٰ نسيان ولده يوسف، بل بالعكس انه كان يزداد شوقاً ولهفة لفلذة كبده كلما كان موعد الوصال يقترب. ولذلك فقد كان يشم

---

١١٤ ــ يرجىٰ مراجعة مفردات الراغب، مادة عزّر.

١١٥ ــ وابيضت عيناه من الحزن، سورة يوسف / ٨٤.

ريح يوسف من مسافة بعيدة.[116] فلماذا يعتبر حب يعقوب لـ(يوسف) الذي كان حياً آنذاك عملاً صحيحاً لابل متفقاً مع اعتقاد من يؤمن بوحدانية الله، ولكن الرثاء له بعد وفاته الذي يؤلم القلوب أشد الألم، حراماً وشركاً؟

ولو قام الآباء في عصرنا هذا بجمع ابنائهم في كل عام لاقامة مراسيم خاصة بذكرىٰ وفاة الآخرين من ابنائهم، والقوا كلمات بهذه المناسبة يشيدون فيها بصفاتهم الخلقية الرفيعة، ويبكون عليهم قليلاً، فهل هذا يعني العبادة لأبنائهم؟[117]

الدليل الثالث:

مما لاشك فيه ان مودة ذوي القربىٰ هي احدىٰ الفرائض الدينية التي ينص عليها القرآن الكريم ويدعونا لأدائها، اذن لو أراد شخص ما أداء هذه الفريضة الدينية التي مضىٰ عليها أربعة عشر قرناً، فماذا يجب أن يفعل والحال هذه؟ آلا يسعد بسعادتهم ويحزن بأحزانهم؟.

من جهة أُخرىٰ لو أقام هذا الشخص مراسيم خاصة أشاد فيها بتاريخ حياة وتضحيات من ماتوا من اقربائه، اوانه اشار الىٰ انهم ظلموا وحرموا من حقوقهم المشروعة، فهل هذا يعني شيئاً آخر غيرالمودة لذوي القربىٰ؟ ولو انه تفقد عوائل الموتىٰ واقام هذه المراسيم عند قبورهم، الايعتقد العقلاء واصحاب البصيرة بان هذا دليل علىٰ المودة لذوي القربىٰ؟ فلا أحد غير «الوهابيين» سيقول والحال هذه: بانه لايجوز اظهار الحب والمودة بل يجب خنقها في الصدور أبداً.

كان عصر النبي (ص) ومابعده، عصر الثورة العقائدية والثقافية. حيث كانت الأقوام والشعوب المختلفة تؤدي الشهادتين وتعتنق الاسلام مع الاحتفاظ بثقافتها وعاداتها وتقاليدها. ولم يعمل النبي (ص) والقادة المسلمون من بعده على فرض الرقابة على عادات الشعوب وتقاليدها، وصهرها في بوتقة خاصة.

ان احترام كبار الشخصيات، اقامة المراسيم بذكرىٰ وفاتهم، الاجتماع عند قبورهم واظهار الحب والمودة لهم، كان ولايزال أمراً متداولاً لدىٰ كافة الأقوام والشعوب في العالم. وفي يومنا هذا فان الشعوب سواء الشرقية أو الغربية تقضي ساعات طويلة في

---

١١٦ ــ اني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون، سورة يوسف / ٩٤.

١١٧ ــ اضافة الىٰ ذلك، هناك روايات متواترة حول اقامة مراسيم العزاء للمظلومين من أهل البيت وقد ذكر المرحوم العلامة الأميني بعضاً منها في كتاب «سيرتنا وسنتنا» نقلاً عن كتب الاخوة السنة.

انتظار زيارة المحنطين من زعمائها، والوقوف عند قبورهم حباً واحتراماً لهم.

لقد كان النبي (ص) يكتفي باداء الشهادتين من الذين كانوا يعتنقون الدين الاسلامي ولم يَرأحد مرة بان النبي (ص) كان يدرس عادات وتقاليد الناس ويفرض الرقابة عليها قبل وبعد دخولهم الاسلام. فلوكانت هذه العادات والتقاليد حراماً وتعبّداً لكبار الشخصيات لاشترط على الأقوام والشعوب البيعة والبراءة من تلك العادات قبل دخولها الاسلام.

* * *

الدليل الرابع:

نحن نعلم بان النبي عيسى (ع) طلب من الله مائدة، واعتبر يوم نزولها عيداً حيث جاء في القرآن الكريم:

«ربّنا أنزل علينا مائِدةً منَ السماءِ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وانت خيرُ الرازقينَ» (المائدة / ١١٤)

نرى ان النبي عيسى عليه السلام اتخذ يوم نزول المائدة عيداً، تلك المائدة التي لم يكن لها شأن الاّ اشباع جوعهم؛ وهل ظهور النبي محمد الى مسرح الوجود اقل شأنا من المائدة النازلة الى حواريي المسيح؟.

فلو اعتبر ذلك اليوم عيداً لكونها آية الٰهية ومعجزة سماوية، أفليس نبي الاسلام اكبر آية الهية ومعجزة القرون والاعصار؟

هذا مع ما في وجود الرسول وحياته من فوائد عظمى وكثيرة تفوق فوائد المائدة النازلة بما لايحصى.

* * *

الدليل الخامس:

قال سبحانه:

«ورَفعْنا لكَ ذِكرَكَ» (الانشراح / ٣)

وبما ان القرآن وآياته اسوة للمسلمين، فالمسلمون لايعنون بالاحتفال بميلادالرسول واقامة الذكرى الاّ لرفع ذكراه، واعلاء منزلته ويعملون بنصوص القرآن ويرفعون شأنه اتباعا لفعله سبحانه في حق النبي، وليس لأحد ان يقول: ان رفع ذكراه مختص بالله سبحانه ولايعم غيره لان ذلك يشبه ان يقول ان نصر النبي مخصوص بالله سبحانه ولايجوز لاحد من المسلمين:

«وينصُركَ اللهُ نَصراً عَزيزاً» (الفتح / ٣)

وان شئت قلت: ان الهدف من هذه الآيات هو دعوة المسلمين الى رفع ذكره ونصره.

واظن «وظنّ الالمعي يقين» ان الهدف من منع اقامة تلك الاحتفالات الدينية ليس الاّ احياء المجالس الفاسدة التي يمدح فيها رجال العيث والفساد، ويختلط فيها الرجال بالنساء وتهتك الحرمات، وتدار فيها الكؤوس الى غير ذلك من انواع الفجور والفسوق الشائعة في تلكم المجالس.

والعجب من هؤلاء الوهابيين كيف يحرمون الاحتفال بالنبي وبيوم مولده المبارك ذلك النبي الذي اسدى الى البشرية عامة، اعظم الخدمات، ويعدّون الاحتفاء به والاحتفال به (صلى الله عليه وآله) شركاً في حياته او مماته وهم يحتفلون باشخاصهم وبرجال منهم قاموا ببعض الاعمال، وينفقون في هذا السبيل ملايين الريالات ويجلبون الزينة الغالية الثمن من هنا وهناك احتفاء بهم، وتقديرا لخدماتهم.

فهذا هو العدد (١٠٢) من مجلة الفيصل التي تصدر في طباعة انيقة جداً في السعودية تحتوي على تقرير مفصل عن الاحتفالات الكبرى والتي اقامتها السلطات السعودية بمناسبة عودة الامير سلطان من الرحلة الفضائية في مركبة ديسكفري، وقد طبع فيها صور مفصلة تنبيء عن حجم المبالغ الطائلة التي صرفت في تلك الاحتفالات، ونرى فيها كلمات الاحتفال والاحتفاء والمديح لهذا الأمير.

ترى هل يستحق أمير وهو لم يفعل شيئاً سوى انه رافق جماعة من الامريكان وغيرهم من الاجانب رجالاً ونساءً في رحلة فضائية اعدها وصنعها امريكيون، مثل هذا الاحتفاء والتكريم والتجليل والاحتفال وصرف الاموال الطائلة، وهدر طاقات الامة في ما لا طائل تحته، ولايستحق رسول الاسلام (صلى الله عليه وآله) الذي ضحى براحته وأمنه، واهل بيته، وخيرة اصحابه وانصاره وعشيرته في سبيل الاسلام، وفي سبيل هداية الامة من الضلالة، والضياع والفساد والانحراف.

ألا يستحق رسول الاسلام ان تخلد ذكرى مولده، وتعدد مناقبه وصفاته العظيمة، وتذكر فضائله، ومناقبه، وتبين للاجيال ما أسداهُ من خدمة، وما تحمل من عذاب وعناء في سبيل هداية البشرية.

وهل تكريم النبي، وذكر صفاته الاّ نشر للقيم الفاضلة والحث على الاقتداء به، والاخذ بهداه، والحفاظ على أعماله؟

وهل في مديحه الآتي بأس حتى يمنع منه ويعد شركاً وليس هذا المديح في حقيقته الاّ تعظيم لشعائر الله، وتعاليمه، وآدابه واخلاقه:

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجمِ
نبينا الآمر الناهي فلا احد في قول لا منه ولا نَعَمِ
دعا الى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل الله غير منفصمِ
فاق النبيين في خَلْقٍ وفي خُلُق ولم يدانوه في علم ولا كرمِ
وكلهم من رسول ملتمس غرفاً من البحر اورشفاً من الديمِ
ظلمت سنّة من احياه الظلام الى ان اشتكت قدماه الضرَّمن ورمِ
وشدّ من سَغب احشاءه وطوى تحت الحجارة كشحاً قرف الأدَمِ[١١٨]

ترى ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي مدحه الله في الكتاب العزيز ومدحه النبيون جميعاً واسدى الى البشرية كل تلكم الخدمات المعنوية والمادية لايجوز مديحه، ويجوز ذلك للامير خالد الفيصل في قصيدة مطبوعة في نفس العدد من المجلة اذ يقول الشاعر ــ بشعره لابشعوره متزلفاً الى البيت السعودي تحت عنوان «في احضان السراة»، مهدياً لصاحب السموالملكي الامير خالد الفيصل:

صاح!.. ما أروع الطبيعة جذلى
تتهادى في حُلّة من وقارِ
والطموح الوثاب في كل ساحٍ
يتحدى عواديَ الاكدارِ
ورياح التشييد تقتلع الشمّ
الرواسي مشبوبة الاوطارِ
أيقظتها من «خالد» جذوة العزم
فكانت موفورة الادرارِ

ترى، جذوة العزم من خالد ايقظت الطبيعة وهو في غاية الوصف والمديح والاطراء، ولم تيقظ ذكري رسول الله النفوس الغافية، ولا تنبه العقول النائمة الغافلة الى قيم السماء.

ما هذا التناقض بين القول والعمل الذي وقع ويقع فيه السعوديون دائماً، فهم من

---

١١٨ ــ قصيدة الردة للشيخ ابي عبدالله شرف الدين محمد بن سعيد المولود عام ٦٠٨ ــ والمتوفي عام ٦٩٤ في الاسكندرية.

ناحية يمنعون من اقامة الاحتفالات بمولد النبي بحجة انه لم يرد في الشرع ومن ناحية يقيمون الاحتفالات بل اعظمها لرجالا تهم السياسيين الذين تربوا في احضان الغرب واقتفوا آثرهم.

الفصل السابع:

التبرك بآثار النبي والاولياء

ان الوهابية تعتقد بأن التبرك بآثار النبي وتقبيل ضريحه وقبره وما يرتبط به اثم كبير بل بدعة وشرك ، ولاجل ذلك قاموا في وجه كل من اراد زيارة النبي، وتقبيل ضريحه ومنبره ومحرابه، وباب حجرته، بشدة وحماس، واراقوا في هذا السبيل دماء الابرياء في حرم النبي الاكرم، وبمرأى ومسمع من المسلمين وعلى ذلك فيجب علينا ان نعرض تلك المسألة على الكتاب والسنّة حتى يتجلى الحق بأظهر وأجلى مظاهره.

اما الكتاب فكفانا في ذلك قوله سبحانه : «**اِذهبُوا بقميصي هذا فألقوهُ علىٰ وجهِ أبي يأتِ بَصيراً.. فلمّا أن جاء البشيرُ ألقاهُ على وجهِه فارتدَّ بصيراً**» (يوسف / ٩٣ـــ ٩٦)

وهذه الآية بصريحها تدل على جواز التبرك بآثار النبي والاولياء فقد تبرك يعقوب بقميص ابنه فعاد بصيراً، لا اقول ان القميص المنسوج من القطن هوالذي اعاد الى الاب ـــ يعقوب بصره، وانما المؤثر في ذلك هوالنفس الزكية لولده يوسف الصديق باذنه سبحانه، غير أنه لما تبرك بقميصه صار ذلك وسيلة لحصول الارتباط بين الولد والوالد ولا اجر على ان المؤثر هو نفس يوسف باذن الله سبحانه فلقائل ان يقول: ان المؤثر في اعادة بصره هوالله سبحانه ولكن في ظروف وشروط خاصة وهو وضع القميص المذكور على عينيه، وعلى اي تقدير فقد تبرك النبي العظيم بقميص ولده، ولايقص عن ذلك تبرك المسلمين بخطوط ائمتهم ومنابرهم وآثارهم، واضرحتهم.

ومن العجب انني عندما كنت ازورقبر النبي من حيال وجهه فاردت القرب الى ضريحه من دون ان اقصد تقبيله لعرفاني بان المأمورين من ادارة الامر بالمعروف سيحولون بيني وبين ذلك ؛ ومع ذلك فقد اسمعني المأمور قوله، وقال: هذا الحديد لايفيد، فعند

ذلك قلت له ان قميص يوسف كان من القطن وقد نفع يعقوب فعاد اليه بصره فكيف يفيد قميص يوسف ولايفيد قبر النبي الاكرم وضريحه وترابه وما يرتبط به وسكت المأمور كأنه القم الحجر.

ان تقبيل الضريح والتبرك بالآثار يرجع في النتيجة لغاية الٰهية، فانهم لايكرمون النبي ولايعظمونه ولايعظمون آثاره الاّ لانه رسول الله ونبيه الذي قام بأعباء رسالته فترجع هذه التكريمات الى الله سبحانه.

وليس في ذلك اي مضادة لحصر العبادة في الله سبحانه فحب اولياء الله وحب آثارهم لله ليس الاّ تقرباً الى الله سبحانه وليست حقيقة التوحيد الاّ ان يكون كل شيء لله ومن اجله وفي سبيله، وعند ذلك يكون الله هو المبدأ كما يكون هوالمنتهى.

وان كنت في شك مما ذكرنا فلنضع أمامك نصوصاً من تاريخ الصحابة دالة على تقديسهم وتبركهم بالنبي وبآثاره، ولاجل الاختصار نكتفي من ذلك بالقليل من الكثير:

١ ــ هؤلاء هم الصحابة يتبركون بآثار الرسول في تحنيك الاطفال.

قال ابن حجر: كل مولود ولد في حياة النبي (ص) يحكم بانه رآه، وذلك لتوفر دواعي احضار الانصار واولادهم عند النبي (ص) للتحنيك والتبرك ، حتى قيل انه لما افتتحت مكة جعل اهل مكة يأتون اليه بصبيانهم ليمسح على رؤوسهم ويدعولهم بالبركة[١١٩].

وفي ذلك يقول مؤلف كتاب تبرك الصحابة: لاشك ان آثار رسول الله «صفوة خلق الله وافضل النبيين» اثبت وجوداً واشهر ذكراً واظهر بركة فهي اولى بذلك «التبرك» واحرى، وقد شهره الجم الغفير من الصحابة واجمعوا على التبرك بها، والاهتمام بجمعها وهم الهداة المهديون، والقدوة الصالحون، فتبركوا بشعراته وبفضل وضوئه، وبعرقه وبثيابه، وبمس جسده الشريف، وبغير ذلك مما عرف من آثاره الشريفة التي صحت بها الاخبار عن الاخيار[١٢٠].

ويكفي في ذلك ما ذكره مسلم في صحيحه: ان رسول الله (ص) كان يؤتي ابا الصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم[١٢١].

وقد كان الصحابة يتبركون بفضل وضوئه وغسله، فقد روى البخاري: خرج علينا رسول الله بالهاجرة، فأتى بوضوء فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه

---

١١٩ ــ الاصابة ج ٣ ص ٦٣١.

١٢٠ ــ تبرك الصحابة ص ٥.

١٢١ ــ صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٩١.

ويتمسحون به[122].

وقد ورد في ذلك روايات ملأت الصحاح والمسانيد بل كان الصحابة يتبركون بشعره ويقسمونه؛ روى انس ان رسول الله لما حلق رأسه كان ابو طلحة اول من أخذ شعره[123].

كما روى ايضاً ان رسول الله اتى منىٰ فأتى الجمرة فرماها ثم اتى منزله بمنىٰ ثم قال: للحلاق خذ وأشار الى جانبه الايمن ثم الايسر، ثم جعل يعطيه الناس[124].

بل كانوا يتبركون بقدحه: قال ابو برده قال لي عبدالله بن سلام: ألا اسقيك في قدح شرب النبي فيه[125].

كما كانوا يتبركون بموضع فمه، وآثار اصابعه من الطعام؛ روى انس قال حدثتني أمي ان رسول الله دخل عليها وفي بيتها قربة معلقة، قالت فشرب من القربة قائماً، قالت: فعمدت الى فم القربة فقطعتها[126].

كما كانوا يتبركون بمنبره، فعن ابراهيم بن عبدالرحمان بن عبدالقارئ انه نظر الى ابن عمر وضع يده على مقعد النبي من المنبر، ثم وضعها على وجهه[127].

كما كانوا يستشفعون بقبره: روي عن علي ان أعرابياً قدم علينا بعدما دفنّا رسول الله بثلاثة ايام فرمى بنفسه على قبر النبي، وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله، قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله سبحانه فوعينا عنك ، وكان في ما أنزل الله عليك : «**ولو أنّهم إذْ ظَلَمُوا أنفسهم جاؤُوك ..**» وقد ظلمت وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر قد غفرلك »[128].

وبالجملة من سبر السنن والمسانيد والسير والتواريخ يرى بوضوح تبرك الصحابة، والتابعين بكل ما يرتبط بالنبي والاستشفاء بقبره، ووضع الخد عليه، والبكاء عنده بل التبرك بعصاه وملابسه، والصلاة في الاماكن التي صلّى فيها النبي او مشى فيها على حديستحيل عند العقل ان تكون الروايات موضوعة ومجعولة؛ كيف وقدرواها الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما من اعلام الحديث، وقدقام بجمع هذه الروايات وتوضيحها مع

---

١٢٢ ــ صحيح البخاري ج ١ ص ٥٩، وفتح الباري ج ١ ص ٢٥٦.

١٢٣ ــ صحيح البخاري ج ١ ص ٥٤.

١٢٤ ــ صحيح مسلم ج ٣ ص ٩٤٧.

١٢٥ ــ صحيح البخاري ج ٧ ص ١٤٧، وفتح الباري ج ١٠ ص ٨٥.

١٢٦ ــ مسند احمد ج ٦ ص ٣٧٦.

١٢٧ ــ الطبقات الكبرى ج ١ القسم الثاني ص ١٣.

١٢٨ ــ كنز العمال ج ٢ ص ٢٤٨.

ذكر مصادرها الفاضلان المحققان: الاستاذ الشيخ محمد طاهر مكي في كتابه: «تبرك الصحابة بآثار رسول الله»، وقد طبع الكتاب عام ١٣٨٥هـ والاستاذ الفذ الشيخ علي الاحمدي في كتابه القيّم «التبرك» وقد طبع الاخير في بيروت، وهو كتاب استقصى فيه المؤلف كل ما ورد حول التبرك، والكتاب ينوف على ٤٠٠ صفحة وهو من حسنات العصير.

فماذا يقول الوهابيون في قبال هذه الاحاديث المتواترة لفظاً ومعنى، وماهو موقفهم من هذه الحقيقة الساطعة من تصاريح هذه الروايات التي رواها ونقلها اعلام الامة في الحديث، وما هي هذه الضجة العمياء التي أثارها الوهابيون، حول التبرك بضريح رسول الله وخاتم النبيين، وأفضل الخلق أجمعين والذي جرت عليه سيرة السلف من فضلاء الصحابة والتابعين دون ان يلقوا اي استنكار أو استقباح او تحريم او منع من النبي (ص) أو من حوله، من اصحابه.

ألا يجدر بالوهابيين ــ هذا اليوم ــ ان يتأمّلوا في هذين الكتابين ويتمعنوا في هذه الروايات الصريحة في جواز التبرك بآثار النبي (ص)، ومن ذلك ضريحه الشريف وقبره المبارك ويتركوا موقفهم المعادي، ويرفعوا أيدي جلاوزتهم الموكلين بالضريح النبوي المبارك عن ضرب الزائرين والوافدين الى حرم النبي ومرقده الشريف والحاق الاهانة والاذى بهم، اولئك الذين لايقصدون من تقبيل الضريح النبوي الطاهر وتكريمه والتبرك به الاّ لمنزلته عندالله، وحسن بلائه، وعظيم جهوده في سبيل اقرار شريعة الله، فهم كمن يقول الشاعر:

أمــرُّ على الــديــار ديــار لـيلى   أُقـبـل ذا الجــدار ولا الجـدارا

اننا نتوقع من دار الافتاء في مكة والمدينة ومن المقيمين بالشؤون الدينية في تلك الديار المقدسة ان يطالعوا هذين الكتابين ويتأمّلوا في الروايات المتضافرة المتواترة التي جاءت فيها مسندة، موثقة، حول التبرك، ويعلموا العالم الاسلامي بما يمكن ان يكون لديهم من جواب، خدمة للاسلام والامة الاسلامية، أفلا يعلمون ان النهي عن التبرك بالضريح النبوي الطاهر وآثار رسول الله (ص) كان من دأب الامويين لاسيما مروان اخفاءً.

فقد روى الحاكم في المستدرك عن داودبن ابي صالح قال: أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً، واضعاً وجهه على القبر، فأخذ مروان برقبته ثم قال: هل تدري ما تصنع، فأقبل عليه فاذن ابوايوب الانصاري، فقال: نعم اني لم آتِ الحجر انما جئت رسول الله، ولم آتِ الحجر؛ سمعت رسول الله يقول لا تبكوا على الدين اذا وليه اهله، ولكن ابكوا على الدين اذا وليه غير اهله».

قال الاميني: ان هذا الحديث يعطينا خبراً بان المنع عن التوسل بالقبور الطاهرة انما هو من بدع الامويين وضلالاتهم منذ عهد الصحابة، ولم تسمع اذن الدنيا قط صحابياً ينكر ذلك غير وليد بيت امية مروان الغاشم؛ نعم الثور يحمي أنفه بروقه، نعم بعلة الورشان يأكل رطب الوشان، نعم لبني امية عامةً ولمروان خاصة ضغينة على رسول الله صلى الله عليه وآله منذ يوم لم يبق صلى الله عليه وآله في الاسرة الاموية حرمة الاّ هتكها ولا ناموساً الاّ فرقه، ولاركناً الاّ اباده وذلك بوقيعته صلى الله عليه وآله فيهم وهو لاينطق عن الهوى ان هو الاّ وحي يوحى علّمه شديد القوى، فقد صح عنه صلى الله عليه وآله قوله: اذا **بلغت بنو أمية اربعين اتّخذوا عباد الله خولاً، ومال الله نحلاً، وكتاب الله دغلا**[129]

اوليس البخاري اصح كتاب عند اهل السنة بعد كتاب الله سبحانه ويقول القائل في حقه:

فما من صحيح كالبخاري جامعاً ولا مسند يلفى كمسند أحمدِ

فهذا هو الشيخ البخاري عقد في صحيحه باباً أسماه باب ما ذكر من درع النبي (صلى الله عليه وسلم) وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآنيته مما يتبرك اصحابه وغيرهم بعد وفاته.[130]

فاذا وقف الوهابي على هذه الاحاديث والنصوص الهائلة البالغة على المئات، تخلص عنها باختصاصها على حياة النبي وكأن الشرك يدور مدار حياة المتبرك بآثاره وموته.

على أن البخاري ينص ــ باستمرار التبرك بآثار النبي حتى بعد آثار النبي حيث يقول «بعد وفاته».

روى الشيخ البخاري ايضاً عن الحكم قال: سمعت اباجحيفة قال خرج رسول الله بالهاجرة الى البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين، و بيده عنزة. وزاد فيه (عون) عن ابيه عن ابي جحيفة قال: كان يمرمن ورائها المرأة وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم، قال فأخذت بيده فوضعتها على وجهي فاذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك[131].

---

١٢٩ ــ الغدير ج ٥ ص ١٢٩ ــ ١٣٠.

١٣٠ ــ صحيح البخاري، الجزء الرابع المطبوع سنة ١٣١٤ هجرية ص ٨٢.

١٣١ ــ صحيح البخاري الجزء الرابع باب صفة النبي ص ١٨٨.

الفصل الثامن:

النذر لأهل القبور

ان ابن تيمية ومن تبعه يرون النذر لأهل القبور أمراً حراماً وفي ذلك يقول : من نذر شيئاً لنبي من النبيين والاولياء من اهل القبور، او ذبح له ذبيحة كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم، و ينذرون لها فهو عابد لغيرالله، فيكون بذلك كافراً.

غير ان المحققين من الجهابذة قدر فعوا السترعن مغلطته فقال الخالدي في كتابه القيّم «صلح الاخوان» ص ١٠٢-١٠٩ :

ان المسألة تدور مدار نيات الناذرين، وانما الاعمال بالنيات فان كان قصد الناذر، الميت نفسه والتقرب اليه بذلك لم يجز قولاً واحداً، وان كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الاحياء بوجه من الوجوه به وثوابه لذلك المنذور له سواء عين وجهاً من وجوه الانتفاع او اطلق القول فيه و يكون هناك ما يطّرد الصرف فيه في عرف الناس من مصالح القبر او اهل بلده او مجاوريه او الفقراء عامة أو اقرباء الميت او نحو ذلك ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالنذور.

ثم نقل ما ذكره عن كثير من علماء عصره ومن قار به وقال العزامي في «فرقان القرآن» ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين وجدهم لايقصدون بذبائحهم ونذورهم للميتين من الانبياء والاولياء الآ الصدقة عنهم وجعل ثوابها اليهم وقد علموا ان اجماع اهل السنة منعقد على أن صدقة الاحياء نافعة للاموات، واصلة اليهم، والاحاديث في ذلك صحيحة مشهورة.

فمنها ماصح عن سعد انه سأل النبي (ص) قال : يا نبي الله ان امي قد افتلتت واعلم أنها لوعاشت لتصدقت، أفان تصدقت عنها اينفعها ذلك ؟ قال : نعم، فسأل النبي:

اي الصدقة انفع يا رسول الله؟ قال: الماء، فحفر بئراً وقال: هذه لأُم سعد.[132]

وقد تصور ابن عبدالوهاب انه اذا قال المسلم ان هذه الصدقة للنبي او للولي فاللام بنفسها هي اللَام الموجودة في قولنا: نذرت لله، وغفل عن ان اللام هنا غيراللام هناك ففي ما اذا قال: نذرت لله يراد منها الغاية فالعمل لله سبحانه، وفي ما اذا قال: للنبي يريد بها الجهة التي يصرف فيهاالصدقة من مصالح النبي في حياته ومماته.

وفي هذا الصدد يقول العزامي بعد نقل قصة سعد: اللام في: «هذه لأُم سعد» هي اللام الداخلة على الجهة التي وجهت اليها الصدقة، لاعلى المعبود المتقرب اليه، وهي كذلك في كلام المسلمين، فهم سعديون لاوثنيون وهي كاللام في قوله انما الصدقات للفقراء لا كاللام التي في قول القائل: صلّيتُ لله، ونذرتُ لله، فاذا ذبح للنبي او الولي، او نذر الشيء له فهو لايقصد الاّ اَن يتصدق بذلك عنه، ويجعل ثوابه اليه فيكون من هدايا الاحياء للاموات المشروعة المثاب على اهدائها، والمسألة مبسوطة في كتب الفقه وفي كتب الرد على الرجل ومن شايعه[133].

فبذلك ظهر جواز النذر للانبياء والاولياء من دون ان يكون فيه شائبة شرك، فيثاب به الناذر اِن كان لله، وذبح المنذور باِسم الله، فقول القائل ذبحت لميتي لايريد انه ذبحه للنبي بل يريد ان الثواب له كقول القائل: ذبحت للضعيف بمعنى انه السبب في حصول الذبح.

و يوضح ذلك ماروي عن ثابت بن الضحّاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ان ينحر ابلاً ببوانة، فأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبره فقال (ص): هل كان فيها وثن يعبد من اوثان الجاهلية، قالوا: لا، قال: فهل كان فيها عيد من اعيادهم؟ قالوا: لا. قال رسول الله (ص): اوفِ بنذرك فانه لاوفاء لنذر في معصية الله، ولا في مالا يملك ابن آدم.[134]

وفي هذا المضمون رواية اخرى؛ لاحظ سنن ابي داود.

وفي الختام نأتي بكلمة الخالدي في «صلح الاخوان» ص ١٠٩ فانه بعد ماذكر حديث ابي داود قال:

واما استدلال الخوارج بهذا الحديث على عدم جواز النذر في اماكن الانبياء والصالحين زاعمين ان الانبياء والصالحين آوثان ـــ والعياذ بالله ـــ واعياد من اعياد الجاهلية فهو من ضلالهم وخرافاتهم وتجاسرهم على انبياء الله واوليائه حتى سموهم اوثاناً؛ وهنا

---

١٣٢ و١٣٣ ـــ المصدر ص ١٣٣.

١٣٤ ـــ سنن ابي داود ج ٢ ص ١٨٠.

غـايـة التحقير لهم خصوصاً الانبياء، فان من انتقصهم ولو بالكناية يُكفَّر ولا تقبل توبته في بـعـض الاقـوال، وهـؤلاء المخـذلـون بجـهـلـهـم يسمون التوسل بهم عبادة و يسمونهم اوثاناً، فلاعبرة بجهالة هؤلاء وضلالاتهم والله أعلم.

* * *

الفصل التاسع:

التوحيد في العبادة أو (حجة الوهابيين):

كانت عبادة الله وحده لاعبادة غيره منفرداً اومشتركاً .. اساس دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ان عبادة الله وحده، ومنع عبادة من سواه يشكل اساس الأحكام السماو ية و يقع في مقدمة رسالة أنبياء الله، وكأن الهدف الذي بعثوا من أجله هو الدعوة الىٰ عبادته وحده، ومكافحة الشرك في عبادته.

يشير القرآن الكريم الىٰ هذه الحقيقة بوضوح بقوله تعالىٰ:

١ــ **«ولقد بعثنا في كُلّ أمةٍ رَسولاً اَنِ اعبدُوا اللهَ واجتَنِبوُا الطاغوتَ»**. (النحل / ٣٦)

٢ــ **«وما أرسلنا من قبلِكَ من رسولٍ اِلاّ نوحي اِليهِ اَنّهُ لا اِلٰهَ اِلاّ أناَ فاعبُدونِ»**. (الأنبياء / ٢٥)

ولقد جعل القرآن الكريم عبادة الله وحده أساساً مشتركاً بين كافة الشرائع السماو ية حيث يقول: **«قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا الىٰ كلمةٍ سَواءٍ بيَننا وبينَكُم، ألاّ نعبدَ الاّ الله ولانُشرِكَ بِهِ شَيْئاً»** (آل عمران / ٦٤)

إن التوحيد في العبادة هو أصل ثابت لدىٰ المسلمين كافة، ولايعارضه أحد ولا تختلف فيه أية فرقة من الفرق الاسلامية؛ فلوكانت للمعتزلة وجهة نظر مختلفة حول «توحيد الأفعال» ولو كانت لجماعة (الأشاعرة) وجهة نظر خاصة حول «توحيد الصفات»، إلاّ ان كافة الفرق الاسلامية تتفق حول هذا الأصل، ولايمكن لأحد من المسلمين أن ينكره. ولوكان هناك اختلاف فان ذلك يرتبط بالمصاديق، أي إن بعض

المسلمين يعتبرون بعض الأعمال عبادة، في حين يعتبرها البعض الآخر تكريماً وتعظيماً. بعبارة أُخرىٰ إن كافة هذه المنازعات تدخل ضمن اطار المنازعات في «الصغرىٰ» ولا تدخل ضمن اطار المنازعات في «الكبرىٰ» ومن هذا المنطلق يجب أن نوضح معنىٰ «العبادة» لغوياً وعلىٰ ضوء آيات القرآن أيضاً. فمن وراء ذلك ستتوضح لدينا الحالات والمصاديق تلقائياً.

بعبارة أدق، إن التوحيد في العبادة لايخص جماعة خاصة دون غيرها، بل إن كافة الموحدين وخاصة المسلمين يتفقون معاً بهذا الصدد. واما الشيء الذي يدور النقاش حوله هو سلسلة اعمال يعتبرها البعض عبادة، ولكن البعض الآخر لايعتبرها عبادة. ولابد هنا ان نخصص حديثنا حول هذا الموضوع كما يلي:

تحديد معنىٰ العبادة والتعريف الكامل لها:

إن للعبادة معنىً ومفهوماً واضحاً في اللغة العربية ولولم نتمكن من تعريفها تعريفاً منطقياً بجملة واحدة. وهذه كالارض والسماء اللتين لهما معنيان كاملان و واضحان على الرغم من ان الكثير منّا لايستطيعون تعريف هاتين الكلمتين واعطاء معنىٰ واضح لهما إلاّ ان ذلك لايمنعنا من تجسم معنى الأرض أو السماء في اذهاننا عند سماع لفظيهما. إن المعنىٰ الحقيقي للعبادة هو معروف ومفهوم لنا كمعنىٰ الأرض والسماء علىٰ الرغم من اننا لانستطيع ان نضع ادراكنا منها في قالب تعريف منطقي لها. كما ان مصاديق هذه الألفاظ التالية معروفة لدينا أُسوة بالمصاديق الحقيقة لـ«العبادة» و «التعظيم» و «الاحترام» و «التكريم»، وان فصل الواحد منها عن الآخر سهل و يسير بالنسبة لنا.

ان العاشق الولهان الذي يقبّل جدران بيت عشيقته أو يمسح قميصها على صدره أو يقبّل قبرها وتربتها بعد وفاتها، لايعتبر عمله هذا تعبداً عند أي شعب من الشعوب؛ كما ان عمل اولئك الذين يخرجون من أجل مشاهدة الأجسام المحنّطة لكبار الزعماء في العالم أو من أجل مشاهدة آثارهم ومنازلهم، و يقفون عدة دقائق حداداً على ارواحهم لايعتبر عبادة. ولو كان خشوعهم وحبهم لهم على مستوى خشوع عبادالله لربهم، فان الضمائر الحية هي التي تستطيع ان تحكم في هذه الحالة وتفصل «الإحترام» و «التعظيم» عن «العبادة».

لو تقرّر ان نعرّف كلمة العبادة منطقياً، فبا لإمكان تعريفها بالأشكال الثلاثة الواردة ادناه.

التعريف الأول:

ان العبادة هي خضوع عملي ولفظي ينبع من اعتقاد الانسان بـ«الالوهية».

ولكن ما هو معنى «الالوهية»؟ ان الالوهية مشتقة من الاله، والاله، هو «الله» منكراً. فلو فسّرت كلمة «الإله» بالمعبود أحياناً فان هذا التفسير هو تفسير باللازم. وهذا لايعني بان المعبود هو المعنى الحقيقي للاله. ولكن لكون ان الاله الحقيقي والآلهة الخيالية كانت معبودة في السابق، لذلك يعتقد بان الاله يعني المعبود.

ان الدليل البيّن على ان كلمة «الاله» تعني ما يفيده لفظ «الله» على وجه الجنس ولا تعني المعبود هو كلمة الاخلاص اي لا اله الاّ الله. فان كانت كلمة «الاله» تعني المعبود في هذه الجملة، والاّ يلزم ان تكون كذباً، ذلك لأن البديهي هو وجود آلاف المعبودين غير «الله» تعالى. والدليل الواضح على صحة هذا التعريف يكمن في الآيات التي وردت في هذا المجال. فمن خلال دراسة هذه الآيات يتوضح لدينا بان العبادة هي نوع من الأقوال والأفعال التي تنبع من الاعتقاد بـ«الإلوهية»[١٣٥]. ولايتم الخضوع والتعظيم والتكريم أو العبادة لكائن ما الاّ بوجود، هذا الاعتقاد في حقّه. فعند ما يأمر القرآن بعبادة الله يستدل فوراً بانه لا اله غيره حيث يقول «**يا قومِ اعبدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ اِلهٍ غيرهُ**». (الأعراف / ٥٩).

لقد ورد مضمون هذه الآية في القرآن الكريم تسع مرات أو اكثر، ويمكن لقرائنا الاعزاء ان يراجعلوا الآيات ٦٥، ٧٣، ٨٥ من سورة الأعراف، والآيات ٥٠ و ٦١ و٨٤ من سورة هود، والآية ٢٥ من سورة الأنبياء وكذلك الآيات ٢٣ و٣٢ من سورة المؤمنون، بالاضافة الى الآية ١٤ من سورة طه.

تدل هذه العبارات على ان العبادة هي خضوع وتذلل ينبع من الاعتقاد بـ«الالوهية» ولولا هذا الاعتقاد فلايسمى ذلك عبادة.

هناك آيات أُخرى تحوي نفس المضمون ومنها «**اِنّهُم كانُوا اِذا قِيلَ لَهُمْ لا اِلهَ اِلاّ الله يَستكبِرُونَ**» (الصافات / ٣٥)

«**اَمْ لَهُمْ اِلهٌ غيرالله سبحانَ اللهِ عمّا يُشرِكونَ**» (الطور / ٤٣)

«**اَلّذينَ يَجْعَلُونَ مع الله اِلهاً آخرَ فسوفَ يَعلَمونَ**» (الحجر / ٩٦)

«**والّذينَ لايدعُونَ مع الله اِلهاً آخرَ**» (الفرقان / ٦٨)

---

١٣٥ ــ ان جعل الأصنام آلهة لايعني بانه يجب ان تكون هذه الآلهة خالقاً، مديراً ومدبراً لشؤون العالم والانسان، انما للاله معنى اكثر شمولاً بحيث انه يشتمل على الآلهة الحقيقية والمصطنعة أيضاً. فكلما اعتبرنا كائناً ما مصدراً للأعمال الإلهية وتصورنا بان بعض اعمال الله كالشفاعة والمغفرة قد أُسندت اليه وانها ما لكتها، فنكون بذلك قد تصورناه اِلهاً، ولكنه بالطبع يعتبر اِلهاً صغيراً بالنسبة للاله الكبير!

والآيـات الـتـالـيـة هي دليل علىٰ ان دعوة المشركين كانت تأتي بموازاة الإعتقاد بالوهية اصنامهم:

«**واتّخذُوا من دونِ اللهِ آلهةً ليكونُوا لَهمْ عِزاً**»(مريم / ٨١)

«**أئنَّكُمْ لتشهدُونَ انّ مع اللّهِ آلهةً أُخرىٰ**» (الأنعام / ١٩)

«**واذْ قالَ اِبراهيمُ لأبيهِ آزرَ أتتخذ أصناماً آلهةً**» (الأنعام / ٧٤)

لـو دقـقـنـا في الآيات التي تـبـحـث في مسألة شرك عبدة الاصنام لتكشفت لنا حـقـيـقة وهي، ان شرك هؤلاء جاء من جرّاء اعتقادهم بالوهية معبوديهم، وكذلك لأنهم كـانـوا يـعـتـبـرون أصـنامهم أشباه الالٰه، وقد فوّض الالٰه الأكبر اليهم بعض صلاحياته بالرغم من انهم كانوا مخلوقين، ولذلك كانوا يعتقدون بوجوب عبادتهم.

«**ذٰلِكُمْ بِأنّـهُ اِذا دعـى الله وحـدَهُ كـفـرتُـمْ وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العليّ الكبير**» (الغافر / ١٢)

يعرّف المرحوم آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي في تفسيره القيّم «آلاء الرحمان» يعرّف العبادة كالآتي:

«العبادة ما يرونه مستشعراً بالخضوع لمن يتخذه الخاضع الٰهاً ليوفيه بذلك ما يراه له من حق الامتياز بالإلٰهية». [١٣٦]

ان المـرحـوم الـبـلاغـي قـد صبّ تـعـريـفـه للعبادة في قالب اللفظ، وان الآيات المذكورة تؤيد صحة هذا التعريف كاملاً. ولقد أبدىٰ الاستاذ الكبير آية الله الخميني نفس الرأي في كتابه القيّم «كشف الأسرار» بقوله:

«ان العبادة في العربية والفارسية، هي عبارة عن الثناء لشخص يعتبر إلٰهاً، سواء أُعتبر الٰهاً كبيراً أو الٰهاً صغيراً». [١٣٧]

ان الآيات الخاصة بمكافحة الشرك هي أوضح دليل علىٰ صحة هذا الرأي، ذلك لأن كـافـة الفرق المشركة كانت تعتبر الكائنات التي تخضع لها وتثني عليها «الهاً» (سواء كان الإلٰه كبيراً أو صغيراً، حقيقياً أو مجازياً).

* * *

التعريف الثـاني:

ان الـعـبـادة هـي كالخضوع لمن يعتبر «رباً» ومن هذا المنطلق يمكننا ان نصف

---

١٣٦ ـــ آلاء الرحمان ص ٥٧ طبعة صيدا.

١٣٧ ـــ كشف الأسرار ص ٢٩.

استنتاجنا من كلمة «العبادة» في قالب آخر ونقول: ان العبادة هي عبارة عن الخضوع اللفظي والعملي لمن نعتقد بـ«ربوبيته». فكلما اعتبر الانسان نفسه عبداً بالنسبة لمن يعتبره رباً، سواء كان ذلك رباً او لم يكن، وخضع له وفقاً لتصوره هذا، فان عمله والحال هذه يسمى العبادة.

ان الآيات الواردة ادناه تدلنا علىٰ ان العبادة هي من شؤون الربوبية:

«وقالَ المسيحُ يا بَني اسرائيلَ اعبدُوا اللهَ رَبّي وربَّكُم» (المائدة / ٧٢)

«إنّ اللهَ رَبّي وربُّكم فاعبدُوه هذا صراطٌ مُستقيم» (آل عمران / ٥١)

بالاضافة الى هاتين الآيتين، هناك آيات أُخرىٰ تحوي نفس المضمون. ولكن هناك آيات تعتبر العبادة من شؤون الخالق، كما جاء في قوله تعالى:

«ذٰلِكُمُ اللهُ رُبّكُم لا اِلٰه اِلاّ هُو خالقُ كلّ شيءٍ فاعبُدُوه» (الأنعام / ١٠٢)

ماذا تعني كلمة «رب»؟:

تطلق كلمة «رب» في اللغة العربية علىٰ من تُسند اليه مهمة تدبير وادارة شؤون شيء ما، ومن يمتلك مصير ذلك الشيء في يده. فلو اطلقت هذه الكلمة علىٰ صاحب الدار أو مرضعة الطفل، أو فلاّح المزرعة، فانها تعني بان لصحاب الدار صلاحية داره، وللمرضعة صلاحية الطفل، وللفلاّح صلاحية ادارة مزرعته. ولو اننا نعتبر الله «ربنا» فهو بدليل ان مصير كافة شؤوننا كالحياة والممات، الرزق، التقنين والتشريع، المغفرة والعفو هو بيدالله تعالىٰ. وبذلك لو تصور البعض بان احد هذه الشؤون أو كلها قد أناطها الله لشخص ما، فاننا نعتبر ذلك الشخص «رباً» لنا. ولو آمنّا بذلك وخضعنا لذلك الشخص فنكون بذلك قد عبدناه.

بعبارة أُخرىٰ؛ ان العبادة تنبع من الشعور بالعبودية، وفي الحقيقة ان العبودية ليست الاّ ان يعتبر الانسان نفسه مملوكاً والأعلىٰ منه مالكاً للكون، الموت والحياة، والرزق أو علىٰ الأقل مالكاً لصلاحية المغفرة[١٣٨] والشفاعة[١٣٩] وسن القوانين والواجبات،[١٤٠] لكي يكون بذلك قد جعل المالك هذا رباً له. وكل من يجسد هذا الشعور و يصبه في قالب الكلام أو العمل، فلاشك انه عبدٌ للمالك الذي هوربه.

* * *

---

١٣٨ ــ «ومن يغفر الذنوب الاّ الله» (آل عمران / ١٣٥).

١٣٩ ــ «قل لله الشفاعة جميعاً» (الزمر / ٤٤)

١٤٠ ــ «اتّخذوا أحبارَهُم ورُهبانهم أرباباً من دون الله» (التوبة / ٣١)

التعريف الثالث للعبادة:

«العبادة خضوع أمام من نعتبره الٰهاً أو مصدراً للاعمال الالٰهية».

مما لاشك فيه ان الأعمال المتعلقة بالكون وعالم الخلق كتدبير شؤون العالم، الاحياء والاماتة، ارزاق الأحياء، وكذلك المغفرة لذنوب العباد هي من صلاحية الله تعالىٰ. فلو تمحصت في الآيات الخاصة بما ورد أعلاه، ستعلم بان القرآن الكريم يؤكد علىٰ ان هذه الأعمال هي من صلاحيات الله تعالىٰ، ويحول بشدة دون انتسابها الىٰ احد سواه.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ نحن نعلم ان عالم الخلق هو عالم منظم، ولا يحصل فيه اي عمل الاّ لأسباب عديدة تعود كلها الىٰ الله تعالىٰ. فمن قوله تعالىٰ:

«وهُوَ الّذي يُحيي ويُميتُ ولَهُ اختلاف اللّيل والنهار» (المؤمنون / ٨٠)

ولكن هناك آيات أخرى تعتبر الملائكة سبباً و وسيلة للامانة كقوله عزّوجلّ:

«حتىٰ اذا جاءَ أَحدكُمُ الموت توفّتهُ رُسُلنا» (الأنعام / ٦١)

فعلىٰ هذا الأساس يمكننا القول بان الفاعل والمسبب لهذه العلل والعوامل الطبيعية مادية كانت أم معنوية كالملائكة مثلاً، لايمكنه ان يكون فاعلها ومسببها الاّ باذن الله جلّ جلاله. وهذا من اسمىٰ المفاهيم القرآنية التي يمكن استنباطها من الآيات العديدة التي تخص اعمال الله تعالىٰ. ومن هذا المنطلق لو اعتقد الانسان بان الله قد فوّض صلاحية هذه الأعمال الىٰ خير العباد من الملائكة والأولياء، ودفعه اعتقاده هذا كي يخضع لهم، فان خضوعة هذا ليس الاّ عبادة، وعمله الاّ شركاً في العبادة.

بعبارة أخرىٰ: لو أُعتقد بان الله فوّض تنفيذ صلاحية هذه الأعمال للملائكة والأولياء وان هؤلاء ينفذون اعمالهم بدون اذن الله، فيكون بذلك قد جعل لله «مثلاً» و «نداً» ولاشك ان هذا النوع من الاعتقاد هو الشرك بذاته، وان الطلب والخضوع بناءاً لهذا الاعتقاد هو عبادة، كما جاء في القرآن الكريم:

«وَمِنَ النّاسِ مَنْ يتّخذ من دونِ اللهِ أَنداداً يُحبونَهُمْ كحُبِّ اللهِ» (البقرة / ١٦٥)

لايستطيع اي كائن ان يكون «نداً» في اطار مخيلته الاّ اذا كان ذو صلاحية تامة ومستقلاً في تنفيذ بعض الأعمال. ولكن لو عمل بأمر من اللّه واذنه فلايكون «نداً» للّه فحسب، بل يكون كائناً مطيعاً يعمل بما يأمر الله. ومن قبيل الصدفة ان المشركين في عهد الدعوة كانوا يعتقدون بان آلهتهم تتمتع بنوع من الاستقلال في تنفيذ بعض الأعمال الالٰهية وادنىٰ الاعتقاد بالشرك كان سائداً في زمن الجاهلية. حيث كان البعض يعتقد بان صلاحية التدوين والتشريع قد فوضت للأحبار والرهبان،[141] وان صلاحية الشفاعة

١٤١ ــ (سورة البقرة / ٣١): «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله».

والمغفرة التي هي من صلاحية اللّه تعالىٰ دون غيره قد فوضت لأصنامهم ومعبوديهم، وان الأصنام تقوم بهذه الأعمال بصورة مستقلة. ولذلك فان القرآن الكريم يؤكد علىٰ انه لايمكن لأحد أن يستشفع الاّ باذن الله.[١٤٢]

كانت جماعة من حكماء اليونان تجعل لكل شيء الٰهاً فوّض اليه تدبير شؤونها كما كانت تعتقد بان تدبير العالم كله الذي هو بيد الله تعالى قد فوّض الىٰ تلك الآلهة ايضاً؛ واما بعض الجاهليين العرب الذين كانوا يعبدون الملائكة والنجوم الثابتة والمتحركة كانوا يعتقدون بان تدبير شؤون الكون والانسان قد فوّض الىٰ تلك النجوم والملائكة، وان الله قد جُرّد من هذه الصلاحيات تماماً ولهذا السبب فان كل نوع من الخضوع لها يعتبر عبادة[١٤٣] ولكن البعض الآخر منهم، ممن لم يعتبروا الأصنام والأوثان الخشبية والمعدنية خالقهم، كما لم يعتبروها المدبّر للانسان والعالم، بيد انهم كانوا يعتبرونهم اصحاب الشفاعة وكانوا يقولون: **«هؤلاء شفعاؤنا عند الله»**[١٤٤]. واستناداً لهذا التصور الباطل كانوا يعبدون تلك الأصنام ويعتبرون عبادتهم سبباً في القرب الىٰ الله بقولهم:

«ما نعبدُهُم اِلاّ ليقرّبونا اِلىٰ الله زُلفىٰ» (سورة الزمر/ ٣)

خلاصة القول ان أي عمل ينجم عن هذا الاعتقاد، ويدل علىٰ الموالاة يعتبر عبادة، وفي المقابل ان أي تصرف لايستند الىٰ اعتقاد كهذا لايعتبر عبادة وشركاً. ولو خضع شخص امام كائن أو كرّمه وعظّمه دون ان يتمسك بهذا الاعتقاد، فلا يعتبر عمله شركاً ولاعبادة، علىٰ الرغم من احتمال اعتباره حراماً. فعلىٰ سبيل المثال لا تعتبر سجدة العاشق لعشيقه، المأمور لآمره، والمرأة لزوجها و... عبادةً بالرغم من ان ذلك يعتبر حراماً في الدين الاسلامي المقدس، ذلك لأنه لايستطيع أحد ان يؤدي ظاهر هذه العبادة (لا العبادة نفسها) لأحد الاّ باذن الله وتعالىٰ.

* * *

نتيجة البحث:

الىٰ هنا تمكنّا لحدٍ ما أن نوضّح حقيقة «العبادة» و «الشرك» وأما الآن يجب ان نقدم استنتاجنا من الحديث الذي دار حول هاتين الكلمتين. ولأجل ذلك لو فرضنا بان أحداً يخضع ويتواضع لأناس آخرين دون أن يعتبرهم «الٰهاً» أو «رباً» ولا مصدراً

---

١٤٢ ـ (سورة البقرة/ ٢٥٥): «من ذا الذي يشفعُ عندهُ اِلاّ بإذنهِ».

١٤٣ ـ الملل والنحل ج ٢ ص ٢٤٤.

١٤٤ ـ سورة يونس / ١٨.

للأعمال الالٰهية، بل يكنّ لهم الاحترام لأنهم:
«**عِبادٌ مُكرَمونَ لايسبقونَهُ بالقولِ وهُم بأمرهِ يعمَلُونَ**» (الأنبياء / ٢٦ — ٢٧)
فان عمله هذا لايعتبر الاّ تعظيماً وتكريماً وتواضعاً لهم. ان الله عز وجل يصف بعضاً من عباده بشكل يثير رغبة كل انسان في تعظيمهم وتكريمهم واحترامهم، كما يقول في كتابه العزيز:
«**اِنّ الله اَصطفىٰ آدمَ ونوحاً وآل ابراهيمَ وآل عمرانَ علىٰ العالمينَ**» (آل عمران / ٣٣)

ولقد اصطفىٰ الله ابراهيم (ع) إماماً للناس. حيث جاء في القرآن الكريم:
«**قال اِنّي جاعِلُك َللنّاسِ إماماً**» (البقرة / ١٢٤)
ان الله سبحانه وتعالىٰ يصف في كتابه العزيز النبي نوح وابراهيم وداود وسليمان وموسىٰ والمسيح ومحمد (ص) يصفهم باسمىٰ الصفات بحيث ان بمقدور كل صفة بذاتها ان تسحر القلوب، حتىٰ انه يفرض علينا حب بعضهم.[١٤٥] فلو عظّم الناس هؤلاء وكرموهم سواء كانوا أحياءً أو امواتاً ذلك لأنهم عباد معززين مكرمين عند ربهم، ولم يعتبروهم آلهةً ولامصدراً للأعمال الالٰهية فلايعتبر أحد في العالم هذا العمل عبادة ولا القائم به مشركاً.
الكل يعلم باننا نقوم تبعاً لخير الأنام باستلام الحجر الأسود وتقبيله في حين ان هذا ليس الاّ حجراً، كما اننا نطوف حول بيت الله الحرام الذي ليس سوى كتلة من الطين والاحجار وكذلك فنحن نسعىٰ بين جبلين هما الصفا والمروة.. اي اننا نفعل نفس ما كان يفعله عبدة الاصنام بالنسبة لأصنامهم. ولكن في الوقت ذاته لم يخطر ببال أحد حتىٰ الآن باننا نعبد الطين والأحجار. السبب هو لأننا لانفكر أبداً بمضار هذه الاحجار والأتربة ولابمنافعها. اما لو أديناهذه الفرائض اعتقاداً منّا بان هذه الاحجار والجبال هي الالٰه ومصدر آثاره، لأصبحنا في عداد عبدة الأصنام. لذا فان تقبيل يد النبي او الإمام او المعلم أو الأُم أو القرآن والكتب الدينية، وكذلك تقبيل الضريح وكل مايتعلق بالعباد الأعزاء ليس سوىٰ تعظيماً وتكريماً ولاغير.
لقد ورد في القرآن الكريم سجود الملائكة لآدم،وسجود اشقاء يوسف ليوسف[١٤٦] ولم يخطر ببال أحد بان هذه السجدة هي عبادة لآدم أو ليوسف (ع).
والملاحظ هنا ان الساجدين لم يمنحوا المسجود لهُ أدنىٰ منزلة من «الالوهية» أو

---

١٤٥ ــ سورة الشورى / الآية ٢٣: «لا أسألكم عليه أجراً اِلاّ المودة في القُربىٰ».
١٤٦ ــ سورة البقرة / الآية ٣٤، و سورة يوسف / الآية ١٠٠.

«الربوبية»، كما لم يعتبر وهم آلهةً أو مصدراً للأعمال الالٰهية، لذلك يعتبر عملهم هذا تعظيماً وتكريماً وليس عبادةً.

ان «الوهابيين» عندما يواجهون مجموعة من الآيات بهذا الخصوص يقولون في الحال بان سجدة هؤلاء لا تعتبر عبادة لكونها جاءت بأمر من اللّه تعالىٰ. نحن أيضاً نقول بان جميع هذه الأعمال وحتىٰ عمل اشقاء يوسف امام يعقوب (ع) قدجاء بأمر من الله ومرضاته. الاّ انهم اي الوهابيين يتغافلون شيئاً ألا وهو انّ أمر الله تعالىٰ لايخرج العبادة عن كونها كذلك ولايجعل الشرك بالذات، توحيداً فلو كان أساس العمل علىٰ مستوىٰ الذات عبادة للمسجود له لما أمرالله به أبداً:

«قُل اِنّ اللّهَ لا يأمرُ بالفحشاءِ أتَقولونَ علىٰ الله مالا تعلمونَ» [١٤٧]

١٤٧ ـ سورة الاعراف / ٢٨.

الفصل العاشر

طلب العون من الأحياء من أولياء الله

ان طلب شيء ما من «أولياء الله» يتم باشكال مختلفة نشير اليها كمايلي:

١ ــ ان نطلب من «الشخص الحي» كي يعاوننا علىٰ بناء دار، او أن يسقينا من وعاء ماء علىٰ مقربة من يده.

٢ ــ ان نطلب من «الشخص الحي» كي يدعوالله ويطلب المغفرة لنا. يشتمل الطلب في كلتا الحالتين علىٰ أمر مشترك وهو أنّ المطلوب امر طبيعي والطرف قادربإِنجازه. نعم يختلفانِ في أن الاوّل يخص الشؤون الدنيوية، واما الثاني فيخص الشؤون الدينية والاخروية.

٣ ــ ان نطلب منه انجاز عمل دون ان تكون له عوامل وأسباباً طبيعية وعادية، اي ان يقوم مثلاً بشفاء مريض بدون دواء أو العثورعلىٰ مفقود.. وبعبارة اخرىٰ أن يلبىٰ طلبنا عن طريق الاعجاز و دون اللجوء الىٰ العوامل العادية والطبيعية.

٤ ــ ان نطلب من الشخص المتوفى كي يدعوالله لنا، وذلك اعتقاداً منا بان هذا الشخص حيّ يرزق في عالم آخر غيرعالمنا.

٥ ــ ان نطلب من هذا الشخص كي يشفي مريضنا أو يعثرعلى فقيد نا وذلك بناءً للقدرة المعنوية التي وهبها الله له و...

ان الطلب في الحالتين الاخيرتين هو كالطلب في الحالتين الثانية والثالثة مع فارق واحد وهو ان الشخص الذي طلبنا منه العون في الحالة الثانية والثالثة كان حياً في عالم المادة والطبيعة، ولكنه كان ميتاً في الظاهر، وحياً في الواقع في الحالتين الأخيرتين. وعلىٰ هذا الاساس لايمكن ابداً ان نطلب من الميت أن يعيننا في الشؤون المادية بواسطة

الأسباب والعوامل المادية، ذلك لأن المفترض هو ان الميت قد رحلَ عنّا وقد قُطعت صلته بالأسباب العادية.

الحالة الاولىٰ:

ان يطلب العمل والعون من الأحياء في الشؤون العادية التي لها اسباب عادية وطبيعية هو من مكونات التمدن، حيث ان حياة البشرية في عالمنا تقام علىٰ اساس التعاون وان العقلاء في العالم يطلبون العون من بعضهم في شؤونهم المعيشية. ان حكم هذه الحالة هو علىٰ حد من الوضوح بحيث لم يبدِ أحد أي اعتراض عليه حتىٰ يومنا هذا. وهنا نكتفي بذكر آية من القرآن الكريم بهذا الصدد:

عندما أراد «ذوالقرنين» أن يبني سداً يحول دون هجوم «يأجوج» و «مأجوج» أدار وجهه لسكان المنطقة قائلاً:

«فأعينُوني بقوةٍ أجعلْ بَينَكُمْ وبينَهُمْ رَدَماً» (سورة الكهف / ٩٥)

الحالة الثانية:

ان طلب الدعاء بالخير والمغفرة من الأحياء في عالم المادة هو من الامور الضرورية التي يؤكد عليها القرآن الكريم. وكل من له أقل المام بالقرآن الكريم يعلم بان اسلوب الأنبياء كان الدعاء لأُممهم وطلب المغفرة لهم. أو ان الأُمم نفسها كانت تطلب من انبيائها كي يدعو لهم بالمغفرة. هناك مجموعة من الآيات بهذا الصدد نذكرها كمايلي:

١ ــ يأمر الله تعالىٰ النبي (ص) كي يطلب المغفرة لامته، فمن قوله تعالىٰ:

«فاعفُ عنهُم واستغفرْ لَهُم وشاوِرهُم في الأمرِ»[١٤٨]

«فبايعهنَّ واستغفر لهُم الله ان الله غفورٌ رحيمٌ»[١٤٩]

خُذ من إموالِهم صدقةً تُطهّرهُمْ وتُزكّيهِمْ بها وصلِّ عليهم انّ صلاتَك سكنٌ لَهُمْ والله سميعٌ عليمٌ»[١٥٠]

ان اللّه سبحانه وتعالىٰ يأمر نبيه (ص) بصورة مباشرة في هذه الآية كي يدعولهم، وان تأثير دعاءه هو علىٰ حد من السرعة بحيث يشعر هؤلاء، بالطمأنية فور انتهاء النبي (ص) من دعائه.

---

١٤٨ ــ سورة آل عمران / ١٥٩.

١٤٩ ــ سورة الممتحنة / ١٢.

١٥٠ ــ سورة التوبة / ١٠٣.

٢ ـ ان الأنبياء كانوا يوعدون المذنبين بطلب المغفرة لهم وفقاً لشروط خاصة حيث جاء في محكم كتابه:

«اِلاّ قولُ ابراهيمَ لأبيهِ لأستغفرنَّ لكَ»[151]

«سأستغفرُ لَكَ ربّي انه كان بي حَفِيّاً»[152]

«وما كانَ استغفار ابراهيمِ لأبيهِ الاّ عن موعدة وعَدَها اِيّاهُ»[153]

تدل هذه الآيات على ان الانبياء كانوا يبشرون المذنبين بالمغفرة، حتى ان «ابراهيم» (ع) بشر «آزر» بالمغفرة، ولكنه أبى عنها عندما رآه يواصل عبادة الأصنام. ذلك لأن أحد الشروط في استجابة الدعاء هو ان يكون المدعوله مؤمناً بوحدانية الله وليس مشركاً.

٣ ـ يأمر الله تعالى المؤمنين اذا أذنبوا أن يأتوا الى النبي (ص) كي يدعولهم بالمغفرة، لأن الله يغفر لهم اذا دعاه النبي (ص).

«ولَو اَنّهمُ اِذْ ظَلَمُوا اَنفسهم جاؤك فاستغفرُوا اللهَ واستغفرَ لَهُمُ الرسول لوجدوا اللهَ توّاباً رحيماً». (سورة النساء / ٦٤)

فاية آية هي أوضح من هذه الآية التي يأمر فيها الله المذنبين من الأمة ليأتوا الى النبي (ص) ويطلبوا منه كي يدعو لهم بالمغفرة؟. انّ للمجيء الى النبي (ص) وطلب المغفرة منه فائدتان هما:

أ ـ انّ طلب المغفرة من النبي (ص) يُحيي روح الطاعة في نفس المذنب ويدفعه الى اتباع الرسول (ص) كما انّ المجيء الى النبي (ص) يوجد حالة من الخضوع له ويجعل الانسان مستعداً من اعماق قلبه لتنفيذ هذه الآية «واطيعوا الله وأطيعوا الرسول».

ب ـ ان هذا العمل يجسّد بوضوح منزلة النبي (ص) عند الامة، كما يدل على ان الافاضة المعنوية التي هي مغفرة الله تصل العباد عن طريق عوامل واسباب معينة كدعاء النبي والمكرمين عندالله تعالى، مثلما تصلهم الافاضة المادية بواسطة عوامل واسباب خاصة.

فلو كانت الشمس سبباً في وصول الطاقة والحرارة للعباد، فان الافاضة المعنوية التي يهبها الله لعباده تأتي بواسطة نبيّه ومبلّغ رسالاته. وان «عالم الكون» في كلتا المرحلتين هو عالم «أسباب المسببات» وان الألطاف المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة

---

١٥١ ـ سورة الممتحنة / ٤.

١٥٢ ـ سورة مريم / ٤٧.

١٥٣ ـ سورة التوبة / ١٤٤.

لا تأتي الاّ بأسبابها.

٤ ــ نستنتج من بعض الآيات بأن المسلمين كانوا يأتون الىٰ النبي (ص) دوماً ويطلبون منه كي يدعولهم. ولذلك عندما اقترح المسلمون علىٰ المنافقين أن يأتوا الىٰ النبي ليغفر لهم أ.بوا واستكبروا.. حيث يقول الله تعالىٰ في كتابه:

« وإذا قيل لَهُمْ تعالَوْا يستغفر لكُمُ رسولُ الله لوَّوا رؤوسهُم ورأيتهم يصدّوُن وهم مُستكبرونَ »[١٥٤]

٥ ــ تشهد بعض الآيات علىٰ ان الناس كانوا يعلمون بفطرتهم الزكية بأن لدعاء النبي (ص) تأثيراً خاصاً، وان الله تعالىٰ يستجيب لدعائه بصورة مؤكدة. ان الناس كانوا يستلهمون بفطرتهم بأن الافاضة الالهية تصلهم عن طريق الأنبياء، كما تصلهم هدايته عن طريقهم.

«قالوا يا أبانا استغفِرْ لَنا ذنوبنا إنّا كُنّا خاطِئينَ، قالَ سوف استغفر لكم ربّي انه هو الغفورُ الرحيمُ »[١٥٥]

٦ ــ هناك آيات يحذّر فيها الله نبيّه (ص) بانه لايستجيب دعاءه للمنافقين والذين لازالوا يواصلون عبادة الأصنام. وان في هذه الآيات نوعاً من الاستثناء بالنسبة للآيات السابقة، وتدل علىٰ ان لدعاء النبي (ص) تأثيراً خاصاً في حالات غيرالتي مرّ ذكرها حيث يقول سبحانه عزّ وجل:

«اِنْ تستغفر لَهُمْ سَبعين مرّةً فلن يغفر اللهُ لَهُمْ »[١٥٦]

«سواءٌ عليهم اَستغفرتَ لَهُم أم لم تستغفرْ لَهُم لَن يغفر اللّهُ لَهُمْ »[١٥٧]

«ولمّا وقع عليهمُ الرجز قالوا يا موسىٰ ادعُ لنا ربّك بما عَهد عندَك لَئِنْ كشفْتَ عَنّا الرجز لنؤمننّ لك ولنرسلنّ معك بني اسرائيلَ »[١٥٨].

ان المذنبين طلبوا من «موسى بن عمران» ــعليه السلام ــ كي يدعولهم ــ وتشهد جملة «بما عهد عندك» بان هؤلاء كانوا يعلمون بأن لله عهداً مع موسىٰ (ع). ولكن لوكانوا قد أرادوا من جملة «ادعُ لنا ربّك» ان يجنّبهم موسىٰ (ع) من العذاب وأنه يحظىٰ بالقدرة علىٰ ذلك، فان هذه الحالة من احد الأدلة علىٰ الحالة الثالثة اي (الطلب

---

١٥٤ ــ سورة المنافقون / ٥.

١٥٥ ــ سورة يوسف / ٩٧ ــ ٩٨.

١٥٦ ــ سورة التوبة / ٨٠.

١٥٧ ــ سورة المنافقون / ٦.

١٥٨ ــ سورة الاعراف / ١٣٤.

من الأحياء، وصحة قدرة الأنبياء على القيام بأعمال اعجازية بقدرة الله تعالىٰ) غير ان هذه العبارة تقلل من احتمال ذلك . والجدير بالذكر ان الآية المذكورة لا تشير الىٰ ان الله لا يجيب دعوة «كليم الله» ـ عليه السلام ـ بالمغفرة للمشركين. وفي الآيات الاخر كفاية.

٧ ـ نستنتج من آيات القرآن أيضاً بأن جماعة من المؤمنين كانوا يدعون الله بالمغفرة لجماعة اخرىٰ. فمن قوله تعالىٰ:

«والّذين جاؤُا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولِإخواننا الّذين سبقونا بالإِيمان»[١٥٩]

وبالأضافة الىٰ تلك الجماعة من المؤمنين، فأن حملةَ العرش ومن حوله هم أيضاً يطلبون المغفرة للمؤمنين، كما جاء في قوله عزّ وجلّ:

«اَلّذينَ يحمِلونَ العرشَ ومن حولَهُ يُسبِّحون بحمدِ ربِّهم ويؤمنون به ويستغفِرون للّذين آمنوا ربّنا وسعت كل شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للّذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقِهِمْ عذابَ الجحيم». [١٦٠]

أليس الأفضل لنا اذن ان نتّبع سبيل تلك الجماعة وندعوالله دوماً كي يغفر للمؤمنين ذنوبهم؟

الحالة الثالثة:

تشتمل هذه الحالة علىٰ الاستعانة بالحيّ في هذا العالم الماديّ حتىٰ يقوم بأعمال «اعجازية» كمعالجة المريض أو اسالة الماء من عين راكدة و... الخ.

يصنّف بعض المؤلفين المسلمين هذا النوع من الاستعانة ضمن الحالة الثانية ويقولون إن المقصود من هذا الاعجاز هو ان يطلب الشخص من الباري تعالىٰ كي يشفي مريضه، أو يسدد ديونه... ذلك لأن هذه الأعمال تخصّ الله تعالىٰ، ولكن طالما انّ دعاء النبي والإِمام هو الوسيلة في هذه الحالة، لذلك فان عمل الله يسند الىٰ الداعي مجازاً.[١٦١]

الاّ ان آيات القرآن تدل بوضوح علىٰ ان طلب هذه الحاجة من الانبياء امر صحيح وليس مجازاً وطلباً لدعائهم؛ بل نطلب من المعصوم الاعجاز وشفاء المريض الذي يصعب علاجه، بحول الله وقوته. نعم ان القرآن الكريم يعتبر الشفاء من اختصاص الله تعالىٰ، كما جاء في الآية الكريمة:

---

١٥٩ ـ سورة الحشر / ١٠.

١٦٠ ـ سورة المؤمن / ٧.

١٦١ ـ كشف الارتياب ص ٢٧٤.

«وإذا مرضتُ فهو يشفينِ»[162]

بيد انه في الحال نفسه ينسبه الى القرآن والعسل أيضاً. فمن قوله تعالىٰ:

«يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ الوانُه فيه شفاءٌ للنّاس» (سورة النحل / ٦٩)

«وننزّلُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ» (سورة بني اسرائيل / ٨٢)

«قد جاءَتْكُم موعظةٌ مِنْ ربِّكُم وشفاءٌ لما في الصُّدورِ» (سورة يونس / ٥٧)

ان النظر الصائب الذي يجمع بين هاتين المجموعتين من الآيات (جعل الشفاء من اختصاص الله واثبات ذلك بالنسبة للعسل والقرآن والنصائح الالهية) هو ان الله سبحانه وتعالىٰ «مؤثر بالاستقلال» وهو يعتمد علىٰ نفسه في التأثير، وان تأثير العوامل الأُخرىٰ يأتي باذن الله تعالىٰ ويعود سببيتها اليه أيضاً.

ان النظرة الكونية الاسلامية والفلسفية تعتبر جميع العوامل والأفعال أسباباً تعود الىٰ الله تعالىٰ، وان العلل والأسباب ليست مستقلة وقائمة بذاتها. وعلىٰ هذا الأساس فانّ العقل والآيات ترشدنا الىٰ انه لامانع لله الذي يمنح قدرة الشفاء للعسل والأدوية النباتية والكيمياوية، ان يمنح نفس القدرة للأنبياء والأئمة، مثلما يتمكن المرتاضون من الحصول على قدرات روحية ومعنوية عالية. فما هو السبب اذن كي لايمنح الله نفس القدرة للأنبياء والأئمة بعدما يبلغون قمة العبودية له، ويجعلهم قادرين علىٰ القيام باعمال «تحيّر العقول» دون أسباب وعوامل عادية وطبيعية.

ان قدرة الأنبياء والأئمة علىٰ شفاء المريض والقيام باعمال استثنائية لا تنفي أن يكون الله هو المعالج والسبب الحقيقي الذي يمنحهم القدرة علىٰ التصرف بالكون باذنه. ولاشك انّ هنالك آيات تدل بوضوح علىٰ ان الناس كانوا يطلبون من الأنبياء وحتىٰ من غير الأنبياء ان يقوموا باعمال استثنائية، فعلىٰ سبيل المثال نذكر هذه الآية:

«وأوحَيْنا الىٰ موسىٰ اِذ استسْقاهُ قومُه أنِ اضربْ بِعَصاكَ الحَجَرَ»

(سورة الاعراف / ١٦٠)

يدل ظاهر هذه الآية علىٰ ان بني اسرائيل طلبوا من نبيّهم في وقت الجفاف ان يهيء لهم ماءً ولكن لا بالطرق العادية المتداولة، وانما طلبوا منه ان يفعل ذلك بطريقة استثنائية. ان بني اسرائيل لم يطلبوا من النبي موسىٰ (ع) ان يدعو الله كي يوفّر الماء لهم بل قالوا له اسقنا وهيء لنا الماء.

الأوضح من هذه الآية هي تلك الآية التي يدعو فيها النبي سليمان المجتمعين حوله ان يجلبوا عرش بلقيس علىٰ الرغم من الحواجز والموانع التي تقع في طريقه، حيث يقول:

---

١٦٢ ـــ سورة الشعراء / ٨٠.

«أَيُّكُم يأتِيني بَعَرْشِها قبلَ ان يأتوني مُسلِمينَ»[١٦٣]

لقد كان هدف سليمان(ع) احضار عرش «بلقيس» بطريقة غير عادية. ويمكننا ان نستنتج نفس الشيء من جواب «العفريت» و «آصف برخيا» في الآيتين ٣٩ و ٤٠ من سورة النحل.

يتصور البعض بأن الأعمال البسيطة والعادية لاتخص الله تعالىٰ، بل ان الأعمال الاستثنائية وغير العادية التي لايقدر الانسان عليها هي من اختصاص الله وحده. هذا في حين ان القياس في تمييز الأعمال الالٰهية عن غير الالٰهية يعود الىٰ الأستقلال وعدم الأستقلال فيها. ان الأعمال الإلٰهية هي تلك التي ينفّذها الفاعل دون تدخّل الغير ودون الاستعانة بقدرة الآخرين. بمعنىٰ آخر ان الأعمال الإلٰهية هي تلك الأعمال التي يكون الفاعل مستقلاً تماماً في تنفيذها، ولايحتاج الىٰ الغير في انجازها أبداً. اما الأعمال غير الالٰهية سواء كانت بسيطة وعادية، أو صعبة وغير عادية، هي تلك التي لايكون الفاعل مستقلاً في تنفيذها، انمايتم تنفيذها تحت اشراف فاعل وقدرة مستقلة. لذا ليس هناك أي دليل كي لايمنح الله القدرة لأوليائه علىٰ القيام باعمال استثنائية لايقدر الانسان العادي علىٰ تنفيذها.

يقول الله تعالىٰ للمسيح(ع) بصراحة تامة:

«وتُبرئ الاَكمه والأبرصَ بِإذني واذ تُخرج الموتىٰ بإذني» [١٦٤]

تدل هذه المجموعة من الآيات بأن أولياء الله كانوا يحظون بهذه القدرة، وان طلب الأعمال الاستثنائية والاعجازية منهم كان أمراً متداولاً، يؤيد صحته القرآن الكريم.

* * *

لقد تبين لدينا حتىٰ الآن حكم الحالات الثلاث لِـ«الطلب من الأحياء» علىٰ ضوء القرآن الكريم، وعلمنا بان آيات القرآن الكريم تؤيد بصراحة وبوضوح تام صحة الحكم هذا. وأمّا الآن فقد آن الأوان كي نتطرق الىٰ حكم الحالتين اللتين تتعلقان بالطلب من الأرواح المقدسة، بالاستناد الىٰ ادلة من القرآن والأحاديث.

الإستعانة بأرواح أولياءِ الله:

ان الاستعانة في حالة «الممات» أي الانتقال الىٰ الدار الأُخرىٰ، هي أهم مسألة في الاستعانة بأولياء الله، سواء كانت الاستعانة بصورة الدعاء أو طلب القيام

---

١٦٣ ــ سورة النمل / ٣٨.

١٦٤ ــ سورة المائدة / ١١٠.

باعمال إعجازية، ذلك لأن المسلمين ليسوا الآن في محضَرِ نبي او إمام كي يستعينوا بهم بصورة مباشرة، بل انهم يستعينون بأرواحهم المقدسة. وبناء علىٰ ذلك فان توضيح حكم هاتين الحالتين يحظىٰ باهتمام اكثر.

ان البحث في هذا الموضوع يتطلب الإلمام بالمواضيع الأربعة التالية التي يمكن علىٰ ضوئها التأكد من صحة الإستعانة والإستغاثة في هاتين الحالتين.

المواضيع الأربعة هي عبارة عن:

١ــ بقاء الروح بعد الموت.

٢ــ حقيقة الانسان هي روحه.

٣ــ الاتصال بعالم الأرواح أمر ممكن.

٤ــ الاحاديث الصحيحة التي رواها المحدّثون الاسلاميون هي خير دليل علىٰ صحة هذه الأنواع من الاستعانة التي مارسها المسلمون خلال العصور المختلفة.

والآن نتطرق إلــىٰ هذه المواضيع كل علىٰ حدة.

١ ــ موت الانسان لايعني فنائه:

تدل آيات القرآن بوضوح علىٰ ان الموت ليس هو نهاية للحياة، انما هو منفذ لدخول حياة جديدة، وبالموت يدخل الانسان في عالم جديد أسمىٰ من عالم المادة والطبيعة.

ان اولئك الذين يعتبرون الموت فناءً، ويعتقدون بأن الموت هو فقد ان كل شيء، ومن جرائه لايبقىٰ أي اثر للانسان سوىٰ جسد خامد لاروح فيه، وان هذا الجسد يتحول بعد مدة من الزمان الىٰ عناصر أُخرىٰ، فانهم بذلك يتّبعون الفلسفة المادية ويستلهمون منها بصورة لا ارادية. فأصحاب هذه النظرية لايعتبرون الحياة الاّ نتيجةً ماديةً لسلسلة تفاعلات كيمياوية وعمليات فيزياوية تحصل في المخ والأعصاب. وعندما يفقد الجسم حرارته وتتوقف الخلايا عن الحركة وتشكيل خلايا أُخرىٰ، تتوقف حياته أيضاً ويتحول الىٰ جماد؛ واما الروح علىٰ ضوء هذه النظرية فهي ليست الاّ انعكاساً للمادة وخواصها، وتبطل الروح وتفنى كلما ابطلت هذه الخواص وانعدم تأثير اجزاء الجسم علىٰ بعضها. وبذلك فهم لايعتقدون بوجود عالم باسم عالم الأرواح.

ان نظرية كهذه النظرية، تستلهم افكارها من اصول «الفلسفة المادية» التي تعتبر الانسان أشبه بما كنة تتركب من قطع واجزاء مختلفة، وان تأثير هذه الأجزاء علىٰ بعضها تولد قدرة التفكير والادراك في المخ وكلما تبعثرت هذه الأجزاء، تنعدم معها آثار التفكير وتفنىٰ الحياة فيها فناءً كاملاً.

ان كبار الفلاسفة والعلماء الالهيين في العالم يفندون تماماً نظريات الماديين حول الروح، ويقولون بأن للانسان شيئاً اساسياً آخراً يسمى الروح التي ترافق الجسم زمناً وتنفصل عنه لتلتحق بجسم آخر ألطف منه في جوخاص بها (البرزخ). هذا بالاضافة الى اعتقادهم بنظام المادة وسلسلة الأعصاب والتفاعلات والتأثيرات المتبادلة التي تحصل في جسم الانسان. ان موضوع بقاء الروح لايمكن اثباته في هذه الصفحات العديدة، وذلك لأن آيات القرآن والأدلة الفلسفية الدقيقة وتجارب الروحيين المتيقنة قد برهنت اليوم بقاء النفس والروح الانسانية بعد مماته. وهنا نكتفي فقط بذكر بعض الآيات التي تشهد على بقاء النفس والروح الانسانية بعد الموت، على أن نقدم تحليلنا حولها في مجال آخر. وأما الآيات فهي كالآتي:

أ ـ «ولا تقولُوا لمن يُقتَل في سَبيلِ اللهِ أمواتاً، بلْ أحياءٌ ولٰكن لا تشعُرونَ»(سورة البقرة / ١٥٤)

ب ـ «ولا تحسبنَّ الّذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزقونَ» (سورة آل عمران / ١٦٩)

«فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ من فضلهِ، ويستبشرونَ بالّذين لم يَلْحَقُوا بِهِمْ...» (سورة آل عمران / ١٧٠)

«يَستبشرونَ بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ...» (سورة آل عمران / ١٧١)

ج ـ «اِنّي آمنتُ بربِّكم فاسمعُونِ، قيلَ ادخُلِ الجنة، قال ياليتَ قومي يعلَمُونَ، بما غَفرلي ربّي وجعلَني من المُكْرَمينَ» (سورة يٰس / ٢٥-٢٧)

ان المقصود من الجنة التي قيل له ان يدخلها، هوالجنة البرزخية وليس الأخروية، والدليل على ذلك هوقوله **(يا لَيتَ قومي يعلَمُون بما غفَرلي ربّي وجعلني من المُكْرَمينَ)**. حيث ان تمنّي هذه المعرفة لايتفق مع عالم الآخرة التي ترفع فيها الستائر أمام الأنظار، ولن تخفى بعدئذ حالات الناس واوضاعهم عن بعضهم. بل انه يتلاءم مع الحياة الدنيا التي لايعلم فيها الناس في هذه «النشأة» أوضاع الناس في «نشأة» أُخرى، وهذا هو مايشهد عليه القرآن الكريم.

علاوة على ذلك فأن الآيات الأُخرى التالية توضح بأن مصباح حياتهم قد انطفأ بـ«صيحة سماوية» بعد وفاته وعفوه ودخوله الجنة، وهذه الآيات هي:

د ـ «وما أنزلنا على قومِهِ من بَعدِه من جُندٍ من السَّماءِ وما كُنّا مُنزلين، اِنْ كانتَ الاّ صيحةً واحِدةً فإذا هُم خامِدونَ» (سورة يٰس / ٢٨ — ٢٩)

نستنتج من هاتين الآيتين بأنه بعد ما توفى هو، أخذ الموت قومه فجأة بعدما كانوا يعيشون في هذه الدنيا، وان هذه الجنة ليست الاّ جنة برزخية.

هـ«النارُ يعرضونَ عليها غُدواً وعَشِياً ويومَ تقومُ الساعةُ ادخلوا آل فرعونَ أشدّ العذابِ» (سورة المؤمن / ٤٦)

بالاستناد الىٰ مضمون هاتين الآيتين، يتوضح لدينا بقاؤهم في عالم البرزخ، وذلك لأنه كانت تعرض عليهم النار في الصباح والمساء حتىٰ ماقبل يوم القيامة، بيدانهم يدخلون أشد العذاب في يوم القيامة. ولولا وجود جملة ــ (ويوم تقوم الساعة) ــ لماتبين المقصود الأول من الآية، ولذلك فان هذه الجملة تشير بوضوح الى فترة البرزخ، ولولاها لما صحّ تقابل الجملتين. اضف الى ذلك : ان موضوع الصباح والسماء يدل علىٰ ان المقصود ليس هو يوم القيامة، ذلك لأنه لاصباح ولامساء في ذلك اليوم.

٢ ــ حقيقة الانسان هي روحه:

يبدو للانسان في الوهلة الأولىٰ ان الانسان يتركب من الجسم والروح معاً، الاّ ان حقيقة الانسان هي روحه التي تلازم جسمه. نحن لسنا هنا بصدد بحث هذا الموضوع من الناحية الفلسفية استناداً الىٰ آراء فلاسفة الاسلام واليونانيين، انما الذي يهمّنا هو دراسة الموضوع علىٰ ضوء آيات القرآن الكريم. فمن خلال تمحصنا للآيات التي تتناول موضوع الانسان، يبدو لنا جلياً بأن حقيقة الانسان هي روحه. فمن هذه الآيات قوله تعالىٰ:

«قل يتوفاكُم ملكُ الموت الّذي وكل بكم، ثم الىٰ ربكم ترجعونَ» (سورة السجدة / ١١)

ان كلمة «تُوفّى» لا تعني الإماتة كما هو معروف، انما تعني الأخذوالاستلام في هذه الآية. لذا فان جملة «يتوفاكم» تعني: «يأخذكم» [١٦٥]. وان هذه العبارة تكون صحيحة لوكان واقع الانسان روحه فيصحّ أن يقال «يأخذكم» من الدنيا ولايبقى شيء منكم فيها. ولكن فيما لوكانت الروح جزءاً من شخصية الانسان، والجزء الثاني هو جسمه، فان هذه العبارة غيرصحيحة في الحالة هذه. لان المفروض ان ملك الموت يأخذ احد الجزئين وهو روح الانسان، وأما الجزء الاخر، أعني الجسد والمادة الخارجية فهوباق في الدنيا لايأخذه ملك الموت.

لقد ذكرنا هنا آيةً واحدةً علىٰ سبيل المثال لا الحصر، ذلك لأن هناك آيات

---

١٦٥ ــ لقد أجرى المرحوم «العلاّمة البلاغي» بحثاً قيّماً حول كلمة «توفّىٰ» يرجىٰ مراجعة «مقدّمة تفسير آلاء الرحمان» ص ٣٤.

أُخر تحدّد أيضاً موضع الروح بالنسبة لجسم الانسان.

ان الموضوع الأول (بقاء الروح بعد الموت) الذي اشرنا اليه، يكشف بوضوح هذه الحقيقة وهي، ان الروح هي واقع الانسان ومصدر تكامله النفسي والمعنوي، كما ان الجسد هو بمثابة الرداء الذي يغطيها. واما القرآن فلايعتبر الموت فناءاً للانسانية ونهايةً للحياة البشرية، بل انه يشير الىٰ ان لـ «الشهداء والصالحين» وكذلك «المجرمين» حياةً أُخرىٰ تسبق يوم القيامة، وان هذه الحياة اما ان يسودها «الفرح والسعادة»، وتكون مفعمة بـ «البشرىٰ» او «العذاب الأليم» ... ومما لاشك فيه ان جسد الانسان يتفسّخ ويتحّول الىٰ عناصر متعددة بعد مماته، ولن يعرف لبقائه ولا لعالم البرزخ أي معنىً فيما لوكان عنصر الجسد هو واقع الانسان وحقيقته.

٣ ــ القرآن يشهد علىٰ امكان الاتصال بعالم آخر:

ان مجرّد اثبات بقاء الروح المجردة عن المادة لا تكفي لتجويز الاستغاثة ولا تبين الفائدة منها. لذلك يجب ان نبرهن اضافة الىٰ ذلك امكان الاتصال بعالم الأرواح علىٰ ضوء الأدلة العلمية والقرآنية. وتجدر الاشارة الىٰ اننا قد بحثنا هذا الموضوع بصورة مفصلة في كتاب «اصالة الروح» وعليه نقول هنا باختصار بأن بعض الآيات تدل علىٰ ان ارتباط الانسان بالسلف كان باقياً ولم ينقطع.

أ ــ يكلّم صالح أرواح قومه:

«فعقَروا الناقةَ وعتَوا عن أمر ربِّهم وقالُوا يا صالح أئتِنا بما تعدُ نا اِنْ كُنتَ من المرسَلينَ» (الأعراف / ٧٧)

«فأخذتْهُمُ الرّجفةُ فأصبَحُوا في دارِهِمْ جاثِمينَ» (الأعراف / ٧٨)

«فتولّىٰ عنهُم وقالَ يا قومِ لَقد اَبلغتكُمْ رسالةَ ربّي ونصحتُ لكم ولٰكن لاتُحبّون النّاصِحَين» (الأعراف / ٧٩)

فلو تمحصنا في هذه الآيات لعلمنا بأن الآية الأولىٰ تشير الىٰ انهم طلبوا منه عذاباً الٰهياً عندما كانوا أحياءاً. وتدل الآية الثانية علىٰ انهم ماتوا جميعاً عندما جاءهم العذاب من ربهم. واما الآية الثالثة تشير الىٰ ان النبي صالح (ع) كلّمهم بعد موتهم وفنائهم حيث يقول: **(لقد ابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين)**.

والدليل علىٰ ان النبي صالح (ع) قد كلّمهم بعد موتهم هو مايلي:

١ ــ تنظيم وتنسيق الآيات كما ورد أعلاه.

٢ ــ حرف (الفاء) في كلمة (فتولىٰ) الذي يدل علىٰ الترتيب، أي ان صالح أدار وجهه عنهم بعد مماتهم وقال لهم هذه العبارة...

واما جملة (ولكن لاتحبون الناصحين) فتدل علىٰ أن القوم كانوا علىٰ حدٍ من العناد والشقاء حتىٰ ان ارواحهم الخبيثة أيضاً كانت لاتحب الناصحين.

يؤكد القرآن بصراحة علىٰ ان النبي صالح (ع) كان يخاطب قومه بجد، كما انه يخبرنا بمواصلة القوم لعنادهم حتىٰ بعد مماتهم.

ب ــ يكلّم شعيب أرواح السلف:

«فأخذتْهُمُ الرّجفةُ فأَصبحوا في دارِهم جاثِمين» (الأعراف / ٩١)

«الّذين كذّبوا شُعَيْباً كأنْ لَم يغنَوا فيها الّذين كذّبوا شُعيباً كانوا هُمُ الخاسِرين» (الأعراف / ٩٢)

«فتولّىٰ عنهم وقال يا قومِ لقد أَبلغتكم رسالاتِ ربّي ونَصحْتُ لكم فكيف آسي علىٰ قومٍ كافرينَ» (الأعراف / ٩٣)

ان نوع الاِستدلال في هذه الآيات يشبه الاستدلال في الآيات الخاصة بصالح (ع).

ج ــ يكلّم النبي(ص) أرواح الأنبياء الآخرين:

«وسْئَلْ من أرسلنا من قبلك من رسلنا أَجعَلْنا من دونِ الرحمٰن آلِهةً يُعبدون» (الزخرف / ٤٥)

يدل ظاهر هذه الآية علىٰ ان بإمكان النبي(ص) الذي يعيش في هذه النشأة الطبيعية ان يتصل بالأنبياء الذين هم من نشأة أُخرىٰ، وذلك كي يبين بأن أمرالله تعالىٰ لكافة الأنبياء وفي كافة الأعصار والقرون هو أنْ لايعبدوا الاّ اللّه وحده لاشريك له.

د ــ القرآن يسلّم علىٰ الأنبياء:

يسلّم القرآن الكريم علىٰ الأنبياء في بعض الحالات، غير ان هذا السلام ليس سلاماً فارغاً وتحية لامعنىً لها. ولاضمير ولا انصاف لمن يحاول تفسير آيات القرآن الكريم بشكل يتضمن نوعاً من الاستهانة والدناءة. نحن نعلم ان الماديين الذين لايعترفون باصالة الروح يبعثون السلام والتحية لقادتهم ومؤسسي مدرستهم المادية في خطبهم وكلماتهم تكريماً لهم. ولكن هل يجوز لنا نحن المسلمين ان نفسّر المفاهيم القرآنية ونقول بأن كافة التحيات التي يبعثها القرآن للأنبياء والتي نقرؤها ليلاً ونهاراً ليست الاّ مجاملات خاوية وفي مستوىٰ تحيات الماديين؟. يسلّم القرآن علىٰ الأنبياء بقوله:

١ ــ سلامٌ علىٰ نوحٍ في العالمينَ.

٢ ــ سلامٌ علىٰ إبراهيمَ.

٣ ــ سلامٌ علىٰ موسىٰ وهارونَ.

٤ ــ سلامٌ علىٰ آلِ ياسين.

٥ ـــ **سلامٌ علىٰ المرسَلينَ.**

(سورة الصافات، الآيات ٧٩ و١٠٩ و١٢٠ و١٣٠ و١٨١)

هـ ـــ السلام علىٰ النبي عند التشهد:

ان جميع المسلمين في العالم بالرغم من اختلافاتهم في فروع الدين، يخاطبون النبي(ص) عند التشهد صباحاً ومساءً ويقولون:

«السَّلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته».

والملاحظ هنا ان الشافعيين وغيرهم يعتبرون السلام عند التشهد فريضة، ويعتبره ابناء المذاهب الأخرىٰ أمراً مستحباً. بيد ان الجميع يتفقون علىٰ ان النبي(ص) علّمهم السلام وان سنّة النبي(ص) ثابتة في حياته وبعدوفاته.

السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المجال هو، لو كانت صلتنا بالنبي(ص) قد قُطعت فما الدليل لمخاطبته والسلام عليه؟

ختاماً تجدر الاشارة الىٰ اننا بحثنا الاستدلال بالسلام عند التشهد من خلال الآيات التي وردت اعلاه، وذلك نظراً لأن هذا الأمر مؤكد ولا نقاش فيه.

نتيجة البحث:

لقد برهنّا في الموضوع الأول بأن الموت ليس هو نهاية للحياة وفناء للانسان، انما هوَ منفذٌ للانتقال الىٰ عالم آخر. وتبين لنا من خلال الموضوع الثاني بأن حقيقة الانسان وواقعه هي روحه، وان الجسد هو رداء يغطي الروح، ولو بقيت الروح لبقي معها واقع الانسان وشخصيته وقدراته (ماعدانوع من القدرة التي تخص الجسم المادي فقط) أيضاً. وعلىٰ هذا الأساس لو كانت لنفس الانسان وروحه القدرة علىٰ الدعاء أو انجاز اعمال اعجازية عندما كان علىٰ قيد الحياة، فلروحه المقدسة أيضاً القدرة علىٰ انجاز كل الأعمال ماعدا التي تخص الجسم المادي، بعد موته وباذن الله تعالىٰ. وفي الموضوع الثالث برهنّا علىٰ انه من الممكن لأُناسٍ في هذه النشأة أن يتصلوا بأُناسٍ في النشأة الأُخرىٰ، وان الأرواح المقدسة قادرة علىٰ سماع كلامنا وخطابنا لها.

بالاستناد الىٰ هذه المواضيع الثلاثة برهنّا بأن أولياء الله قادرون علىٰ سماع كلامنا والأجابة عليه بأذن الله تعالىٰ. ولكن هل ان هذا النوع من العمل هو عمل مشروع علىٰ ضوء القوانين الاسلامية؟ الجواب علىٰ هذا السؤال يكمن في الموضوع التالي.

٤ ـــ المسلمون وطلب الحاجة من الأرواح المقدسة:

ان «ابن تيمية» واتباعه ينكرون بحكم مسبق ما اذا كان الصحابة والمسلمون من

بعدهم قد طلبوا حاجة من النبي(ص) فهم يقولون:

«ولم يكن أحد من سلف الأُمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتخيرون الصلاة والدعاء عند قبول الأنبياء ويسألونهم ولايستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم». [166]

ربما يتصور الشخص الذي لا اطلاع له بتاريخ الصحابة والتابعين بأن هذا الكلام صحيح، ولكن يتبين له خلاف ذلك عند مراجعته للتواريخ الصحيحة. فعلىٰ سبيل المثال نذكر النماذج التالية:

١ ــ «أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب فجاء رجل الىٰ قبر النبي فقال يا رسول الله استسقِ الله لأُمتك فانهم قد هلكوا فأتاه رسول الله(ص) في المنام فقال: ائتِ عمر، فاقرؤه السلام، واخبره انهم مسقون».

ثم يقول «السمهودي»:

«ومحل الاستشهاد طلب الاستسقاء منه (ص) وهو في البرزخ ودعاؤه لربه في هذه الحالة غير ممتنع وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا». [167]

٢ ــ يروي «السمهودي» عن «الحافظ أبو عبدالله محمد بن موسىٰ بن النعمان» بسند ينتهي بـ«علي بن أبي طالب» ــ عليه السلام ــ ان اعرابياً جاء الى المدينة بعد مرور ثلاثة أيام علىٰ وفاة النبي(ص) ووضع تراب القبر علىٰ رأسه وقال:

«يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله سبحانه ما وعينا عنك، وكان فيما انزل عليك (ولو أنّهم إذْ ظَلمُوا أنْفسَهُمْ جاؤك فاستغفرُوا اللّهَ...) وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي...» [168]

يروي مؤلف كتاب «الوفاء لأخبار دار المصطفىٰ» في نهاية الباب الثامن من كتابه أحداثاً ووقائع كثيرة، تدل كلها علىٰ ان الاستغاثة وطلب الحاجة من النبي(ص) كانت «سيرة مستمرة» للمسلمين. حتىٰ انه يقول بان الامام محمد بن موسىٰ بن نعمان ألّف كتاباً حول هذا الموضوع بعنوان «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام».

٣ ــ يقول «محمد بن المنكدر»:

«وضع رجل ثمانين ديناراً أمانة عند والدي وخرج الىٰ الجهاد وقال له: لو

---

١٦٦ ــ رسالة «الهديّة السنية» ص ١٦٢ طبعة المنار ــ مصر.

١٦٧ ــ وفاء الوفاء المجلد الثاني ص ١٣٧١.

١٦٨ ــ وفاء الوفاء ــ المجلد الثاني، ص ١٣٦١ ــ سورة النساء / ٦٤.

اصبحت بحاجة الىٰ هذا المبلغ فاصرفه. ومن قبيل الصدفة ارتفع الغلاء وصرف والدي المبلغ. عاد الرجل وطالب بماله. فأجابه والدي عدالي غداً، وذهب هو الىٰ المسجد ليلاً ورفع يديه باتجاه قبر ومنبر النبي(ص) واستغاث به حتىٰ ماقبل الصباح. كان والدي في حالة الاستغاثة فطلع عليه رجل في ظلام المسجد وقال: خذيا أبا محمد، وسلّمه كيساً كان فيه ثمانون ديناراً». [169]

٤ ــ يقول «أبوبكرابن المقري».

«كنت والطبراني وابوالشيخ عند قبرالرسول(ص)، فاشتد بنا الجوع، وعندما خيّم الظلام وقفت امام قبره(ص) وقلت: «يا رسول الله الجوع» ... لم يستغرق طويلاً حتىٰ سمعت طرقات علىٰ باب المسجد، فدخل رجل علوي مع شابين يحمل كل منهما زنبيلاً مملوءاً بالطعام... فعندما انتهينا من تناول الطعام قال العلوي... أتاني رسول الله(ص) في المنام وأمرني ان أجلب لكم الطعام» [170]

٥ ــ يقول «ابن جلاد»:

«دخلت المدينة وانا في فقرٍ شديد فجئت الىٰ قبر النبي(ص) وقلت: يا رسول الله أنا ضيفك وأخذني النوم فجأة فاتاني رسول الله في المنام وناولني رغيفاً...» [171]

نحن لايهمنا ما اذا كانت هذه الأحداث والوقائع صحيحة أم لا. فالمهم هو ان هذه الأحداث والوقائع تدل علىٰ ان هذه التصرفات كانت متداولةً في ذلك الزمان. ولو كانت بدعةً وحراماً، أو شركاً والحاداً لما قام هؤلاء الكتاب الحرفيين خوفاً من تشويه سمعتهم امام الناس.

والجدير بالذكر اننا ذكرنا روايات واحاديث في كتاب «اصالة الروح» قسم «اتصال الأرواح» والتي تدل كلها علىٰ صحة طلب الدعاء من الأرواح المقدسة كما تدل على صحة طلب انجاز عمل خارق للعاده وبذلك تتبين احكام الحالات الخمس كلها.

---

١٦٩ ــ «وفاء الوفاء»، المجلد الثاني ص١٣٨٠ (طبعة مصر) تشتمل الصفحات (١٣٨٠ ــ ١٣٨٥) علىٰ نماذج من هذه الاستغاثة.

١٧٠ ــ نفس المصدر.

١٧١ ــ «وفاء الوفاء» المجلد الثاني ص١٣٦١.

الفصل الحادي عشر

طلب الشفاعة من أولياء الله

ان مصطلح «الشفاعة» هو اصطلاح معروف لدىٰ الجميع؛ فعندما يدور الحديث حول فرد ارتكب جريمةً أو خطيئةً وحُكم من جرائها، وتدخّل شخص آخر وبذل جهوداً من أجل التوسط لانقاذه من الموت او السجن أو التوقيف، نقول والحالة هذه بأن فلاناً «استشفع» فلانا.

ان كلمة «الشفاعة» مشتقة من مادة «شفع» بمعنىٰ الزوج. وهي في مقابل كلمة «وتر» بمعنىٰ المفرد. والسبب في اطلاق «الشفاعة» علىٰ الوسيط لانقاذ «المذنب» هو ان منزلة ومكانة الشفيع، وقدرة تأثيره تنضم (وتزودج) مع عوام الانقاذ في نفس المستشفع (ولو كانت العوامل قليلة)، ويؤدي الا ثنان معاً الىٰ انقاذ المذنب أو المتهم.

ان حقيقة شفاعة أولياء الله للمذنبين تأتي بسبب قرب هؤلاء الأولياء من الله تعالىٰ ومكانتهم عند ربهم؛ فهم يستطيعون بذلك (طبعاً باذن الله وبناءً علىٰ شروط خاصة جماعية وليست فردية) ان يتوسطوا للمجرمين والمذنبين، ويطلبوا من الله عزّوجل ان يغفر لهم ذنوبهم. والجدير بالذكر ان الاستشفاع وقبول الشفاعة منهم مرهون بمجموعة شروط يتعلق بعضها بالمذنب، ويتعلق البعض الآخر بموضوع الشفاعة أي «الذنب». وبعبارة أُخرىٰ ان الشفاعة اعانة اولياء الله باذن الله لأشخاص لم يقطعوا صلتهم المعنوية بالله وباوليائه، بالرغم من انهم مذنبين. وهذا الشرط يجب أن يبقىٰ ثابتاً دوماً.

بكلمة واحدة ان الشفاعة هي استعانة الكائن الأدنىٰ الذي له الاستعداد للتقدم استعانته بكائن أعلىٰ منه بصورة قانونية. وبالطبع يجب ان لايكون المستعين من ناحية التكامل الروحي والنفسي علىٰ مستوىٰ من الدناءة بحيث يفقد علىٰ اثره القدرة علىٰ

التقدم والتكامل، واحتمال تحوله الىٰ انسان نزيه.

لقد كان اسلوب المسلمين منذ زمن النبي(ص) ومابعده، هو طلب الشفاعة من الشافعين الحقيقيين، الذين كانوا يستشفعون بهم دوماً سواء كانوا علىٰ قيد الحياة أو بعد وفاتهم. ولم يعتبر أحد من علماء الاسلام هذه الشفاعة معارضة لأي أصل أو مبدأ من المبادئ الاسلامية حتىٰ القرن الثامن الهجري. في ذلك القرن بدأ «ابن تيمية» وبناءاً علىٰ وجهة نظر خاصة، معارضته لهذه المسألة والعديد من السنن والأساليب التي كانت متداولة لدى المسلمين حتىٰ ذلك الزمان. وبعد ثلاثة قرون أي في القرن الحادي عشر الهجري رفع «محمدبن عبدالوهاب النجدي» راية «ابن تيمية» وأحيا عقائده من جديد ولكن بصورة أشد مما كان عليه.

إن أحد أوجه الخلاف بين «جماعة الوهابية» والفرق الاسلامية الأُخرىٰ، هو إن «الوهابيين» يقبلون اصل الشفاعة كسائر المسلمين باعتبارها مبدأ من المبادئ الأسلامية، ويقولون إن الشافعيين يشفعون للمذنبين من أُمّتهم يوم القيامة، وان النبي محمد(ص) يحظىٰ بنصيب أكبر في هذا المجال، ولكنهم يقولون في الوقت ذاته: إنه لايحق لنا أبداً أن نطلب الشفاعة منهم في هذه الدنيا حتىٰ إنهم ذهبوا أبعد من ذلك وقالوا ما يزعج النفس ذكره وخلاصة قولهم هو: إن لنبي الاسلام(ص) وللأنبياء الآخرين، وللملائكة والأولياء حق الشفاعة يوم القيامة بيد إنه يجب أن تطلب الشفاعة من مالك الشفاعة والمؤذن بها والذي هو الله تعالىٰ وان يقال:

«اللّهم شفِّع نبيّنا محمداً فينا يوم القيامة. أو اللّهم شفِّع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك أو نحو ذلك، مما يطلب من الله لامنهم فلايقال يا رسول الله أويا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها مما لايقدر عليه الاّ الله فاذا طلبت ذلك في أيام البرزخ كان من أقسام الشرك »[١٧٢]

قبل ان نتطرق الى دراسة أدلة الوهابيين بهذا الخصوص دعنا نبحث ذلك أولاً علىٰ ضوء الكتاب والسنة وسيرة المسلمين.

* * *

دليلنا علىٰ جواز طلب الشفاعة:

إن دليلنا علىٰ جواز طلب الشفاعة يكمن ضمن الموضوعين التاليين ويتبين من خلال برهنتها:

١ ــ طلب الشفاعة، هو طلب الدعاء نفسه.

---

١٧٢ ــ «الهدية السنية» ــ الرسالة الثانية ــ ص ٤٢.

٢ ــ طلب الدعاء ممن يليق به، أمر مستحب.
والآن نتطرق الىٰ كل منهما كالآتي:

١ ــ طلب الشفاعة، هو طلب الدعاء نفسه:

ان شفاعة النبي(ص) وسائر الشافعين الحقيقيين ليست سوىٰ الدعاء من الله تعالىٰ؛ حيث انهم يطلبون المغفرة من الله للمذنبين وان الله يستجيب لدعائهم بسبب قربهم اليه. حتىٰ ان طلب الدعاء من المؤمنين هو أمر مستحسن، ولم يشك أحد من علماء الاسلام وحتىٰ الوهابيين في صحته. وبالطبع لايمكن القول بأن الشفاعة في كافة مواقف المحشر هي نفس الدعاء الىٰ الله تعالىٰ. ولكن يمكن القول بأن الدعاء هو أحد المعاني الواضحة للشفاعة، وان من يقول «يا وجيهاً عندالله اشفع لنا عندالله» يقصد به هذا المعنىٰ.

يروي «نظام الدين النيشابوري» عن مقاتل في تفسيره لآية **«من يشفع شفاعةً حسنةً يكُن لَهُ نصيبٌ منها»** (النساء/٨٥) قائلاً:

«الشفاعةُ الىٰ الله إنمّا هي الدعوة لمسلم»

و روي عن النبي(ع) إن من يدعو لأخيه المسلم في غيابه يستجاب له وتقول له الملائكة سيكون لك مثله أيضاً.

ان «إبن تيمية» هو أحد الذين يعتبرون طلب الدعاء من الشخص الحي صحيحاً وعلىٰ هذا الأساس فان طلب الشفاعة لايقتصر علىٰ النبي والأولياء، وبذلك يمكن أن يطلب ذلك من أي مؤمن له منزلة عندالله تعالىٰ.

يعتبر «فخرالدين الرازي» الشفاعة أيضاً بأنها الدعاء الىٰ الله تعالىٰ. ففي تفسيره لقوله تعالىٰ **«ويستغفرونَ للّذين آمنوا ربَّنا وسِعْتَ كلّ شيءٍ رحمةً»**[173] يقول: ان هذه الآية تدل علىٰ ان شفاعة حملة العرش تقتصر علىٰ المذنبين فقط.[174] كما إن شفعة نبيّنا وسائر الأنبياء تخصّ هذه الجماعة أيضاً. ذلك لأن الله تعالىٰ يأمر بقوله **«واستغفرْ لذنْبِكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ»**[175] وان النبي نوح(ع) يطلب المغفرة لنفسه ولوالديه ولمن آمن به حتىٰ يوم القيامة.[176]

---

١٧٣ ــ سورة غافر / ٧.
١٧٤ ــ ذلك لأن آخر الآية هو «وَقِهِمْ عذابَ الجَحيم».
١٧٥ ــ سورة محمد / ١٩.
١٧٦ ــ سورة نوح / ٢٨ «ربّ اغفرلي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات».

تدل الأحاديث الاسلامية بوضوح علىٰ ان دعاء المسلم لأخيه المسلم هو شفاعة حيث يروي «إبن عباس» عن النبي(ص) قوله:

«ما من رجل مسلم يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلاً لايشركون بالله شيئاً الاّ شفعهم الله فيه»[177]

يتبين من هذا الحديث بأن الداعي هو الشافع وبناءاً علىٰ ذلك فلو أوصىٰ رجل أربعين رجلاً من اصدقائه الأوفياء أن يقوموا علىٰ جنازته بعد موته ويدعوا له، فهو بذلك قد طلب منهم الشفاعة وهيأ لشفاعة عبادالله أيضاً.

يشتمل «صحيح البخاري» علىٰ باب بعنوان «اذا استشفعوا الى الإمام ليستسقي لهم لم يردهم». «اذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط». تدل روايات هذين البابين علىٰ ان طلب الدعاء هو طلب الشفاعة ذاتها، ولايجوز تفسير ذلك بشكل آخر.

الىٰ هنا ننتهي من الاستدلال الأول، ونتطرق الىٰ الاستدلال الثاني وهو إن الطلب من المؤمن مستحب فكيف والحال هذه بالنسبة لأولياء الله.

٢ ــ طلب الدعاء ممن يليق به، أمر مستحب:

١ ــ القرآن وطلب الدعاء من النبي(ص):

تشهد آيات القرآن علىٰ ان طلب النبي(ص) المغفرة للعباد هو أمر مؤثر ومفيد تماماً. ومن هذه الآيات قوله تبارك وتعالىٰ:

١ ــ **«واستغفرْ لِذنْبِكَ وللمؤمنينَ»** (سورة محمد/١٩)

٢ ــ **«وصلِّ عليهِم إنّ صلاتَك سكنٌ لَهُمْ»** (سورة التوبة/١٠٣)

طالما ان لدعاء النبي(ص) نفع لصالح الأنسان، فما هو السبب كي لايطلبوا منه أن يدعو لهم مع العلم إن طلب الدعاء هو طلب الشفاعة في الوقت ذاته.

٣ ــ **«ولو أنّهم إذْ ظَلَمُوا أنفسهم جاؤوك فاستغفرُوا اللّهَ واستغفرَ لَهُمُ الرسولُ لوجدوا الله توّاباً رَحيماً»** (سورة النساء/٦٤)

المقصود من كلمة «جاؤوك» هو إنهم جاؤوا الىٰ النبي(ص) لطلب المغفرة، ولو لاذلك لكان مجيئهم ملغياً. وهذا المجيء والطلب دليل علىٰ حصول تغيير يعد الأرضية المناسبة لأستجابة الدعاء.

٤ ــ يروي القرآن الكريم عن أولاد يعقوب(ع) بأنهم طلبوا من أبيهم أن يطلب المغفرة لهم فلبّىٰ يعقوب طلبهم وأوفىٰ بوعده فمن قوله تعالىٰ:

«قالوا يا أبانا استغفرْ لَنا ذنوبَنا إنّا كُنّا خاطِئين، قال سوف أستغفر لكم ربيّ»

---

١٧٧ ــ صحيح مسلم، المجلد الثالث، ص٥٤.

تدل هذه الآيات علىٰ ان طلب الدعاء من الأنبياء والعباد الصالحين الذي هو طلب الشفاعة أيضاً لايتنافىٰ مع أي من الموازين الاسلامية.

٢ ــ الأحاديث النبوية وسيرة الصحابة:

يروي المحدث الشهير «الترمذي» الذي هو مؤلف أحد الصحاح، يروي عن أنسٍ قوله:

«سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة فقال: أنا فاعل؛ قلت فأين أطلبك فقال: علىٰ الصراط»[١٧٨]

وطلب «سواد القارب» الذي كان أحد أصحاب الرسول(ص)، طلب منه(ص) الشفاعة في هذا البيت:

فكن لي شفيعاً يوم لاذو شفاعة بمغن فتيلاً عن سوادبن قارب[١٧٩]

يقال أن رجلاً من قبيلة «حمير» يسمىٰ «تبّع» كان قد سمع قبل ولادة الرسول(ص) بأن الله سيبعث رجلاً من أرض الجزيرة العربية فكتب «تبّع» رسالة وأوصىٰ المقربين اليه أن يسلّموها الىٰ النبي اِن. بعث يوماً. جاء في تلك الرسالة:

«و اِن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة ولا تنسىٰ»

ولما وصلت الرسالة الىٰ النبي(ص) قال ثلاث مرات:

«مرحباً بتّبع الأخ الصالح»

إذن لو كان طلب الشفاعة شركاً، لما خاطب النبي تُبَّعاً بالأخ الصالح ولم يقل له ثلاث مرات مرحباً.

طلب الشفاعة بعد الموت:

يستنبط من بعض الروايات والأحاديث بأن أصحاب الرسول(ص) كانوا يطلبون الشفاعة من روحه الطاهرة بعد وفاته. ومن هذه الأحاديث والروايات هي مايلي:

١ ــ يقول «إبن عباس»: عندما انتهىٰ أميرالمؤمنين(ع) من غسل النبي(ص) وكفنه رفع الكفن؛ عن وجهه(ص) وقال:

«بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً... واذكرنا عند ربك...»[١٨٠]

---

١٧٨ ــ كشف الأرتياب ص٢٦٣ نقلاً عن سنن الترمذي.

١٧٩ ــ قاموس الرجال لاحظ: مادة «سواد».

١٨٠ ــ نهج البلاغة ــ الخطبة ٢٣٠.

٢ ــ عندما توفىٰ الرسول(ص) كشف أبوبكر عن وجهه في داره(ص) وقبّله وقال:

«بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً... واذكرنا عند ربك...[١٨١]» إن دلت هذه الروايات علىٰ شيء فانما تدل علىٰ انه لافرق بين طلب الشفاعة من الشفيع إن كان حياً وبين طلب الشفاعة منه إن كان ميتاً. وبالاستناد الى ما ورد من الآيات والروايات والسُنة المتبعة عند المسلمين علىٰ مرّ الأعصار والقرون، فقد أصبح طلب الشفاعة أمراً بديهياً لايدع المجال **للشك فيه أبداً. هذا** وبالاضافة الىٰ ذلك فان أصحاب الرسول(ص) كانوا يطلبون الدعاء منه(ص) بعد وفاته، وبذلك لوكان طلب الدعاء منه بعد وفاته صحيحاً، فان طلب الشفاعة الذي هونوع من طلب الدعاء سيكون صحيحاً أيضاً.[١٨٢]

* * *

أدلّة الوهابين علىٰ منع طلب الشفاعة:

تعرّفنا في الفصل السابق علىٰ دلائل جواز طلب الشفاعة، وأما الآن فنحاول التطرق وبصورة مفصّلة الىٰ أدلة الجماعة المعارضة التي تمنع طلب الشفاعة من أولياء الله.

١ ــ طلب الشفاعة شركٌ:

إن ما تعنيه هذه الجماعة من الشرك ، هوالشرك في العبادة ذلك لأنهم يعتقدون بأن طلب الشفاعة من الشفيع هوعبادته.

لقد تحدثنا في الفصل الثامن وبصورة مفصلة حول العبادة، وبيّنا بأن أي طلب وحتىٰ طلب الشفاعة من الشخص لايعتبر عبادة الاّ إذا جعلنا الذي نطلب منه «إلٰهاً» أو «ربّاً» أو «مدبّراً» لشؤون العالم أو «مصدراً للأعمال الإلهية».

إن طالب الشفاعة من المُشَفَعين الحقيقيين (الذين أذِنَ الله لهم الشفاعة) يعتبرهم عباداً مقرّبين الىٰ الله تعالىٰ، فهم ليسوا «آلهةً» ولم تفوّض إليهم الأعمال الالٰهية كالمغفرة والشفاعة، ولا يمكنهم أن يستشفعوا لأحد أو يغفروا له ذنوبه بملء إرادتهم وبدون إذن الله عزّ وجلّ.

إن هؤلاء (المشفعين) يستطيعون أن يطلبوا المغفرة من الله وباذنه لأولئك الذين لم

---

١٨١ ــ كشف الارتياب ص ٢٦٥، نقلاً عن «خلاصة الكلام».

١٨٢ ــ زيادة في الاطلاع يرجىٰ مراجعة كتاب «الشفاعة ضمن إطار العقل، القرآن والحديث» للمؤلف حيث انه يحتوى علىٰ (أربع وأربعين حديثاً من كتب السنة وخمسة وخمسين حديثاً من كتب الشيعة) في هذا المجال.

تنقطع صلتهم المعنوية بالله، كمالم تنقطع صلتهم الروحية والنفسية بالمشفعين. فهذا النوع من الطلب، ممن ليس هو إلاّ عبداً مقرّباً الىٰ الله في نظر الطالب، لايعتبر عبادة له مطلقاً.

ولاّبد أن نذكر هنا بأنه لوكان هذا الطلب من الشفيع الميّت عبادة له، فلابد أن يكون الطلب من الشفيع الحي عبادة له أيضاً.

لقد ذكرنا في البحث السابق أيضاً بأن القرآن والسنة يحتّمان علىٰ المسلمين أن يأتوا الىٰ النبي(ص) ويطلبوا منه كي يستغفر لهم، وان هذا الطلب ليس سوىٰ طلب الشفاعة من الشفيع وهوعلىٰ قيد الحياة ولايمكن أبداً أن يكون نفس العمل شركاً في زمان واعتقاداً بوحدانية في زمان آخر.

* * *

٢ ــ شرك المشركين كان بسبب طلب الشفاعة من الأصنام:

إن الاستدلال الثاني الذي تُحرّم «جماعة الوهابية» بموجبه طلب الشفاعة من أولياء الله هو قولهم بأن الله تعالىٰ اعتبر عبدة الأصنام في الحجاز مشركين، ذلك لأنهم كانوا يطلبون الشفاعة من أصنامهم، كما كانوا يبكون أمامها ويطلبون الوساطة منها. والدليل علىٰ ذلك هو الآية التالية:

«ويعبدونَ من دونِ اللهِ ما لايضرُّهُم ولاينفعهم ويقولون هٰؤلاءِ شفعاؤُنا عندالله»[١٨٣]

وعلىٰ هذا الأساس فان طلب الشفاعة من دون الله يعتبر شركاً بالله وعبادةً للشفيع.

الجواب: أولاً، ليس في هذه الآية ما يدلّ علىٰ ما استنتجه الوهابيون منها. فإن القرآن يعتبر هؤلاء من المشركين، ليس لأجل أنهم طلبوا الشفاعة من الأصنام بل انّما هو بسبب عبادتهم لها وراء إستشفاعهم إليها. ولوكان طلب الشفاعة من الأصنام هو في الواقع عبادتها لمادعت الضرورة كي يذكر القرآن عبارة «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا» إضافة الىٰ جملة «ويعبدون».

فالجملة الأخيرة جاءت عطفاً علىٰ الجملة التي ماقبلها، وهذا دليل علىٰ ان موضوع عبادة الأصنام يختلف مع موضوع طلب الشفاعة منهم. إن عبادة الأصنام هو دليل علىٰ الشرك بالله، وأما الاستشفاع بالحجر والخشب هو عمل بعيد عن العلم والمنطق، ودليل علىٰ الحماقة. فالآية لاتدل علىٰ أن طلب الشفاعة من الأصنام هو عبادتها فكيف إذن يمكن اعتبار الاستشفاع بأولياء الله دليلاً علىٰ عبادتهم.

---

١٨٣ ــ سورة يونس / ١٨.

ثانياً: لنفترض إن استشفاع المشركين من «الأصنام» كان سبباً في «شركهم» ولكن هناك فارق كبير بين هذا «الاستشفاع» و «إستشفاع» المسلمين. إذ ان المشركين كانوا يعتبرون الأصنام مالكة للشفاعة وأصحاب الخيار في المسائل المتعلقة بـ «المغفرة» و «الشفاعة» وكأن الله تعالىٰ قد جُرّد من هذه الصلاحيات وأسندها الىٰ الأصنام. إن طلب الشفاعة من الأصنام والحالة هذه، هو بالطبع عبادةٌ لها، ذلك لأن طلب الشفاعة في هذه الحالة يأتي بناءً للاعتقاد بـ «الوهية» و «ربوبية» الأصنام، واعتبارها «مصدراً للأعمال الالٰهية». هذا في حين إن الشخص المسلم يطلب الدعاء والشفاعة من الشفيع باعتباره عبداً مقرباً الىٰ الله، و «عبداً مأذوناً من قِبله تعالىٰ في مسألة الشفاعة». إن مقارنة هذين النوعين من الشفاعة مع بعضهما، وتفضيل أحدهما علىٰ الآخر هو عمل بعيد عن الانصاف.

٣ ـ طلب الحاجة من غير الله حرامٌ:

إن دليلهم الثالث علىٰ تحريم طلب الشفاعة من الأولياء هو ماينص عليه القرآن، وهو عدم جواز دعوة غيرالله عندالدعاء وطلب الشفاعة من غيرالله دعوة غيرالله معه وهو كطلب الحاجة من غيرالله ايضاً. قال تعالىٰ «**فلا تدعُوا مَعَ الله اَحداً**»[١٨٤] ولما أن دعوة غيرالله حرامٌ، ومن جانب آخر ان الشفاعة للأولياء ثابتة، فالمطلوب أن ندعو، بالشفاعة للأولياء من الله تعالىٰ، لا من الأولياء أنفسهم. والآية التالية هي دليل علىٰ ان هذه الدعوات عبادة:

«**أدعوني أستجبْ لَكُم إنّ الّذين يستكبرونَ عن عبادتِي سيد خُلون جهنَّمَ داخِرينَ**».[١٨٥]

فلو تمحّصنا في هذه الآية نرىٰ بأن كلمة «الدعوة» جاءت في بداية الآية، وكلمة العبادة جاءت في آخرها، وهذا دليل علىٰ ان للكلمتين نفس المعنىٰ. وجاء في كتب الأخلاق:

«اَلدُّعاء مُخُّ العِبادة»

الجواب: أولاً، إن المقصود من تحريم دعوة غير الله في جملة «فلاتدعوا» ليس الدعوة المطلقة، إنما المقصود هو تحريم العبادة لغير الله والدليل علىٰ ذلك هو قوله تعالىٰ «**وان المساجد لله**» الذي جاء قبل هذه الآية.

إن الجملة الأخيرة تدل علىٰ ان المقصود من الدعوة في الآية المذكورة، هو تلك

---

١٨٤ ـ سورة الجنّ / ٨.

١٨٥ ـ سورة غافر / ٦٠.

الدعوة الخاصة التي ترافقها العبادة والخضوع الكامل لمن يعتبر خالق الكون و «ربّاً» وحاكماً مطلقاً علىٰ عالم الخلق.[186] وليس هناك قيوداً تحول دون طلب الشفاعة من عبدٍ منحه الله حق الشفاعة وهو يشفع باذنه.

ثانياً: إن ما تحرّمه هذه الآية هو أنْ لا ندعوا مع الله أحداً، ولا نجعله علىٰ مستوىٰ الله. حيث إن جملة «مع الله» هي دليل واضح علىٰ مانقول.

ولو كانت بعض الآيات تعتبر طلب الحاجة من الأصنام شركاً، فهو بدليل إنهم كانوا يعتبرون الأصنام آلهةً صغار بيدها الخيار في كافة أعمال الله أو بعضها كما هي قادرة علىٰ تنفيذ مقاصدها. لذلك فان القرآن الكريم ينتقد هذه الأفكار بقوله:

«والَّذين تدعوُن من دونه لايستطيعونَ نصركم ولا أنفسهم ينصُرون»[187]

وجاء في قوله تعالىٰ:

«إنّ الَّذين تدعوُن من دونِ الله عِبادٌ أمثالكم»[188]

خلاصة القول، ان المشركين كانوا يعتبرون أصنامهم آلهةً صغار وهي مخولة بشكل مطلق علىٰ صلاحيات أفعال الله، إلاّ ان طلب الشفاعة والدعاء من شخص منحه الله هذا الحق وهذه المنزلة، فاقد لهذا الخصائص والشروط.

ثالثاً: إن للدعوة معنىً شاملاً، حتىٰ إنها تستعمل أحياناً وبصورة مجازية في العبادة أيضاً، كما استدل به في الآية[189] والحديث[190]. هذا في حين أن هذه الاستعمالات الفرعية والتي تأتي بصورة مجازية، لا تدل علىٰ أن نفسّر الدعوة بمعنىٰ العبادة دوماً. وأن نعتبر طلب الحاجة والدعاء من أحد وبشكل معقول عبادة وشركاً.

٤ ــ الشفاعة حقٌ يخص الله فقط:

تشير الآية التالية:

«أم اتَّخذوا من دونِ الله شُفعاءً قُلْ أوَلَوْ كانوا لايملكونَ شَيْئاً ولايعقلون قُلْ لِلّه الشفاعة جميعاً»[191] **إلى ان الشفاعة هي حق يخص الله تعالىٰ فقط. إذن ماذا يعني طلب الشفاعة من غير الله؟**

---

١٨٦ ــ إن معنىٰ الآية في الواقع هو «فلا تعبدوا مع الله أحداً» كما يقول في الآية التالية: «ولا يدعوا مع الله إلٰهاً آخر».

١٨٧ ــ سورة الأعراف / ١٩٧.

١٨٨ ــ سورة الأعراف / ١٩٤.

١٨٩ ــ «أُدعوني أستجب لكم إنَّ الَّذين يستكبرونَ».

١٩٠ ــ الدعاء مخ العبادة.

١٩١ ــ سورة الزمر / ٤٣ ــ ٤٤.

الجواب : إذن ماذا يعني طلب الشفاعة من غيرالله؟.

إن جملة «لله الشفاعة جميعاً» لا تعني بأن الله وحده هوالذي يشفع ولا يحقّ لمن سواه أن يشفع. ذلك إن ما لاشك فيه هو إن الله تعالىٰ لايستشفع لأحدٍ عند آخر بل تعني أنه مالك أصل الشفاعة و إن الأصنام ليست مالكةً للشفاعة، ذلك لأن مالك الشفاعة يجب ان يكون له عقل وشعور، وفي يده **ملك شيء في حين إن الأصنام التي عبدها المشركون كانت تفتقد هذان الشرطان.حيث يقول سبحانه وتعالىٰ «قل أولوكانوا لايملكون شيئاً**»فعلىٰ هذا الأساس إن الحديث يتركز علىٰ إن الله هو مالک الشفاعة وليست الأصنام مالكة وان الله يأذن لمن تتوفر فيه القابلية واللياقة أن يستشفع لعباده. وأما المسلمون فهم يعتبرون الله وحده «مالك الشفاعة» وليس الأولياء، وأما من يأذن له، فهو القادر علىٰ الاستشفاع دون غيره كما أنهم يعتقدون بالاستناد الىٰ الآيات والروايات بأن الله قد أذن للنبي(ص) بالشفاعة ولذلك فنحن نستشفع به (ص) بصفته المأذون (لامالك الشفاعة) اذن ما هي العلاقة بين هذا الحديث ومضمون تلك الآية ؟.

٥ ــ طلب الشفاعة من الميّت ملغىٰ:

إن آخر استدلال لـ«جماعة الوهابية»، هو أن طلب الشفاعة من أولياء الله في هذه الدنيا، هوطلب الحاجة من الميّت الذي فقد حاسة سمعه. ودليلهم علىٰ ذلك هوما جاء في القرآن الكريم، حيث يقول عزّ وجلّ :

أ ــ «إنك لا تسمع الموتىٰ، ولا تُسمع الصمُّ الدعاء إذا ولّوا مُدبرينَ» [١٩٢]

إن القرآن الكريم يشّبه المشركين بالموتىٰ في هذه الآية، ويقول إنك لا تستطيع أن تفهم هذه الجماعة (المشركين)، ذلك لأنهم لايفهمون كما لايفهم الموتىٰ. فلو كان الموتىٰ قادرين على التكلم والسماع، لما كان صحيحاً تشبيههم بالموتىٰ وبطل هدف الآية.

ب ــ «إنّ الله يَسمعُ من يشاءُ وما أنتَ بمسمع من في القبورِ»[١٩٣]

إن الاستدلال بهذه الآية هو شبيه بالاستدلال بالآية التي ما قبلها. وبذلك فأن طلب الشفاعة من الميّت هو كطلب الشفاعة من الجسم الجامد.

الجواب:

إن «جماعة الوهابية» تلجأ دوماً الىٰ مسألة الشرك في ردّ الفِرَق الاسلامية الأُخرىٰ وتتهم الآخرين بالكفر تحت ستار الدفاع عن التوحيد (وحدانية الله واختصاص العبادة به). ولكنها غيّرت اسلوبها في الاستدلال هذه المرة، وطرحت موضوع لغوالاهتمام

---

١٩٢ ــ سورة النحل / ٨٠.

١٩٣ ــ سورة فاطر / ٢٢.

بأولياء الله بيد أنها غافلة عن ان أولياء الله هم أحياءٌ استناداً الىٰ الأدلة العقلية [194] والنقلية[195]. وأما الآيات التي وردت أعلاه فهي تعني دون شك بأن الأجساد الراقدة تحت الأرض غير قادرة علىٰ التفهم، وان كل جسد تُجرّد الروح منه يتحول الىٰ جماد لافهم ولا إدراك له ولكن يجب أن نعلم بأن من نخاطبه ونستشفع اليه وكما يؤكد عليه القرآن الكريم ليس الجسد المدفون تحت الأرض، إنما هي الروح الطاهرة والحية التي تعيش مع الأجساد البرزخية في عالم البرزخ.

فلو لم تتمكن الأجساد المدفونة تحت الأرض علىٰ الادراك والتفهم، فهذا لايدلّ علىٰ ان أرواحها ونفوسها الطيّبة التي هي حية ترزق في عالم آخر، غير قادرة علىٰ الأدراك والتفهم. إن سلامنا وتحياتنا هي لتلك الأرواح، والشفاعة التي نطلبها هي منها أيضاً. وإذا قمنا بزيارة قبور الموتىٰ وآثارهم فهو بدليل اننا نريد بهذه الصورة أن نخلق في أنفسنا الاستعداد للاتصال بأرواحهم، حتىٰ لو علمنا بأن أجسادهم قد تحولت الىٰ رماد (بالرغم من إنّ الروايات تؤكد عكس ذلك).

* * *

---

١٩٤ ــ تستوجب الأدلة علىٰ تجرّد النفس من المادة بعد إنفصالها عن الجسم، وعدم حاجتها الى الجسم المادي أن تظل الروح باقية بعد الموت أيضاً. وأن تتحلىٰ بادراك خاصٍ أيضاً، وقد برهن كبار فلاسفة الاسلام بدلائل عشرة بقاءِ الروح وتعاليها علىٰ المادة. وبذلك فهم لم يدعوا المجال لأي منصف أن يشك في ذلك.

١٩٥ ــ تشهد الآية ١٦٩ و١٧٠ من سورة آل عمران والآية ٤١ من سورة النساء، والآية ٤٥ من سورة الأحزاب، والآية ١٠٠ من سورة المؤمنون، والآية ٤٦ من سورة غافر ــ علىٰ ان الحياة تستمر بعد الموت أيضاً. وقد بحثنا ذلك في المواضيع السابقة. وأما الأحاديث التي تخص استمرار حياة روح المؤمن والكافر بعد الموت كثيرة جداً لايسع المجال لذكرها هنا.

الفصل الثاني عشر:

هل الاعتقاد بالقدرة الغيبية شركٌ ؟

مما لاشك فيه ان طلب الحاجة وبصورة جادة لايتم الاّ إذا تأكّد الشخص بأن الذي يدعوه قادر على تلبية حاجته.

إنّ هذه القدرة هي قدرة ظاهرية ومادية حيناً. كأن نطلب الماء من شخص، وأن يملأ الشخص وعاءً بالماء ويضعه في متناول يدنا.

كما يمكنها أن تكون قدرة غيبية تأتي من غير مجراها الطبيعي، وتخرج عن إطار القوانين المادية حيناً آخر. كأن يؤمن الانسان مثلاً بأن الامام علي(ع) قادر علىٰ قلع باب «خيبر» من مكانه بقدرة غيبية تفوق قدرة الانسان العادي. أو انّ المسيح (ع) قادر علىٰ شفاء مريض يصعب علاجه، دون الحاجة الىٰ دواء أوعملية جراحية. إن الاعتقاد بهذه القدرة الغيبية، يكون كالاعتقاد بالقدرة المادية اذا كان هذا الاعتقاد مسنداً الىٰ قدرة الله وإذنه. وهذا ليس شركاً، ذلك لأنّ الله الذي وهب تلك القدرة المادية لشخص، هو قادر علىٰ أن يَهب القدرة الغيبية لشخص آخر، دون إفتراض المخلوق خالقاً، وعديم الحاجة الىٰ الله تعالىٰ.

* * *

رأي الوهابيين:

يقول هؤلاء إنه لوطلب شخص من أحد أولياء الله حياً كان أو ميتاً، أن يشفي له مريضه أو يعيدله من فقدهُ، أو يسدد دَينَهُ، يكون بذلك قد آمن بوجود قدرة لدىٰ من دعاه بحيث انه يسيطر بها علىٰ نظام الطبيعة والقوانين السائدة في عالم الخلق. وان الاعتقاد

والايمان بهذه القدرة والسلطة عند من هو دون الله تعالىٰ، هو نفس الاعتقاد بـ«اُلوهيته»، وان طلب الحاجة منه مع وجود هذا القيد هو شرك ٌ.

لو طلب العطشان في الصحراء ماءاً من خادمه، فعمله هذا هو تطبيق للقوانين السائدة في الطبيعة وليس شركاً؛ ولكن لو طلب ذلك من إمام أو نبي يرقد تحت التراب أو يعيش في مكان آخر، فآن ذلك يأتي جنباً الىٰ جنب الاعتقاد بقدرته وسلطته الغيبية التي يمكنه علىٰ اثرها أن يهيء الماءَ لمن دعاه دون وجود أسباب وعوامل مادية. وهذا الاعتقاد هو عين الأعتقاد بـ«الوهية» المدعو الذي هو الإمام أو النبي.

إن «أبو الأعلا المودودي» هو أحد الذين يؤيد هذا الرأي، حيث يقول:

«إن التصور الذي لأجله يدعو الانسان الإلٰه ويستغيثه ويتضرع اليه هو لاجرم تصور كونه مالكاً للسلطة المهيمنة علىٰ قوانين الطبيعية». [196]

رأينا في هذا الكلام:

إن الخطأ الذي ارتكبه المودودي هو انه تصوّر بأن الاعتقاد بالسلطة الغيبية، هو على الأطلاق سبب في الشرك والازدواجية في العبادة. إذ انه لم يحاول، أو لم يتمكن أن يفصل بين الاعتقاد بالقدرة والسلطة التي تعتمد علىٰ قدرة الله وسلطته وبين السلطة المستقلة عن الله تعالىٰ. علماً بأن الأعتقاد الأخير هو سبب الشرك .

إن القرآن الكريم يذكر بصراحة تامة أسماء اشخاص كانت لهم سلطة غيبية، وكانت إرادتهم هي الغالبة علىٰ القوانين الطبيعية. وهؤلاء هم:

١ ــ السلطة الغيبية ليوسف(ع):

يقول يوسف لإخوته:

«اِذْهَبوا بقميصِي هٰذا فألقوهُ علىٰ وجهِ أبي يأتِ بصيراً ... فلمّا اَن جاءَ البشيرُ ألقاهُ علىٰ وجههِ فارتدّ بَصيراً» (سورة يوسف / ٩٣ و٩٦)

يدل ظاهر هذه الآية علىٰ إن يعقوب(ع) استعاد بصره بناءاً للارادة والقدرة الاكتسابية التي كان يتحلىٰ بها يوسف(ع) وإن هذا العمل لم يكن عملاً مباشراً من قبل الله تعالىٰ، إنما جاء بصورة غير مباشرة وبواسطة يوسف(ع) الذي أصبح «سبباً» ولولا ذلك لما كان هناك دليل كي يأمر يوسف إخوانه أن يذهبوا بقميصه ويلقوه علىٰ وجه أبيه، إنما كان يكفيه أن يدعو الىٰ الله فقط. إلاّ ان هذا التصرّف هو خاصٌ بولي الله ولايقدر عليه إلاّ باذنه تعالىٰ ولفاعله السلطة الغيبية التي وهبها الله له في حالة خاصة.

---

١٩٦ ــ المصطلحات الأربعة ص١٨.

٢ ــ السلطة الغيبية لموسىٰ(ع):

يخوّلُ الله تعالىٰ النبي موسىٰ(ع) كي يضرب بعصاه الجبل ليفجّر به اثنتي عشرة عيناً تساوي عدد قبائل أبناء إسرائيل. حيث يقول سبحانه عزّ وجلّ:

«اضربْ بِعَصاكَ الحجَر فانفجرتْ منه إثنتا عشَرة عيْناً» (البقرة / ٦٠)

ومن جهة اخرىٰ يأمر الله النبيَّ موسىٰ(ع) كي يضرب بعصاه البحر، ليتحول كل قسم من الماء الىٰ مايشبه الجبل ليعبر منه بني إسرائيل. حيث يقول عزّ وجلّ:

«فأوحينا الىٰ موسىٰ أن اضربْ بعصاكَ البحْرَ فانفلقَ، وكان كل فرقٍ كالطورِ العظيم». (الشعراء / ٦٣)

إننا لانستطيع هنا أن نقول بأنه لم يكن لأرادة موسىٰ(ع) وضربه العصا، علاقةً في تفجُّرِ العيون وايجاد مايشبه الجبل.

٣ ــ السلطة الغيبية لسليمان(ع):

لقد كانت للنبيِّ سليمان الذي كان من كبار أولياء الله قُدرات غيبية عالية وهو يشير الىٰ هذه المواهب الالٰهية العظيمة في الآية السادسة عشرة من سورة النمل، حيث يقول «وأوتينا من كل شيء..» وقد جاءت هذه المواهب في الآيات (١٧ ــ ٤٤) من نفس السورة، وفي الآية (٨١) من سورة الأنبياء، والآيات (٣٦ ــ ٤٠) من سورة ص. وهنا نذكر بعض الآيات الخاصة بولي الله سليمان(ع)، كي يطّلع القُرّاء الأعزاء علىٰ عظمة القدرة التي وهبها الله إيّاه، وكذلك لكي يتبين لنا بأن الاعتقاد بالقدرة الغيبية هو أمر أخبرنا القرآن به. فعلىٰ ضوء ما جاء في القرآن الكريم نعلم بأنه كانت لسليمان(ع) السلطة علىٰ الجنّ والطيور، كما كان يعلم منطق الطيور والحشرات، حيث يقول سبحانه و تعالىٰ في كتابه الكريم:

«وورِث سليمانُ داوُدَ وقال يا أيُّها النّاس عُلِّمنا منطقَ الطير وأوتينا من كلِّ شيءٍ، إن هذا لهوالفضل المبين. وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والانس والطير فهم يوزَعون. حتىٰ إذا أتوا على وادِ النمل قالت نملةٌ يا أيُّها النَّمل ادخلوا مساكنكم لاَ يحطمنَّكُم سليمانُ وجنوده وهم لايشعرونَ فتبسَّم ضاحكاً من قولها وقال ربِّ أوزِعني أن اَشكرَ نعمتَك الّتي أنعمتَ عليَّ وعلىٰ والديَّ» (سورة النمل / ١٦ ــ ١٩)

ولو قرأت عزيزي القارئ قصة «الهدهد» الذي حمّله سليمان رسالةً الىٰ ملكة سبأستنتابك الحيرة والدهشة علىٰ القدرة الغيبية التي كان يتحلىٰ بها سليمان(ع). لذلك نرجو مطالعة الآيات (٢٠ ــ ٤٤) من سورة النمل والتمعّن فيها.

إن القرآن الكريم يشير بوضوح الىٰ ان سليمان(ع) كان يحظىٰ بسلطة غيبية، حتىٰ إن الرياح كانت تجري بأمره وبناءاً لطلبه. فمن قوله تعالىٰ:

«ولسُليمانَ الرّيح عاصفة تجري بأمرهِ الىٰ الأرضِ الّتي باركْنا فيها وكنّا بكلّ شيءٍ عالمينَ» (سورة الأنبياء / ٨١)

إن ما يلفت الإنتباه في هذه الآية هو عبارة «تجري بأمره» والتي تدلّ علىٰ ان الريح كانت تجري بأمره.

٤ ــ المسيح (ع) والسلطة الغيبية:

يمكننا من خلال التمعّن في آيات القرآن الكريم أن نعلم القدرة الغيبية التي كان يتحلىٰ بها السيد المسيح (ع) وللاشارة الىٰ مكانته ومنزلته (ع) نذكر الآية التالية التي يروي فيها القرآن عن المسيح (ع) قوله:

«إنّي اخلقُ لكم من الطّينِ كهيئةِ الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باِذن الله. وأُبرئُ الأكمه والأبرصَ وأُحيي الموتىٰ باذنِ الله وأُنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنينَ» (آل عمران / ٤٩)

إن كان المسيح (ع) يعتبر تصرفاته رهينةً باذن الله تعالىٰ، فهو بدليل انه لم يكن لأي نبيّ القدرة علىٰ هذا النوع من التصرف إلاّ باذنه تعالىٰ، حيث يقول عزَّ وجلّ:

«وما كانَ لِرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلاّ بإذنِ الله» (الرعد / ٣٨)

في الوقت ذاته فهو أي المسيح (ع) ينسب الأعمال الغيبية الىٰ نفسه ويقول، أنا أشفي، أنا احيي، أنا أنبيء، والدليل علىٰ ذلك هو الجمل التالية التي هي صيغة المتكلم: «أُبرىء» احيي، أُنبئكم».

هذا وان يوسف وموسىٰ وسليمان والمسيح (ع) لم يكونوا وحدهم الذين يتحلّون بالقدرة الغيبية ومافوق الطبيعة، ذلك لأنه كان ولا زال هنالك جمعٌ من الأنبياء[١٩٧] والملائكة ممن يتحلّون بالسلطة الغيبية. إذ إن القرآن الكريم يصف جبرائيل بـ«شديد القوىٰ»،[١٩٨] وكذلك يصف الملائكة بـ(والمدبّرات أمراً)[١٩٩].

إن القرآن الكريم يصف الملائكة بأنها، مدبّرات شؤون العالم، قابضات الأرواح، حماة وحراس البشر، كاتبات الأعمال، فانيات الأقوام والملل الطاغية.. والخ. لذلك يعلم من له أقلّ إلمامٍ بالقرآن الكريم بأن للملائكة قدرات غيبية، وإنها تنجز أعمالاً إستثنائية وإعجازية باذن الله وقوته.

---

١٩٧ ــ إنّ الحديث حول السلطة الغيبية للأنبياء وأولياء الله يستحق رسالة مستقلة ولذلك فقد بحثنا ذلك بصورة مفصلة في كتاب «القدرة المعنوية للأنبياء» الذي تم طبعه.

١٩٨ ــ سورة النجم / ٥.

١٩٩ ــ سورة النازعات / ٥.

لوكان الأعتقاد بالسلطة يستلزم الاعتقاد بالوهية من له هذه السلطة، لكان من المفروض أن تعتبر كل الملائكة آلهةً. غير ان الحل هو ما ذُكر، أي أن نميّز بين القدرة المستقلة والقدرة المكتسبة، ذلك لأن الأعتقاد بالقدرة المستقلة في أي حال من الأحوال ننجم عنه الشرك ، في حين انّ الاعتقاد بالقدرة المكتسبة حول أي عمل كان، هو لتوحيد بذاته.

الىٰ هنا تبين بأن الاعتقاد بـ «القدرة الغيبية» لدىٰ أولياء الله لن يرافقه الشرك فحسب إنما هو التوحيد بعينه بشرط أن تعتبر هذه القدرة مسندة الىٰ القدرة الأزلية لله تعالىٰ. كما تبين بأنه لايشترط في التوحيد أن نسند الأفعال المعتمدة علىٰ القوىٰ الطبيعية الىٰ الأنسان، ونسند الأفعال المعتمدة علىٰ القوىٰ الغيبية الىٰ الله تعالىٰ، لابل إن حقيقة التوحيد هي أن نسند كل الأفعال الىٰ الله، ومن ثم نعتبر كل القوىٰ والنشاطات نابعة منه.

أما الآن فقد آن الأوان كي نبتّ في طلب الأعمال الاستثنائية والاعجازية من أولياء الله تعالىٰ.

هل إنّ طلب الأعمال الاعجازية شركٌ ؟:

لكل ظاهرة سبب وفقاً لقانون «السبب والمسبب» ولايمكن أن يكون لها وجود من دون ذلك السبب. وبالتالي لا توجد في العالم ظاهرة دون أن يكون لها سبب. كما أن، إعجاز الأولياء والأنبياء لم يكن بدون سبب، بيد أن السبب ليس سبباً مادياً وطبيعياً وهذا يختلف مع أن نقول بأنه ليس لهذا الاعجاز سبب.

فلو تحولت عصا موسىٰ الىٰ افعى، وأحيىٰ المسيح الموتىٰ، وانشقّ القمر بواسطة نبي الاسلام(ص) وتحوّلت الرمال في يده(ص) الىٰ سبحة و... كل ذلك لم يكن بلاسبب، ولكن الملاحظ في هذه الحالات هو ان السبب لم يكن طبيعياً أو مادياً كما هو معروف لدينا. كذلك لايمكن أن يقال بأنه لم يكن هناك سبب بالبتة.

يبدو في بعض الأحيان أن طلب الأعمال الطبيعية (العادية) شرك ، ولكن طلب الأعمال الاستثنائية ليس شركاً. هذا الرأي هو مانتناوله هنا كالآتي.

الجواب: يذكّر القرآن الكريم بحالات طلبَ فيها من الأنبياء أو من غيرهم أن ينجزوا أعمالاً إستثنائية تخرج عن إطار القوانين الطبيعية والمادية، وينقل هذا الطلب دون أن يوجّه الانتقاد اليه. فعلىٰ سبيل المثال ان قوم موسىٰ طلبوا منه(ع) أن يهيء لهم الماء والمطر وينقذهم من الجفاف الذي كانوا يعانون منه. فمن قوله تعالىٰ:

«وأوحينا الىٰ موسىٰ، إذِ استسقاه قومه أنْاضرب بعصاك الحجرَ»[٢٠٠]
(الأعراف / ١١٦)

يمكن أن يقال بأنه لامانع من طلب الاَعجاز من الشخص الحيّ، ولكن الحديث يدور حول الطلب من الميّت، والجواب علىٰ ذلك هو واضح، حيث ان الحياة والموت لايستطيعان أن يُحدثا تغييراً في عمل يتّفق مع أصل التوحيد، بحيث يمكن معه أن نعتبر أحدهما شركاً والآخر توحيداً بعينه، إن الحياة والموت يمكنهما أن يتركا اثراً علىٰ فائدة الطلب أو عدمها، ولايمكنهما أن يؤثرا في موضوع التوحيد والشرك .

يطلب سليمان عرش بلقيس:

طلب سليمان من الحضار في مجلسه أن يقوموا بالاعجاز لاحضار عرش بلقيس قائلاً:

«أيُّكم يأتِيني بعرشِها قبل أن يأتوني مُسلمين، قال عفريب من الجنِّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامِك» (النمل / ٣٨ — ٣٩)

فلو كان هذا الرأي صحيحاً، لكان من المفروض أن يعتبر طلب الاعجاز ممن إدَّعىٰ النبوة في كافة الأعصار والقرون كفراً وشركاً، ذلك لأن الناس كانوا يطلبون الاعجاز الذي كان عملاً إستثنائياً، ممَن كان يدَّعي النبوة، ولم يطلبوا ذلك من الله الذي بعثه. إذ كانوا يقولون:

«إنْ كُنتَ جِئْتَ بآيةٍ فأتِ بها إنْ كنتَ من الصّادقين» (الأعراف / ١٠٦)

لقد كانت الشعوب كافة تعتمد هذه الوسيلة (أي طلب الاعجاز) لتميّز بها بين النبيّ الحقيقي والمتنبيّ الكاذب، كما ان الأنبياء أنفسهم كانوا يدعون شعوب العالم دوماً الىٰ مشاهدة إعجازهم، وان القرآن الكريم يروي الحوار الذي كان يجري بين الشعوب ودعاة النبوة حول طلب الاعجاز دون أن ينكره، وهذا ما يدلُّ علىٰ أنه كان أمراً مقبولاً.

فلو جاءت طائفة الىٰ السيد المسيح (ع) وقالت، لوكنت صادقاً في إدعائك فاسترد بصر هذا الأعمىٰ أو اشفِ هذا الذي اصيب بمرض البَرصْ، فهي لن تعتبر مشركة فحسب بل تُعدُّ من المتحريات عن الحقيقة، وتثاب علىٰ عملها هذا. أما لوطلبت أمة المسيح (ع) من روحه الطاهرة بعد وفاته أن تشفي مريضاً آخر لها، فلما ذا نعتبرها والحال هذه مشركة في حين إن موته وحياته لايؤثر ان في الشرك والتوحيد.[٢٠١]

---

٢٠٠ — يرجىٰ مراجعة الآية (٦٠) من سورة البقرة أيضاً.

٢٠١ — للاطلاع علىٰ معجزات السيد المسيح (ع) يرجىٰ مراجعة الآية ٤٩ من سورة آل عمران وكذلك الآيتين ١٠٠ و ١١٠ من سورة المائدة.

خلاصة القول إن القرآن الكريم يشير بوضوح الى انه كانت هنالك جماعة من العباد قد اصطفاهم الله ووهبهم القدرة على تنفيذ أعمال اعجازية وكان هؤلاء يستعملون هذه القدرة في بعض الحالات، كما كان هناك أشخاص يأتون إليهم ويطلبون منهم الاستفادة من هذه القدرة. لهذا فان آيات القرآن الكريم تشهد خلافاً لما يدّعيه «الوهابي» لو قال: بأنه لا أحد غيرالله يستطيع القيام بأعمال كهذه. فان قال الوهابي: إن طلب عمل بهذه الطريقة (الإعجاز) شرك ٌ، فلما ذا طلبه سليمان(ع) وغيره. وإن قال بأن طلب الحاجة من الأولياء بطريقة إعجازية يرافقه الاعتقاد بسلطتهم الغيبية، فنحن نجيب بأن الاعتقاد بالسلطة الغيبية هو على نوعين، أحدهما التوحيد بعينه، والآخر سبب الشرك . ولو قال: إن طلب الكرامات من الأولياء الأحياء جائز، ولكن طلبها من الموتى منهم غير جائز، فالجواب على ذلك هو إن الموت والحياة ليسا شرطاً في الشرك والتوحيد.

وإن قال: إن طلب الشفاء للمريض، وتسديد الدّين بطريقة غيرعادية، هو طلب عمل الله من غيرالله ... فنحن نقول إنَّ شرط الشرك هو أن نجعل من الذي ندعوه إلهاً أو مصدراً للأعمال الالهية وإن طلب عمل غيرعاديٍ لايعني طلب عمل إلهي من غيرالله، ذلك لأن مقياس العمل الالهي ليس هو تعاليه على حدود القوانين العادية كي يكون هذاالطلب، طلب عمل الله، من عبده، بل إن مقياس العمل الالهي، هو أن يكون فاعله (العمل الإلهي) مستقلاً. ولكن لو أنجز فاعلٌ عملاً بالاعتقاد على قدرة الله، فان طلب عمل كهذا، ليس طلب عمل الله من غير الله، سواءٌ كان العمل عادياً أو غيرعادي.

أما مايخص طلب الشفاء من عبادالله فنقول: إنه يعتقد في بعض الأحيان بأن طلب الشفاء وماشابه ذلك من الأولياء، هو طلب عمل إلهي من غيرالله تعالى، ذلك لأن القرآن يقول:

«واذا مرضتُ فهويشْفِينِ» (الشعراء / ٨٠)

فكيف نقول يا رسول الله إشفِ مرضي؟ وهكذا الحال بالنسبة لجميع الطلبات التي فيها حالة إعجازية.

الجواب: إن هذه الجماعة لم تميّز بين الأعمال الالهية والاعمال الانسانية، ولذلك فهيَ تتصور بأن أي عمل يخرج عن مجراه الطبيعي، يستوجب تسميته بالعمل الالهي كما يجب إعتبار كل عمل طبيعي له سبب مادي، عملاً إنسانياً (من صنع الانسان). كما إنها لم ترغب أو لم تستطع أن تميّز بين مقياس العمل الالهي وغير الالهي حيث إن الأعمال البشرية والالهية لا تقاس أبداً على إعتبار إنها أعمال عادية أو غير عادية، إذ لولاه لكان من المفروض أن تعتبر أعمال «المرتاضين» أعمالاً الهيةً، وان يعتبر «المرتاضون» جميعاً «آلهةً».

إنَّ المقياس في الأعمال الالٰهية هو أن الفاعل يعتمد علىٰ نفسه ولا يستعين بغيره في عمله. وان أي عمل كهذا يعتبر عملاً إلٰهياً. وأما من ينجز عملاً علىٰ ضوء القدرة الالٰهية فان عمله هذا ليس عملاً الٰهياً حتىٰ وان كان العمل عادياً ومادياً، أو خارجاً عن نطاق العادة.

إنَّ الانسان يعتمد علىٰ الله ويستعين بقدرته في أي عمل سواء كان عادياً أو خارجاً عن نطاق العادة والقوانين الطبيعية. وان العمل الذي ينجزه، فهو بقدرة إكتسبها من الله تعالىٰ. لذا فان تملّك هذه القدرة واستغلالها في الوصول الىٰ مآربه، أو الطلب إليه لاستغلالها لايعتبر سبباً في الشرك ، ذلك لأننا في كل الأحوال نقول بأن الله هو الذي أعطاه هذه القدرة، وهو الذي أذن له بالاستفادة منها.

يقول الاستاذ الكبير آية الله العظمىٰ الإمام الخميني حفظه الله، فيما يخص معرفة العمل الإلٰهي:

إن العمل الالٰهي هو عبارة عن عمل ينجزه الفاعل دون تدخل الآخرين، وبدون الاستعانة بقوة من سواه.

بعبارة أُخرىٰ، إن العمل الالٰهي هو ذلك العمل الذي يكون الفاعل مستقلاً وعديم الحاجة الىٰ الغير في انجازه وأما العمل غير الالٰهي فهو عكس ذلك بالضبط.

إنّ الله يخلق، يرزق ويشفي، وانّ كافة أعماله تتم بدون الاستعانة بقوة غيره ولا سلطة لأحد في أعماله كلاً كان ام بعضاً، كما إن قدرته وقوته غير مكتسبة من غيره. أمّا غير الله تعالىٰ، إنْ أنجز عملاً عادياً وبسيطاً كان، أم غير عادي وصعب، فانَّ قوته ليست منه، ولم ينجزه بقدرته.[٢٠٢]

بعبارة اخرىٰ: إننا سننحرف عن جادة التوحيد كلّما اعتبرنا كائناً من حيث الوجود مستقلاً، غير محتاج الى شيء وذلك لأن الأعتقاد بالاستقلال في الوجود يعادل عدم حاجة ذلك الكائن لله في وجوده. وليس في الوجود كائن سوىٰ الله الذي لايحتاج لشيء ولايرتبط وجوده وفعله الاّ به عزَّ وجلّ.

كما أننا سنكون من المشركين أيضاً لو اعتبرنا كائناً ما مخلوقاً من قبل الله تعالىٰ، واعتقدنا في الوقت ذاته بأن شؤون العالم أو العباد قد أُسندت اليه، وانه يحظىٰ باستقلال ذاتي في تدبيرها.

لقد كان الكثير من المشركين في عصر الجاهلية وأثناء الاسلام يؤمنون بهذه

---

٢٠٢ ــ كشف الأسرار ص ٥١.

العقيدة فهم كانوا يعتقدون بأنّ الملائكة والنجوم التي خلقها الله، هي مدبرة العالم،[٢٠٣] أو علىٰ الأقل إنّ بعضاً من الأعمال الالٰهية كالشفاعة والمغفرة قد فوّضت اليها، كما إنها كانت تتمتع بالاستقلال التام في اعمالها.

أمّا جماعة المعتزلة فهم يعتبرون الانسان من حيث الوجود، مخلوقاً من قبل الله تعالىٰ، ولكنهم يعتبرونه مستقلاً من حيث التأثير وانجاز الأعمال. بيد إنهم لو تمحّصوا قليلاً في قولهم، لعلموا بأن هذه العقيدة هي نوع من الشرك الخفيّ الذي هم في غفلة منه، بالرغم من انه لايشبه شرك المشركين. وأما الفارق بين هذين الشركين فانه واضح تماماً. اذ إنَّ أحدهما يدّعي الاستقلال في تدبير شؤون العالم، وفي الأعمال الالٰهية، وأمّا الآخر فيدّعي بأنَّ الانسان مستقل في أعماله.

* * *

٢٠٣ ــ عندما سأل عمروبن لحي عن سبب عبادة الأوثان، أجابه أبناء الشام بأنّ الأوثان ترويهم بالمطر عندما يدعوها، وتعينهم عندما يستعينون بها. وبناءاً لهذه العقيدة جاء عمروبن لحي بـ(هبل) الىٰ مكة. (يرجىٰ مراجعة سيرة إبن هشام ج ١ ص٧٧).

الفصل الثالث عشر

القسم علىٰ الله بحق الأولياء

إنّ أحد أوجه الخلاف بين الفرقة «الوهابية» وسائر الفرق الاسلامية الأُخرىٰ، هو إنّ هذه الفرقة تعتبر القَسَمين التاليين حراماً حيناً، وشركاً في العبادة حيناً آخر:

١ ـ القسم علىٰ الله بحق الأولياء.

٢ ـ القسم علىٰ غير الله.

أما مايخص هذين الموضوعين فنورده كالآتي:

الشرك ، والقسم علىٰ الله بحق الأولياء:

إنّ القرآن الكريم يشيد بجماعة ويصفهم بـ«الصابرين، الصادقين، القانتين، المنفقين والمستغفرين بالأسحار»[٢٠٤].

إذن كيف يمكن والحال هذه أن يسمىٰ عمل من يتوجه الىٰ الله بعد أن يقيم الليل، ويقسم علىٰ الله بحق هذه الجماعة ويقول: «اللّهم إني اسألك بحق المستغفرين بالأسحار إغفر لي ذنوبي» أن يعتبر عمله هذا «شركاً في العبادة»؟ حيث انّ «الشرك في العبادة» هو أنْ نعبد غير الله ونعتبر من سواه سبحانه إلٰهاً ومصدراً للأفعال الالٰهية غير إننا لانتوجه في هذا الدعاء الاّ الىٰ الله، ولانطلب شيئاً الاّ منه، لذلك لوكان هذا العمل حراماً، فلابدّ أن يكون له سبب آخر غير «الشرك».

ونحن هنا نلفت إنتباه كُتاب «الوهابية» الىٰ انَّ القرآن الكريم يذكر محكاً

---

٢٠٤ ـ سورة آل عمران / ١٧.

للفصل بين «المشرك» (طبعاً الشرك في العبادة) وبين «الموحّد»، ولسدّ الطريق أمام تفسير معنىٰ «الشرك» تفسيراً بالرأي. وهذا المحك هو عبارة عن الآية التالية:

«واذا ذكر الله وحدَه اشمئزت قلوبُ الّذين لايؤمنون بالآخرةِ وإذا ذكر الّذين من دونه إذا هم يستبشرونَ»[205].

وفي آية أخرىٰ يصف القرآن «المجرمين» الذين هم المشركين بقوله:

«إنَّهُم كانوا إذا قيل لَهُمْ لا اله إلاّ الله يستكبرون ويقولون إنّا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنونٍ»[206]

إنَّ المشرك وفقاً لهاتين الآيتين، هو ذلك الذي يشمئز قلبه إذا ذكر الله، ويسرّ إذا ذكر الآخرون (الآلهة المصطنعة)، أو يستكبر في الاعتراف بوحدانية الله، ويأبىٰ التخلي عن عبادة من سواه مهما كلّف الثمن.

وفقاً لهذا المعيار، هل الذي يقيم الليل، ولايدعو سوىٰ الله في ظلام الليل الدامس، منتعشاً بذكره، محرّماً النوم الهادىء علىٰ نفسه، منشغلاً في مناجاته، وراجياً إيّاه بمنزلة ومكانة الأعزاء من عباده الموحدين، هل إنّ مثل هذا الشخص هو مشرك؟ هل إنه تَمرّدَ علىٰ ذكر الله واستكبر عن الأعتراف بوحدانيته؟!.

لماذا يستند كُتّاب الوهابية علىٰ أُسسٍ مصطنعة وخيالية، ويعتبرون كافة الموحدين مشركين، وهم وحدهم أعزاء عندالله.

بالاستناد الىٰ هذا المحك، لايمكن إعتبار تسعة وتسعين بالمائة من أصحاب القبلة الواحدة «مشركين» واعتبار جماعة «النجدية» هم الموحّدين فقط.

كما إنه لم يخوّل إلينا تفسير «الشرك في العبادة» كي نفسّره كيفما شئنا، ولكي نعتبر جماعة ما «مشركة» بموجب تفسيرنا هذا.

أميرالمؤمنين، والرجاء من الله بمقام الأولياء:

إننا نلاحظ هذا النوع من الرجاء بوضوح في أدعية «أميرالمؤمنين».حيث كان الامام يقرأ الدعاء التالي بعد نوافل الليل:

«اللّهمَّ إني اسألك بحرمة من عاذَ بكَ منك، ولجأ الىٰ عزّك، واستظلّ بفيئك، واعتصم بحبلك، ولم يثق إلاّ بك»[207].

---

٢٠٥ ــ سورة الزمر / ٤٥.

٢٠٦ ــ سورة الصافات / ٣٥ و٣٦.

٢٠٧ ــ الصحيفة العلوية، الإنتشارات الإسلامية، ص ٣٧٠.

ويقول الإمام في دعاء علّمه لأحد أصحابه:

«وبحقّ السائلين عليك، والراغبين إليك، والمتعوذين بك؛ والمتضرعين، وبحقّ كل عبد متعبّدٍ لك في برٍ أو بحر أو سهل أو جبل أدعوك دعاء من اشتدت فاقته...»[208]

فهل هذه النجوى المنشّطة للروح، وهذا التذلل أمام الله نتيجة أُخرى غير ترسيخ التوحيد (الرجوع الى الله)، وإظهار الحبّ والمودة لأحباءِ الله والذي هو التوجّه الى الله في الوقت ذاته؟ على هذا الأساس يجب غضّ النظر عن الصاق تهمة الكفر والشرك التي تتوفر اكثر من غيرها في بساط «الوهابية» ودراسة الموضوع من زاوية أُخرى. لهذا فانّ بعض المعتدلين من هذه الجماعة قد طرحوا موضوع «الرجاء من الله بحقّ الأولياء» ضمن إطار التحريم والكراهة، بعكس «الصنعاني» المتطرّف الذي طرح الموضوع ضمن نطاق الكفر والشرك .

لقد تبيّن الآن محور الحديث، الأمر الذي يستوجب دراسة الموضوع في إطار الحرام والمكروه، وإعطاء الدليل الواضح حول صحة توسلٍ كهذا.

حصول هذا النوع من التوسل في الاسلام:

لقد ورد هذا النوع من التوسّل في الروايات الاسلامية أيضاً؛ فبناءاً على هذه الروايات الثابتة التي ورد بعضها عن النبيّ (ص) وورد البعض الآخر عن أهل البيت (ع)، لايمكن ان نعتبر هذا النوع من التوسّل حراماً أو مكروهاً.

فقد علّم «الرسول الأكرم» (ص) ذلك الأعمى كي يردد قوله:

«**اللّهمّ إني** اسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة»[209]

ولقد نقل «أبو سعيد الخدري» عن «النبي» (ص) الدعاء التالي:

اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وأسالك بحق ممشاي هذا»[210]. ـ كذا

وهكذا تاب آدم (ع):

«أسألك بحق محمد الاّ غفرت لي»[211]

---

٢٠٨ ـ الصحيفة العلوية، ص ٥١.

٢٠٩ ـ سنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٤١ ـ مسند أحمد ج ٤ ص ١٣٨ ـ مستدرك الحاكم ج ١ ص ٣١٣ ـ التاج ج ١ ص ٢٨٦.

٢١٠ ـ سنن ابن ماجة ج ١ ص ٢٦١ و ٢٦٢ ـ مسند أحمد ج ٣، الحديث ٢١.

٢١١ ـ الدرّ المنثور ج ١ ص ٥٩ ـ مستدرك الحاكم ج ٢ ص ٦١٥ ـ روح المعاني ج ١ ص ٢١٧ ـ (وقد اطّلعت عزيزي القارىء على النصوص المفصلة لهذه الأحاديث في القسم الخاص بالتوسل).

وعندما وارى النبي(ص) جثمان أم علي(ع) دعاها بقوله:

«اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي...»[212]

بالرغم من عدم وجود لفظة القسم في هذه الجمل، الاّ ان مضمونها الحقيقي يشتمل على القسم علىٰ الله بحق الأولياء، حيث يقولون: اللهم أسألك بحق السائلين، أي أُقسمك بحقهم.

ان الأدعية التي و.ردت في الصحيفة السجادية، نقلاً عن الامام الرابع زين العابدين علي بن الحسين(ع) هي دليل واضح على صحة وثبوت هذا النوع من التوسل. ولايخفىٰ ان فصاحة الكلمات وبلاغة المعاني في أداعية الصحيفة تجعلنا في غنًى عن النقاش حول صحة انتساب هذه الأدعية الى الامام السجاد علي بن الحسين(ع).

لقد كان الامام السجاد(ع) يناجي ربّه في يوم عرفه بقوله:

«بحق من انتجبت من خلقك، وبمن اصطفيته لنفسك، بحق من اخترت، من بريتك ومن أجبيت لشأنك، بحق من وصلت طاعته بطاعتك ومن نطت معاداته بمعادتك»[213].

وعندما زار الامام الصادق(ع) قبر «جده» الكريم «أميرالمؤمنين» علي(ع)، دعا في ختام الزيارة قائلاً:

«اللهم استجب دعائي واقبل ثنائي واجمع بيني وبين أوليائي بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين»[214].

ان الامام السجاد والامام الصادق(ع) لم يكونوا الوحيدين اللذين أقسما الله بحق الاعزاء عليه في أدعيتهما، انما ورد هذا النوع من التوسل غالباً في الأدعية التي نقلت عن زعماء الشيعة الطاهرين. حيث يقول سيد الأحرار «الحسين بن علي»(ع):

«اللهم اني أسألك بكلماتك ومعاقد عزّك وسكان سمٰواتك وأرضك وأنبيائك ورسلك أن تستجيب لي فقد رهقني من أمري عسرٌ فأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعل من أمري يسراً».

ان امثال هذه الأدعية هي من الكثرة بحيث يؤدي نقلها الى اطالة الكلام، ولذلك من الأفضل أن نختصر الحديث في هذا المجال ونتطرق الى ايضاح دلائل واعتراضات الطرف المعارض.

---

٢١٢ ـــ الفصول المهمة ص ٣١، تأليف ابن الصباغ المالكي المتوفي في عام ٨٥٥هـ.

٢١٣ ـــ الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧.

٢١٤ ـــ زيارة امين الله.

الاعتراض الأول:

يتفق علماء الاسلام على أن القسم على الله بالمخلوق أو بحق المخلوق حرام.[٢١٥]

ان معنى الأجماع هو اتفاق علماء الاسلام حول حكم من الأحكام في أي عصرٍ أو في كافة العصور. وعلى هذا الأساس فان الاتّفاق ذاته وحسب وجهة نظر علماء السنة، هو حجة من الحجج الإلٰهية. وفي رأي علماء الشيعة فان الاتفاق يعتبر حجة لكونه يشير الى رأي وموافقة الامام المعصوم الذي يعيش بين أبناء الأُمة.

نحن نتساءل الآن، هل هناك اتّفاق في وجهة النظر حول هذه المسألة؟ اننا نترك علماء الشيعة وعلماء السنة جانباً، ونستند فقط على أقوال زعماء (أئمة) المذاهب الأربعة ونتساءل، هل ان هؤلاء الأئمة أفتوا بتحريم مسألة كهذه؟ واذا كانوا قد أفتوا بتحريمها فنرجو أن تذكروا نص الفتوىٰ مع اسم الكتاب ورقم الصفحة التي تشتمل عليه.

ان كتب الفقه والحديث لعلماء السنة لا تشتمل في الأساس على هذا النوع من التوسل كي يبدوا رأيهم بشأنه. اذن اين هو ذلك الاتفاق والاجماع الذي يدّعيه مؤلف كتاب «الهدية السنية»؟. ان الشخص الوحيد الذي نقل المؤلف التحريم عنه، هو شخص عديم الصيت يسمىٰ «العزيز بن عبدالسلام»، وكأنّ كافة علماء الاسلام قد جمعوا في مؤلف «الهدية السنية» و «العزيز بن عبدالسلام» ولاغير.

بعد ذلك يروي المؤلف عن «أبي حنيفة» وتلميذه «أبي يوسف» قولهما بأن قول بـ«حق فلانٍ» مكروه. ثم ماهي قيمة فتوىٰ أبي حنيفة وتلميذه في مقابل الروايات المؤكدة والراسخة عن النبي الكريم(ص) وأهل البيت(ع)، والتي يتفق عليها المحدثون السنة بأنها «الثقل الأصغر وأقوالهم حجة»[٢١٦]. هذا ناهيك عن عدم ثبوت صحة انتساب تلك الفتوىٰ الى «أبي حنيفة».

خلاصة القول، ليس هناك دليل باسم الاجماع في المسألة. أما الآن فننتقل الى دراسة اعتراضهم الثاني.

الإعتراض الثاني:

«ان المسألة بحق المخلوق لاتجوز لأنه لاحق للمخلوق على الخالق»[٢١٧]

الرّد:

---

٢١٥ ــ «كشف الإرتياب» ص ٣٢، نقلاً عن «الهدية السنية».

٢١٦ ــ حديث الثّقلين هو من الأحاديث الاسلامية المتواترة والذي لايشَكّ في تواتره سوىٰ المعاند.

٢١٧ ــ كشف الارتياب ص ٢٣١، نقلاً عن «قدوري».

ان هذا النوع من الاستدلال ليس إلاّ اجتهاداً أمام النص الصريح. اذ لو لم يكن للمخلوق حق في ذمة الخالق، فلماذا أقسم «آدم» ونبي الاسلام على الله بهذه الحقوق وسألاه أسئلة بسببها كما ورد ذلك في الأحاديث السابقة؟

اضافة الى ذلك ليس هناك ضرورة كي نأتي بلفظة «عليك» عند اقسام الله تعالى، انما يكفي أن نقول «اللهم اني اسألك بحق فلان أو فلان» حيث ان كلمة حق في اللغة العربية تعني الأمر الثابت، والمراد منها هنا، هو المكانات السامية لأعزاء الله والمستحصلة من القرب من الله، الزهد، التقوى، العبادة والعلم.

لو غضضنا النظر عن هذا كله، ولكن كيف يمكننا ان نأوّل الآيات القرآنية؟ اذ ان القرآن يعرّف العباد الصالحين في بعض الأحيان بأن لهم حقوقاً في ذمة الله، وهكذا تعرّفهم الأحاديث الاسلامية أيضاً.

وأما الآيات بهذا الخصوص فهي كالآتي:

«**وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنينَ**» (الروم / ٤٧)

«**وعداً عليه حقاً في التوراةِ والانجيلِ**» (التوبة / ١١١)

«**كذٰلك حقاً علينا نُنجِ المؤمنينَ**» (يونس / ١٠٣)

«**اِنّما التوبة على الله والّذين يعملون السوء بجهالةٍ**» (النساء / ١٧)

هل يصحّ أن نأوّل كل هذه الآيات بملء اختيارنا وبناءاً لمجموعة تصورات واهية لا أساس لها؟

* * *

أما الآن فنورد نماذج من الأحاديث كالآتي:

١ ـ « حق على الله عون من نكح التماس العفاف مما حرّم الله» [٢١٨]

٢ ـ قال رسول الله: «ثلاثة حق على الله عونهم، الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء والناكح الذي يريد التعفف» [٢١٩]

٣ ـ «أتدري ما حق العباد على الله...» [٢٢٠]

نعم يبدو واضحا بأنه ليس لأحدٍ ذاتياً حق على الله حتى لو عبدالله قروناً، خاضعاً له وخاشعاً، وذلك لأن كل ما للعبد هو من الله تعالى، وهو لم يصرف شيئاً من عنده في سبيل الله كي يستحق الثواب ذاتياً.

---

٢١٨ ـ الجامع الصغير للسيوطي، الجلد الثاني ص٣٣.

٢١٩ ـ «سنن ابن ماجة»، المجلّد الثاني ص ٨٤١.

٢٢٠ ـ «نهاية» ابن أثير، مادة حق.

على هذا الأساس فان المقصود من الحق في هذه الحالات، هو الأجر والثواب الالٰهي، وكذلك المكانة التي يمنحها الباري عزّ وجلّ لعباده بناءاً لتوجهاته الخاصة وان وقوع هذا الحق في ذمة الله هو دليل على عظمة الله وكبريائه.

بعبارة أُخرىٰ، ان مسألة حق المخلوق في ذمة الخالق، هو كطلب الله دَيناً من العبد الفقير والمتسوّل المطلق.[٢٢١] ان هذه التعهدات ومنح الحق لذويه، قد وعدبها الله بناءً لألطافه وكراماته، وجعل نفسه مَدين عباده الصالحين، وجعل عباده واصحاب الحق ليصبح هو «من عليه الحق» ومتعهداً.

---

٢٢١ ــ من ذا الَّذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعف له أضعافاً كثيرة (البقرة/ ٢٤٥).

الفصل الرابع عشر

القَسَم بغيرالله

ان القسم بغيرالله هو من المسائل التي تبدي جماعة «الوهابية» حساسية خاصة بشأنها. حيث اعتبر أحد كتّاب هذه الجماعة المسمى «الصنعاني»: اعتبر هذا القسم في كتابه «تطهير الاعتقاد» أساس الشرك [٢٢٢]، كما اعتبره مؤلف «الهدية السنية» شركاً صغيراً.[٢٢٣] بيد اننا سنقوم بحولِ الله تعالى بدراسة هذه المسألة بعيداً عن التعصب، متخذين من كتاب الله والسنن الصحيحة للأنبياء والأئمة المعصومين مصباحاً يضيء الدرب أمامنا في هذا المجال.

أدلتنا على جواز القسم بغير الله:

الدليل الأول:

ان القرآن الكريم هو القائد الأعلى والثقل الأكبر ومنهاج الحياة لكل مسلم. وقد جاءت في هذا الكتاب عشرات القسم بغيرالله بحيث يؤدي ايرادها كلها الى اطالة الكلام في هذا المجال.

فقد أقسم الله في سورة «الشمس» وحدها بثمانية مما خلق، والتي هي عبارة عن:

«الشمس، ضحى الشمس، القمر والنهار، الليل، السماء، النفس الانسانية،

---

٢٢٢ ــ كشف الارتياب، ص ٣٣٦ ــ نقلاً عن كتاب «تطهير الاعتقاد» ص ١٤.

٢٢٣ ــ المصدر السابق ــ نقلاً عن كتاب «الهدية السنية» ص ٢٥.

والأرض.[224] كما أقسم بثلاثة أشياء[225] في سورة «النازعات»، وبشيئين[226] في سورة «المرسلات». وكذلك فقد ورد القسم في سورة «الطارق»، «القلم»، «العصر» و «البلد».

بالاضافة الى ذلك يرجى ملاحظة الآيات التالية أيضاً:

«والتّينِ والزيتون وطورِ سينين وهذا البلد الأمين»[227]

«والليلِ إذا يغشى والنهارِ إذا تجلّى»[228].

«والفجرِ وليالٍ عشرٍ والشفعِ والوترِ والليلِ اذا يسرِ»[229].

«والطور و كتابٍ مسطورٍ في رقٍ منشورٍ والبيتِ المعمورِ والسقفِ المرفوعِ والبحرِ المسجورِ»[230]

«لعمركَ انّهم لفي سكرتهم يعمهونَ»[231].

اذن أيمكن أن يقال بأن القسم بغير الله هو شرك وحرام، بالرغم من هذا القسم المتوالي الذي جاء في القرآن الكريم؟

ان القرآن هو كتاب الهداية والأُسوة والقدوة، وعليه لو كان هذا القسم محرّماً على عباد الله، لكان من المفروض أن يحذّر منه القرآن ولكان قد ذكر بأن هذا النوع من القسم هو من خصائص الله تعالى.

ان عديمي الذوق ممن لاعلم لهم بأهداف القرآن يقولون بأنه يمكن أن يكون ما يصدر من الله جميلاً، ولكن صدور نفس الشيء من دون الله غير جميل.

الاّ ان الجواب على ذلك واضحٌ. ذلك لو كان القسم بغير الله «شركاً» وتشبيهاً لغير الله بالله اذن لماذا ارتكب الله نفسه هذا النوع من الشرك ـــ شركا مطلقاً كان أو شركاً صغيراً ـــ؟ أيصح ان يجعل الله لنفسه شريكاً، ويمنع غيره من ارتكاب شرك كهذا؟.

الدليل الثاني:

لقد اقسم النبي (ص) بغير الله في بعض الحالات، والمثال على ذلك :

---

٢٢٤ ـــ سورة الشمس، الآيات (١ ـــ ٧).

٢٢٥ ـــ سورة النازعات، الآيات (١ ـــ ٣).

٢٢٦ ـــ سورة المرسلات، الآيات (١ ـــ ٣).

٢٢٧ ـــ سورة التّين، الآيات (١ ـــ ٣).

٢٢٨ ـــ سورة الضحى، الآيتان (١ ـــ ٢).

٢٢٩ ـــ سورة الفجر، الآيات (١ ـــ ٤).

٢٣٠ ـــ سورة الطور، الآيات (١ ـــ ٦).

٢٣١ ـــ سورة الحجر، الآيات (٢ ـــ ٧).

١ ــ حديث من صحيح مسلم:

«جاء رجل الى النبي فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال اما وأبيك لتنبانه أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشىٰ الفقر وتأمل البقاء»[٢٣٢]

٢ ــ حديث آخر من صحيح مسلم:

«جاء رجل الىٰ رسول الله من أهل نجد، يسأل عن الاسلام، فقال رسول الله (ص) خمس صلواتٍ في اليوم والليل، فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، الاّ ان تطوع. وصيام شهر رمضان، فقال: هل عليَّ غيره؟ قال: لا، الاّ أن تطوع، وذكر له رسول الله (ص) الزكاة فقال: هل عليَّ غيره؟ قال: لا، الاّ ان تطوع، فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال رسول الله افلح وأبيه ان صدق أو أُدخل الجنة وابيه ان صدق». [٢٣٣]

٣ ــ حديث من مسند أحمد بن حنبل:

«فلعمري لأن تكلم بمعروف وتنهىٰ عن منكرٍ خير من أن تسكت» [٢٣٤]

وهناك أحاديث أخرىٰ بهذا الخصوص لامجال لذكرها هنا. [٢٣٥]

ولقد أقسم «اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب» الذي هو نموذج بارز للتربية الاسلامية أقسم بحياته عدة مرات في خطبه ورسائله وكلماته.[٢٣٦] كما ان الخليفة الأول كان يقسم حتى بحياة أب الشخص الذي كان يخاطبه.[٢٣٧]

المذاهب الأربعة والقسم بغيرالله:

قبل الخوض في دراسة أدلّة الوهابيين، ارتأينا ان نطّلع على فتاوي أئمة المذاهب الأربعة بهذا الصدد.[٢٣٨]

---

٢٣٢ ــ «صحيح مسلم»، كتاب الزكاة، الجزء الثالث، باب أفضل الصدقة، ص ٩٤.

٢٣٣ ــ «صحيح مسلم»، الجزء الأول، باب ما هو الاسلام وبيان خصاله، ص ٣٢.

٢٣٤ ــ «مسند احمد» المجلد الخامس، ص ٢٢٥.

٢٣٥ ــ يرجىٰ مراجعة «مسند أحمد» المجلد الخامس ص ٢١٢، وكذلك سنن ابن ماجة المجلد الرابع ص ٩٩٥ والمجلد الثاني ص ٢٥٥.

٢٣٦ ــ نهج البلاغة ــ لعبدة ــ الخطب ٢٣، ٢٥، ٥٦، ٨٥، ١٦١، ١٦٨، ١٨٢، ١٨٧ والرسائل ٦، ٩، ٥٤.

٢٣٧ ــ «موطأ الامام مالک» مع تفسير الزرقاني، المجلد الرابع ص ١٥٩.

٢٣٨ ــ «الفقه على المذاهب الأربعة» كتاب اليمين، المجلد الثاني، ص ٧٥ طبعة مصر والمذكور في اعلاها هو ما اذا قصد اشراك غيرالله معه في التعظيم او قصد الاستهانة بالحلف بالنبيّ والرسول ونحو ذلك.

يعتقد «الحنفيون» بأن «القسم بالأب والحياة» وماشابه ذلك مكروه. ويعتقد «الشافعيون» بانه لولم يثبت القسم بغيرالله شيئاً مما ورد في أعلا الصفحة فهومكروه.

يقول «المالكيون»: ان القسم بالعظماء والمقدسين كالقسم بالنبي والكعبة هو مكروه من جهة وحرام من جهة أُخرىٰ، والمشهور هوحرمته.

ويعتقد «الحنابلة» بان القسم بغيرالله تعالى وبصفاته حرام، حتى وان كان ذلك القسم قسماً بنبي أو ولي من أوليائه.

هذا ناهيك عن ان جميع هذه الفتاوى هي نوع من الاجتهاد أمام النصوص القرآنية والسنن النبوية وسنن اولياء الله، ولاحيلة لعلماء العصر الآ متابعة آراء أصحاب تلك الفتاوى، وذلك نظرا لانسداد باب الاجتهاد عند السنة.

أضف الى ذلك ان «القسطلاني» قد أورد في كتابه «ارشاد الساري» نقلاً عن المالكيين قولاً بكراهة هذا القسم وناهيك من عدم ثبوت نسبة تحريم هذا النوع من القسم الى «الحنابلة» وذلك لأن «ابن قدامة» قد كتب في كتاب «المغني» استناداً الى فقه الحنابلة قوله: «ان جماعةً من أصحابنا قالوا بأن القسم برسول الله هو قسم يستوجب الكفّارة لونكث». ويروي عن أحمد انه قال: «من أقسم بحق رسول الله ومن ثم نكثه فرضت عليه الكفّارة، وذلك لأن حق النبي هو أحد أعمدة الشهادة. وعلى هذا الأساس فان القسم بالنبي هو كالقسم بالله وكلاهما يستوجب الكفّارة».[٢٣٩]

يتبين من خلال هذه الأقوال بانه لايمكن القول بتاتاً بانّ اماماً من أئمة المذاهب الأربعة قد أفتىٰ بصورة مؤكدة علىٰ تحريم هذا النوع من القسم.

بعد الاطّلاع على آراء و وجهات نظر فقهاء المذاهب الأربعة، نتطرق الآن الى دراسة حديثين اتّخذهما «الوهابيون» ذريعة سكبوا على اثرها دماءً بغيرحقٍ[٢٤٠] واستهدفوا ملايين المسلمين بسهام التكفير السامة.

الحديث الأول:

«ان رسول الله سمع عُمرَ (رض)، وهو يقول: وأبي فقال ان الله ينهاكم ان

---

٢٣٩ ــ «المغني» المجلد التاسع ص ٥١٧.

٢٤٠ ــ لقد شنّ «الوهابيون» هجومين على مدينة كربلاء، كان احدهما في عام ١٢١٦هـ والآخر في عام ١٢٥٩هـ. ولم يرحموا خلالهما لا الصغير ولا الكبير، حتى انهم قتلوا ستة آلاف شخص خلال مدة ثلاثة أيام فقط، ونهبوا كافة نفائس الحرم الشريف أُسوةً بما فعل جيش يزيد ولكن لماذا؟ السبب هو لأن هؤلاء كانوا يقسمون بأبناء النبي ويكّنون الحبَّ والمودة اليهم.

تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت». [241]

الجواب: أولاً: ان النهي عن القسم بحياة الآباء، قد جاء بسبب ان أغلب الآباء كانوا مشركين ومن عبدة الأوثان، ولذلك فهم لم يتحلوا بذلك الاحترام وبتلك القيمة والقداسة التي تؤهلهم للقسم بحياتهم. حيث جاء في بعض الأحاديث: لا تقسموا بالآباء والطواغيت (أوثان العرب)[242].

ثانياً: المقصود من النهي عن القسم بالأب، هو النهي عن ذلك القسم الذي يأتي في مجال التحكيم وفضّ النزاع. ذلك لأن جميع علماء الاسلام يتفقون على انه ليس هناك قسم يكفي لحل النزاع سوى القسم بالله وبصفاته التي تشير الى الذات.

بالاستناد الى هذه الأدلة الواضحة، كيف يمكن ان يقال إذن بأن النبي (ص) قد أنهى عن القسم بمقدساتٍ، كأولياء الله ورسله، في حين ان نهيه اشتمل على حالة خاصة فقط؟.

الحديث الثاني:

«جاء ابن عمر رجل فقال، أحلف بالكعبة، قال لا ولكن أحلف برب الكعبة، فان عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله (ص) لاتحلف بأبيك، فان من حلف بغيرالله فقد أشرك».

ان هذا الحديث يتألف من ثلاثة امور:

١ ــ انّ رجلاً جاء الى ابن عمر فقال: احلف بالكعبة، فاجابه بقوله: لاولكن احلف برب الكعبة.

٢ ــ انّ عمر كان يحلف بأَبيه عند رسول الله، فقال رسول الله: لاتحلف بأَبيك.

٣ ــ ان ابن عمر طبق قوله (ص): «من حلف بغيرالله فقد أشرك».

الذي ورد في الحلف بالمشرك، على الحلف بالمقدسات كالكعبة، مع ان كلام الرسول حسبما اوضحناه عند البحث عن الحديث الاول ورد في الحلف بالمشرك.

وبما اوضحنا سابقاً بان النبي واصحابه كانوا يحلفون بغيرالله سبحانه كثيراً، يجب

---

٢٤١ ــ سنن ابن ماجة، المجلد الاول ص ٢٧٧ ــ سنن الترمذي المجلد الرابع ص ١٠٩ ــ سنن النسائي المجلد السابع ص ٤-٥ ــ السنن الكبرى المجلد العاشر ص ٢٩.

٢٤٢ ــ «السنن الكبرى» المجلد الاول ص ٢٩ نقلاً عن صحيح مسلم، وسنن النسائي المجلد السابع ص ٧٧، سنن ابن ماجة المجلد الاول ص ٢٧٨. جاء في حديث آخر: «لاتحلفوا بآبائكم ولا بأُمهاتكم ولا بالأنداد» (سنن النسائي المجلد السابع ص ٦).

علينا حمل قوله (ص) «من حلف بغيرِ الله فقد آشرك» على الحلف بالمشرك، وامثاله لاعلى الحلف بالامور المقدسة كالقرآن والكعبة والنبي، بدليل أن النبي آتى بهذه القاعدة عند حلف عمر بأبيه المشرك .

وان تطبيق هذا الحديث على الأوسع من الشرك ونحوه اجتهاد صدر من ابن عمر، واجتهاده حجة على نفسه.

واما ان رسول الله جعل الحلف بالمشرك شركاً لانه الحلف به نوع تصديق لمسلكه ومذهبه. وعلى الجملةفنحن نقبل ان رسول الله(ص) عندما حلف عمر بأبيه المشرك قال:

لاتحلف بأبيك فان من حلف بغيرالله فقد آشرك ؛ لكن القاعدة المذكورة في كلام النبي(ص) مختصة بما حلف به عمر ونظيره ولايعم الامور المقدسة.

واما الحلف بالكعبة والقرآن والانبياء والاولياء (في غير مقام القضاء) فهوخارج عن تلك القاعدة الكلية، غير ان ابن عمر ادّعى للقاعدة مفهوماً وسيعاً فاستدل به على النبي عن الحلف بالكعبة وهذا الاجتهاد ليس بحجة على غير ابن عمر.

وان شئت قلت: ان قول النبي صلى الله عليه وآله «من حلف بغيرالله فقد أشرك » ناظر الى حلف خاص يستتشم منه الشرك او يدل عليه بنحو من الدلالة، وهو الحلف بالطواغيت مثل اللات والعزى، وعبدتها المشركين، ولأجل ذلك ان النبي يقول: **«من حلف فقال في حلفه: باللات والعزى فليقل: لا إله إلّا الله».**

وعند ذلك لايبقى اي اعتماد وثقة باطلاق قوله، وشمول لفظه في القاعدة المضروبة؛ اعني «من حلف بغير الله فقد آشرك ».

ويؤيد ذلك ايضاً ماروا‌هُ النسائي عنه (ص): «لاتحلفوا بآبائكم ولا بأُمهاتكم ولا بالأنداد»[٢٤٣].

بل يمكن أن يُقال: ان قوله (ص): «من حلف بغيرالله فقد آشرك » كان كلاماً مستقلاً. وانما كان الجمع حتى بين الحلف بالاب المشرك ، وتلك القاعدة من جانب ابن عمر.

وذلك لاننا نرى ان امام الحنابلة يروي في مسنده عن ابن عمر بالصورة التالية: «كان يحلف ابي فنهاهُ النبي؛ قال من حلف بشيءٍ دون الله فقد آشرك ».[٢٤٤]

فلو كان قول النبي: من حلف بعد نهي عمر عن الحلف بالاب لزم ان يقول: «فقال: من حلف» مكان: «قال».

---

٢٤٣ ــ سنن النسائي ج ٧ ص ٦.

٢٤٤ ــ مسند احمد ج ٢ ص ٣٤.

وأيضاً نرى ان امام الحنابلة ينقل القاعدة المذكورة مستقلة عن كل ضميمة ويقول : من حلف بغيرالله قال فيه قولاً شديداً.[245]

فتحصل من ذلك :

اولاً : ان تطبيق قوله(ص) على الحلف بالكعبة كان اجتهاداً من ابن عمر، وليس لقوله (ص) ذاك الشمول والاطلاق.

وثانياً : ان الجمع بين نهي عمر عن الحلف بأبيه والقاعدة كان منه ايضاً.

افبعد هذا يمكن الاستناد بهذا الحلف تجاه النصوص المجوزة المستفيضة ؟.

لو افترضنا بأنّ هذا الجمع في حديث الرسول الأكرم (ص) كان موجوداً، فمن البديهي ان القسم بالأب المسلم والموحّد لايمكن ان يشمّ منه الشرك ، فكيف اذن يعتبر «شركاً» !.

طبيعي أن يقال هنا بأن القسم بالآباء المشركين وعبّاد الأوثان وتعظيمهم وتكريمهم يعتبر نوعاً من الإحترام لعقائدهم الملحدة ولكن نحن نتساءل ما هي العلاقة بين هذا الحديث وبين مسألة القسم بالقرآن والنبي والإمام والكعبة المباركة وبسائر المقدسات والمشاعر الإلٰهية !.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

---

٢٤٥ ـ مسند احمد ج ٢ ص ٦٧.